تحت الرئاسة الشرفية لصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد



أعمال
الدورة الرابعة

- الوثائق المرجعية لعهد السلطان مولاي سليمان.
- العمل الداخلي والسياسة الخارجية للسلطان مولاي سليمان.
- الإنجازات الثقافية والعمرانية على عهد السلطان مولاي سليمان.

مركز الدراسات والبحوث العلوية
الريصاني / دجنبر 1992



تحت الرئاسة الشرفية لصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد



أعمال
الدورة الرابعة

- الوثائق المرجعية لعهد السلطان مولاي سليمان.
- العمل الداخلي والسياسة الخارجية للسلطان مولاي سليمان.
- الإنجازات الثقافية والعمرانية على عهد السلطان مولاي سليمان.

الريصاني / دجنبر 1992

الفهرس

الندوة الأولى

الوثائق المرجعية لعهد مولاي سليمان

الندوة الثانية

العمل الداخلي والسياسة الخارجية للسلطان مولاي سليمان

الندوة الثالثة

الانجازات الثقافية والاجتماعية والعمرانية في عهد مولاي سليمان

تقديم

تحت الرئاسة الشرفية لصاحب السمو الملكي الأمير **مولاي رشيد**، وسيرا على نهج التسلسل التاريخي لملوك الدولة العلوية الشريفة، عقدت جامعة " **مولاي علي الشريف** " الخريفية دورتها الرابعة : أيام 18، 19، 20،21 دجنبر 1992، بمشاركة أساتذة جامعيين أبرزت بحوثهم صورة **السلطان مولاي سليمان** كرجل علم ودولة، فقد كان أعلق إخوته بقلب أبيه لانكبابه على تحصيل العلوم بشغف وذكاء، وفي سنه السادسة والعشرين بويع ملكا من منطلق ما تفرست فيه الأمة من تدين وخبرة، ونباهة ونزاهة، وعلو همة وسواها من الشمائل الفطرية، والمميزات الثقافية اللازمة للقيام بأمر الرعية، كما نصت عليه بيعة أهل فاس.

ولما طبع عهده من صراعات وفتن واضطرابات منذ بدايته، ولتزامن هذا العهد مع التحولات التاريخية التي عرفتها أوربا خلال العقد الأخير من القرن الثامن عشر، والتي شكلت تطورا حاسما في سياق التاريخ البشري، فقد

تميزت سياسة السلطان مولاي سليمان بمواجهة التوسع الأوربي من جهة، وبالعمل على تثبيت السلطة المركزية من جهة ثانية، بيد أن قوة التحالفات الاوربية، وتفكك الجهاز الإداري مكنا مخالفيه من استبداله، متعللين بغياب الأمان، وبمخالفة الاعراف المرعية. وإن فيما كتبه شاهد العصر ومؤرخ الدولة، أبو الحسن الزياني، ما ينفي هذا الادعاء، ويؤصل السلطان مولاي سليمان فرعا نضرا في دوحة الدولة العلوية. وإلى جانب ما تورده الوثائق وكتب التاريخ، عن طموح هذا السلطان، وحنكته في التعامل الدبلوماسي، وعن سعيه الصارم للقضاء على البدع والفساد الإداري، ولرأب صدع الوحدة الترابية، أجمع المؤرخون على اهتمامه بإشاعة العلم وتكريم العلماء، مما أثمر ازدهار عصره بالتنافس في الإقبال على طلب المعارف، وعلى التأليف في متنوع التخصصات المعرفية.

والتزاما بالنسق المعتمد في تسيير أعمال دورات جامعة " **مولاي علي الشريف** " الخريفية، توزعت بحوث الدورة الرابعة على ثلاث ندوات، خصصت أولاها لقراءات في وثائق مرجعية، ضمنها وثائق إسبانية، ومخطوطات لعلماء من داخل أفريقيا، بينما عالجت الندوة الثانية جوانب من الأوضاع السياسية والاجتماعية بالمغرب خلال

عهد السلطان مولاي سليمان، كما تطرقت إلى صلته بالثورة الفرنسية وبنابليون بونابرت، إضافة الى جملة عناوين أخرى . وتناولت مداخلات الندوة الثالثة، عدة مواضيع منها : العمارة الدينية، صورة التعليم، النشاط العلمي في عهد السلطان مولاي سليمان. وهنا يجدر التنويه بكل البحوث المطروحة، وبما تضمنته من إضافات علمية أصيلة وجادة، وبالتالي تجديد الشكر المستحق لكل الأساتذة الذين أولوا مسيرة جامعة " **مولاي علي الشريف** " الخريفية دعمهم العلمي الموصول، وأثروا عطاءها بالدراسات الأكاديمية في شتى مناحي وزوايا تراثنا المغربي عبر متابعة أطوار تاريخ الدولة العلوية والتذكير والتعريف بشامل انجازاتها الممتدة بعناية الله شامخة في عهد صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني دام علاه.

واستمرارا في نشر الحصيلة العلمية لكل دورة، يسعد، وزارة الشؤون الثقافية تقديم كتاب : «**أعمال الدورة الرابعة لجامعة " مولاي علي الشريف " الخريفية** إلى القراء والمهتمين، آملة مواصلة الجهود لتطوير أداء الجامعة وترسيخ وظيفتها كأحد روافد المعرفة التاريخية في ظل الرعاية الملكية السامية.

الندوة الاولى

الوثائق المرجعية

لعهدالسلطان مولاي سليمان

بين السلطان مولاي سليمان وعثمان بن فودي

د. محمد رزوق
كلية الآداب عين الشق - البيضاء

ظلت علاقات المغرب متواصلة بافريقيا رغم فترات الانقطاع التي كانت تحدث بين الفينة والأخرى لظروف معينة لا سبيل لعرضها هنا، وسنعطي كنموذج لاستمرارية هذا التواصل : اهتمام السلطان مولاي سليمان لما كان يقع بافريقيا، وذلك من خلال رسالتين صادرتين عن السلطان المذكور.

الرسالتان [1] :

الأولى صادرة عن السلطان مولاي سليمان إلى أمير آهير محمد الباقري وهي في شأن الأعمال الإصلاحية التي كان يقوم بها المصلح الكبير عثمان بن فوذي، مؤرخة في أواسط جمادى الثانية عام 1225 هـ (موافق 1810-1811).

أما الثانية فهي موجهة مباشرة من السلطان إلى المصلح المذكور وهي مؤرخة في 12 جمادى الثانية عام 1225 هـ..

(1) - توجد الرسالتان بكتاب انفاق الميسور، في تاريخ البلاد التكرور لمحمد بلو، تحقيق بهيجة الشاذلي، رسالة جامعية مرقونة محفوظة بمكتبة كلية الآداب بالرباط، 1990، 2 . 402 - 406.

نجد في الرسالتين معلومات فريدة جدا لا نكاد نعثر عليهما في أي مصدر من المصادر المعروفة التي تؤرخ لعصر السلطان مولاي سليمان ونستفيد من هاتين الرسالتين ما يأتي :

أولا : تشير الرسالة الأولى إلى أن سلطان أهير بعث بالرسالة صحبة هدية لقيت القبول والترحاب، وللأمر دلالته.

ثانيا : تطمئن نفس الرسالة السلطان على أحوال أهير، مما يدل على أنه كان مهتما فعلا بما يقع في المنطقة.

ثالثا : تخبر الرسالة الثانية عن أعمال الشيخ عثمان بن فوذي بممالك الهوسا فيما يتعلق بمحاربة البدع، وجور الحكام هناك.

المقارنة بين أعمال الرجلين في مجال الإصلاح :

لقد قام الرجلان بعملهما الإصلاحي في إطار ظرفية خاصة تميزت بانتشار المذهب الوهابي آنذاك بين العديد من الأقطار الإسلامية، كما تميزت كذلك ببروز نقاش حاد حول هذا المذهب بين مؤيد ومعارض، ولسنا الآن بصدد تفصيل ذلك [2]، ولكن نكتفي فقط بالإشارة، إلى أن أعمال الرجلين تتفق في العديد من النقط مع أهداف هذا المذهب، رغم أن كليهما لم يتبناه رسميا، بل إن السلطان مولاي سليمان نفسه كانت له تحفظات متعددة فيما يتعلق ببعض مبادئ الحركة الوهابية.

وهكذا فقد أقدم السلطان مولاي سليمان على العديد من الإجراءات التي كانت تسير في اتجاه الحركة الوهابية، ففي سنة 1804 تم منع القبائل المجاورة للرباط من إقامة موسم بضريح سيدي يحيى بن منصور، وفي السنة التالية أمر بهدم القبة التي بنيت على ضريح والده [3]، وفي سنة 1806

(2) – للمزيد من المعلومات حول هذه القضية انظر : محمد المنصور، الحركة الوهابية وردود الفعل المغربية عند بداية القرن التاسع عشر، ضمن كتاب الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، ص 175 – 191.

(3) – تاريخ الضعيف (تحقيق أحمد العماري).

أصدر رسالة هامة في تحريم السماع هاجم فيها بعض الطرق الصوفية وما تلجأ إليه من استعمال الطرب والرقص لأغراض العبادة[4] .

كما كان يشدد في النهي عن زيارة القبور والدعاء عندها إلى درجة تقترب من التحريم وهو يفضل أن تمنع العامة من الإقدام على أمر مكروه مخافة أن يقعوا فيما هو محرم، ومن نفس المنطلق يفتي السلطان مكروه مخافة أن يقعوا فيما هو محرم، ومن نفس المنطلق يفتي السلطان بتحريم الدبح على أضرحة الأولياء لأن ذلك غالبا ما يؤدي إلى اعتقاد التأثير من الولي[5].

وهكذا فالسلطان كان مع المذهب الوهابي في جوانبه الإيجابية من حيث محاربة البدع، واخلاص التوحيد لله، ومحاولة الرجوع بالدين إلى نقائه الأصلي، ولكنه اختلف معهم في جوانب أخرى مثل :

- قضية التكفير (التوسل بالأنبياء والصالحين)

- مسألة التمييز بين المحرم والمكروه (تحريم البناء فوق القبور)

- كما اختلف معهم أيضا في مسألة التسامح، إذا كان يدعو إلى ضرورة الإقناع عن طريق الحوار والمناظرة [6].

إصلاحات عثمان بن فوذي في بلاد التكرور :

عرفت المنطقة تدهورا اجتماعيا خطيرا في هذه الفترة سجله محمد بلو ابن مصلحنا قائلا : "حدثونا أن لسلاطينهم وأمرائهم مواطن يركبون إليها، ويذبحون بها، ويرشون بالدماء على أبواب قريتهم، ولهم بيوت معظمة فيها حيات، وأشياء يذبحون لها، ويفعلون للبحر كما تفعل القبط للنيل أيام الجاهلية" [7].

(4) - مخطوطة بالخزانة الصبيحية بسلا، رقم 652.
(5) - انظر محمد المنصور، المصدر السابق، ص 189.
(6) - المصدر السابق، 188 - 189
(7) - انفاق الميسور، ص 169.

وهكذا رغم أن الإسلام كان قد انتشر منذ وقت بعيد في هذه المناطق، إلا أن العادات والتقاليد الوثنية كانت تطغى في كثير من الأحيان على بعض جوانب الحياة الإجتماعية.

المرحلة الأولى من دعوة الشيخ :

يمكن تلخيص ما كان يدعو إليه في هذه المرحلة في ثلاثة نقط :

- تعليم الناس أمور الدين من فرائض وغيرها

- الحث على التشبث بسنة رسول الله، واجتناب البدع والخرافات التي لا أصل لها في الشرع.

- الرد على الأقوال والإعتقادات الفاسدة، وتفنيدها بالحجة والبرهان[8].

بدأ عثمان بن فودي يجاهر بمبادئه، وكان يساعده في نشر دعوته أخوه عبد الله، فأخذ يتجول في مجموع إمارات الهوسا، يعظ الناس ويرشدهم، ويقول أخوه في هذا الصدد : "... ثم قمنا مع الشيخ نعينه على تبليغ الدين، يسير لذلك شرقا وغربا ويدعو الناس إلى دين الله بوعظه، وقصائد عجمية، ويهدم العوائد المخالفة للشرع، فيأتي إليه بعض الناس من الآفاق، ويدخلون في جماعته ... سرنا معه إلى بلاد كب فدعاهم إلى إصلاح الإيمان والإسلام، والإحسان وترك العوائد الناقضة له، فتاب كثير منهم، وساروا إليه لما رجع إلى وطنه أفواجا، يستمعون الوعظ ...." [9].

المرحلة الثانية :

لما كثر اتباعه، وذاعت شهرته، بدأ عثمان بن فودي يفكر في المرحلة

---

(8) - بهيجة الشاذلي، عثمان بن فودي وحركته الإصلاحية، مقال بمجلة حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، العدد 7 سنة 1990، ص 113 - 114.

(9) - عبد الله بن فودي، تزيين الورقات، ص 19.

الثانيـة من دعـوته، وهي وعظ الأمـراء، وإرشـادهم، بعـد أن اسـتـجـابت له العامة، يقول أخوه في هذا الصدد : "وكان الشيخ لا يسير إلى الملوك، ولا يعاملهم، فلما كثرت الجماعة عنده واشتهر أمره عند الملوك وغيرهم، رأى أنه لا بد من المسير إليهم، فسار إلى أمير غوبر (باو)، وبين له الإسلام الصحيح، وأمره بذلك، وبإقامة العدل في بلاده، ثم رجع إلى وطنه، وتمكن بذلك من الدعاء إلى الدين إذ صار من لا يخاف الله ويخاف انكار أمره، لأجل اتصاله بالسلطان" [10].

وهكذا لا حظنا من خلال هذه المقارنة السريعة أن المغرب كان يتتبع باستمرار ما يجري بافريقيا، حريصا على أن يظل الإسلام بها نقيا من العادات الوثنية.

(10) - المصدر السابق، ص 27.

ملحق
الرسالة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله وبالله، وما توفيقي إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، "فانقلبوا بنعمة من الله وفضل، لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله".

الحمد لله الذي هدانا للإيمان والإسلام، وأزكى الصلاة والسلام على سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب وعجم وعلى آله وصحبه وكل من انتصر به.

ومن تكن برسول الله نصرته　　　إن تلقه الأسد في آجامها تجم

وبعد السلام التام المحفوف بمزيد الإكرام على أخينا في الله سلالة السلاطين والخلفاء الأساطين سلطان آهر السيد محمد الباقري ابن السلطان محمد العدال فلتعلم أنه أتى حضرتنا العلية بالله صحبة هديتك الدالة على حسن طويتك، كتاب منك كريم فتلقيناه بالتبجيل والتكريم، وفتحناه، فإذا هو مخبرنا عن حسن حالكم، ومافتح الله به عليكم من بلوغ آمالكم ومخبر عن حال الفقيه النبيه الصالح السيد عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح الذي أقام ببلادكم منارا الإسلام، وأحيى سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وأخمد البدعة والضلالة، وهدم أركان الجهالة، وشن الغارات على بلاد الكفرة حتى كسر شوكتهم، وأضعف مملكتهم، وقهر أهل الطغيان والفساد، وغلا به الإيمان وساد، وزاد في شرح حاله عندنا حامل كتابكم إلينا الشيخ عثمان بن محمد بن منصور بلسان طلق غير ذي عوج وقصور، وأطال لسانه

بالثناء عليكم وعلى وزيركم حتى خلنا أن العدل عليكم مقصور، فحمدنا إليكم الله الذي يتوكل عليه المتوكلون، وبه نستعين، وهو - سبحانه - القوي المعين ونسأله - تعالى - أن يسبل عليكم مننه ومنحه ويديم على أعاديكم نقمه ومحنه، وحسن طويته وتصديق فعله، وقد ذلل قطوفه لناظره تدليلا.

ومما زاد غبطة فيه، وميلا إليه ثناؤكم الجميل الدال على حسن سيرتكم وخلود سريرتكم، وأن القصد وجه الله، والعمل بقوله جلا وعلا: "وتعاونوا على البر والتقوى" الذي هو معتمد المؤمن في التمسك بحبل الله الأقوى، وها نحن إن شاء الله لا ننساكم من الدعاء في الخلوات الجولات، وفي مضان الإجابة، وادبار الصلوات، فلا تنسونا أنتم مثل ذلك أيضا في أوقات الإستجابة، وحالة الرجوع إلي الله والإنابة، وأن يعيننا على ما كلفنا به من أمور الرعية، وأن الأمير أحوج الخلق إلى صالح الأدعية، سيما في هذا الزمان الذي انتشرت فيه المفاسد، وطار به صيت كل فاسد، ولم يوجد من يبذل للأمير النصح المجرد، ولو رجلا واحدا تفرد، وإذا صفا لك من زمانك واحد فاشدد عليه، وأين ذلك الواحد، وقد صفا لك في هذا القائم فيما ذكرت لنا وكتبت به إلينا فاشدد يدك عليه وأدم إحسانك إليه، ختم الله لنا دلك بالخاتمة الحسنى وجعلنا جميعا من المقر الأسنى، بجاه النبي وعترته، وكل من هو ناصر لملته، ويصلك الطابع الذي بعثت عليه على الوصف الذي اشرت في كتابك إليه صحبة رسولكم الشيخ عثمان الذي وصفتموه بغاية الصفة والإمان، ولم نجد بدا من إسعافك لما طلبت توفية بحق ما لك في جانبنا من المحبة التي عليها طبعت، فأسأل الله أن يلهمنا ما يبيض محيانا ومحياك، وأن يغفر لنا من فضله ما جنيناه، ويجعل خير أيامنا وأسعدها يوم نلقاه، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، وبتاريخ أواسط جمادى الثانية عام خمسة وعشرين ومائتين وألف.

المصدر : انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور لمحمد بلو، 2: 402-405

الرسالة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد المصطفى الكريم، وعلى آله وصحبه الذين انتهجوا نهجه القويم، إلى السيد الذي فشا في أقطار السودان عدله، واشتهر في الآفاق المغربية ديانته، وفضله العلامة النبيه، العديم في زمانه الشبيه، ذو النورين العلم والعمل، اللذين هما منتهى الأمل "السيد عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح الفلاني نفع الله بعلومه القاصي والداني، وسلام منا عليه ماشتد شوقنا إليه، ورحمة من الله تغشاه حتى لا تخشى الله والله أحق أن تخشاه.

وبعد، فقد بلغنا من الثناء عليك والتعريف بأحوالك وأفعالك وأقوالك، ما أوجب محبتنا عليك وتسليمنا إليك، وذلك على لسان سلطان ناحيتكم، وأمير الطوائف الإسلامية بساحتكم، المقر في كتابه بفضلك، وأنك ناصح لله، وعليه دار محبنا : السلطان محمد الباقري بن محمد العدال، فإنه أخبرنا بما قمت به من الأمر الواجب من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي له نصب الرسول والأمير والوزير والحاجب، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وترادفت عليك وفود الإسلام أمواجا، وصرت بلطف شمائلك انسان العين من عين الإنسان:

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا   مالم يروا عنده آثار احسان

وهذا من أعظم منح الله، وأتم النعم كما يشهدا الحديث "لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم" فالله تعالى يجازيكم عن

الإسلام خيرا ويقيكم ضيرا، ويديم دولتكم محفوفة محفوظة، ويعين العناية ملحوظة، وفي حصن الله الحريز تالية. قال تعالى سبحانه "ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور".

والسلام معاد على جنابكم الذي صار الإسلام بخلوص نصيحتكم كالبيت المغمور.

وفي الثاني عشر من جمادى الثانية عام خمسة وعشرين ومائتين وألف.

المصدر : انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور 2 : 405– 406

الجيوب المغربية السليبة
في عهد السلطان مولاي سليمان
من خلال الوثائق الإسبانية

محمد ابن عزوز حكيم
أستاذ باحث ومؤرخ

لقد رأيت أنه من الضروري اثارة موضوع الجيوب السليبة بشمال المغرب في عهد السلطان مولاي سليمان لأسباب ثلاث :

أولا : لعدم وجود وثائق أو مراجع مغربية تتناول الموضوع بالرغم من أهميته البالغة.

ثانيا : وجوب القيام بدراسات خاصة لجزئيات الأحداث التاريخية قبل التفكير في إعادة كتابة التاريخ المغربي العام.

ثالثا : إقامة الدليل مرة أخرى على أنه لا مفر لنا من اللجوء إلى الوثائق والمراجع والمصادر الأجنبية لإعادة كتابة تاريخ المغرب المعاصر.

وإلحاحي على ضرورة اللجوء إلى الوثائق والمصادر والمراجع الأجنبية يرجع سببه إلى الإنتقادات التي وصلتني من بعض الإخوان الذين يرون أنني أبالغ في الإعتماد على الوثائق والمستندات الأجنبية.

وأنا أسأل الباحثين المغاربة الذين لهم رأي مخالف : هل هناك وثيقة أو مصدر أو مرجع مغربي واحد تناول موضوع الجيوب السليبة في عهد

السلطان مولاي سليمان ؟ وحيث أنني واثق من أنهم سيجيبونني بالنفي، فإني أقول لهم : إن الأمر يتعلق بأحداث تاريخية جد مهمة وقد جرت بالفعل وتكون جزء من تاريخ هذه الأمة، فهل من حقنا أن نمر على تلك الأحداث مر الكرام ؟.

إني أرى أنه من الواجب أن نتناول الموضوع، إلا أننا في تناوله لا مفر لنا من الإعتماد على ما عند الإسبانيين من الوثائق والمصادر والمراجع التي تقيم الدليل على أن الجيوب السليبة تكون جزء من ترابنا الوطني وأن المطالبة باسترجاعها إلى حظيرة الوطن ليست وليدة اليوم، بل إنها قائمة دائما وأبدا، والحق ما شهدت به الأعداء.

عندما اعتلى عرش المغرب السلطان مولاي سليمان سنة 1206 (1792) كانت اسبانيا تحتل بأرض المغرب الجيوب التالية :

- مدينة مليلية منذ سنة 903 (1497).
- جزيرة بادس منذ سنة 972 (1564) [1].
- مدنية سبتة منذ سنة 1050 (1640).
- جزيرة النكور منذ سنة 1084 (1673).

ومن هذه الجيوب كانت سبتة تعرف عند الإسبان بالمعقل الكبير (Presidio Mayor) وأما الجيوب الأخرى فقد كانت تعرف بالمعتقلات الصغرى (Presidios menores).

وكانت أنذاك العلاقات المغربية الإسبانية تجتاز مرحلة دقيقة بسبب الموقف الصارم الذي اتخذه السلطان مولاي اليزيد من الجيوب السليبة وبخاصة مدينة سبتة التي جعل من إعادتها إلى حظيرة الوطن شرطا أساسيا

(1) – كانت اسبانيا قد احتلت هذه الجزيرة للمرة الأولى من سنة 914 (1508) إلى سنة 929 (1522).

لإقرار السلم مع اسبانيا حيث طالب بتسليمها له [2] مقابل تجديد معاهدة الصلح التي كان قد أبرمها والده سيدي محمد بن عبد الله مع ملك اسبانيا السابق كارلوس الثالث [3] يوم فاتح محرم 1181 (موافق 28 ماي 1767)[4].

وحيث إن العاهل الإسباني الجديد كارلوس الرابع لم يوافق على طلب مولاي اليزيد فقد قام هذا الأخير بمحاصرة سبتة ابتداء من يوم 5 محرم 1205 (موافق 14 سبتمبر 1790)[5]، واعتبر العاهل الإسباني هذا الحصار بمثابة إعلان الحرب عليه، فكان رد فعله أن أعلن الحرب على المغرب يوم 17 ذي الحجة 1205 (موافق17 غشت 1791) [6].

ولسنا بحاجة إلى ذكر تفاصيل هذه الحرب التي كانت هي الخامسة من نوعها بين المغرب واسبانيا بخصوص الجيوب السليبة، وكل ما يجب أن نذكره هنا هو أن مولاي اليزيد قتل برصاصة اسبانية، وذلك لأن أخاه مولاي هشام كان قد توصل بمعدات حربية من بينها بنادق ورصاص زوده بها العاهل الإسباني، كما يجب أن نذكر أنه عندما اعتلى مولاي سليمان العرش كان المغرب لازال في حالة حرب مع اسبانيا.

وما أن تربع مولاي سليمان على العرش حتى بدأ يفكر في تطبيع علاقته مع كارلوس الرابع الذي كان هو الآخر في حاجة ماسة إلى صداقة

---

(2) – توجد برپائد الأرشيف التاريخي الوطني AHN بمدريد رسائل مولاي اليزيد إلى ملك اسبانيا كارلوس الرابع يطالب فيها باسترجاع مدينة سبتة وتحمل التواريخ التالية : 15 :شعبان (فاتح ماي) و11 رمضان (25 ماي) و18 رمضان (فاتح يونيو) من سنة 1204 (1790).

(3) – توفي العاهل الإسباني المذكور يوم 14 ديسمبر 1788.

(4) – انظر نص المعاهدة برپائد الأرشيف التاريخي الوطني المذكور ملف 4322.

(5) – انظر كتابي : حصار مولاي اليزيد لمدينة سبتة (1790-1792) تحت الطبع، وتاريخ المغرب بالإسبانية للمؤرخ خيرو نيمو بيكير مدريد 1915 صفحة 179.

(6) – انظر كتابي : موقف العرش العلوي من الجيوب السليبة. الجزء الأول، الرباط 1983.

المغرب نظرا للخطر الذي كان يهدده من جراء الأطماع التوسعية للإمبراطور الفرنسي نابليون.

ونتج عن الإتصالات التي جرت بين مولاي سليمان وكارلوس الرابع أن أبرمت معاهدة مكناس ليوم 22 رمضان 1213 (موافق فاتح مارس 1799)، هذه المعاهدة التي تعد من المعاهدات القاسية التي أبرمها المغرب في تاريخه، وأخطر ما في المعاهدة المذكورة هو أنها أقرت لأول مرة مبدأ إمكانية توسيع رقعة الأرض المجاورة لمدينة سبتة السليبة، حيث نص الفصل الخامس عشر منها على ما يلي [7].

"تبقى حدود سبتة وما حولها لرعي بها بهيمهم على ما تركهم عليه سيدنا رحمه الله، وجيرانهم واقفون عند الحدود يحافظون على شروط الصلح".

وجاء في النص الإسباني لنفس الفصل ما يلي [8].

"Los limites del campo de Ceuta y extension del terreno para pasto del ganado de aquella plaza, quedaran en Los mismos terminos que se determinaron y fijaron en el año 1782".

وفيما يلي ترجمته بالحرف الواحد :

"حدود ضواحي سبتة والأرض المجاورة لها والخاصة برعي ماشية المدينة المذكورة تبقى على ما كانت عليه عندما حددت وأثبتت سنة 1782".

وهنا يجب أن نشير إلى أن الأرض المجاورة لمدينة سبتة والخاصة برعي الماشية التي تشير إليها المعاهدة هي التي كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد واقف على أن تستغل لرعي الماشية من طرف الحامية الإسبانية

---

(7) - نتوفر على صورة هذه المعاهدة الموجود أصلها بربائد الأرشيف التاريخي الوطني ملف 4322.

(8) - نفس الملحوظة.

بصفة مؤقتة، وذلك بمقتضى الظهير المؤرخ في 2 رمضان 1195 (موافق 1781) الذي نص على أن استغلال الأرض المذكورة سيكون بصفة مؤقتة ما دامت الحرب قائمة بين اسبانيا وإنكلترا بخصوص جبل طارق [9].

قلت إن المعاهدة التي أبرمها مولاي سليمان مع كارلوس الرابع قد أقرت مبدأ إمكانية توصيع الأرض المجاورة لمدينة سبتة لأول مرة، والحقيقة هي أن الذي فتح باب التوسيع هو الظهير الذي أصدره السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وكان الظهير موجه الى عامل طنجة محمد بن عبد الملك الذي كتب يوم 16 رمضان 1195 (موافق 5 سبتمبر 1781) الى القنصل الإسباني العام بطنجة كونثاليث سالمون يخبره بالأمر الذي توصل به [10] وقد أخبر القنصل بذلك وزير دولته فلوريدا بلانكا يوم 19 نوفمبر 1781 [11] وهناك رسالة ثانية وجهها العامل المغربي الى القنصل المذكور يوم 12 ذي الحجة 1195 (موافق 29 نوفمبر 1781) [12]، وفي يوم 3 ذي القعدة 1196 (موافق 10 أكتوبر 1782) توجه كل من العامل والقنصل الى عين المكان وتم تعيين حدود الأرض ولكن دون أن يحرر أي محضر لذلك [13].

غير أن الحامية الإسبانية بسبتة لم تستغل الأرض المذكورة إلا لغاية يوم 5 محرم 1205 (موافق 14 سبتمبر 1790) حيث قام مولاي اليزيد باسترجاعها، وعادت مدينة سبتة إلى الحدود التي كانت لها منذ احتلالها من طرف البرتغال سنة 818 (1415) [14].

وكان المغاربة قد استرجعوا الأرض المذكورة منذ تسع سنوات عندما

---

(9) – انظر كتابي : موقف العرش المذكور صفحة 22.

(10) – يوجد برپائد الأرشيف التاريخي الوطني ملف 4351.

(11) – نفس الأرشيف ملف 4351.

(12) – نفس الأرشيف ملف 4351.

(13) – نفس الأرشيف ملف 4351.

(14) – انظر كتابي : لماذا نطالب باسترجاع مدينتي سبتة ومليلية. تطوان 1979.

أقدم مولاي سليمان على ارتكاب خطأ أفظع من الخطأ الذي ارتكبه والده سيدي محمد بن عبد الله، وذلك بمقتضى معاهدة دولية، والأمر لله.

وفي سنة 1215 (1801) أصدرت الحكومة الإسبانية أمرها إلى قنصلها العام بطنجة "ليبحث مع امبراطور المغرب عن الأشياء التي يمكن لنا أن نحصل عليها مقابل تسليمه الجيوب الصغرى، مليلية والنكور وبادس"[15].

واتصل القنصل المذكور بمولاي سليمان في مكناس "فكان جواب العاهل المغربي أنه على استعداد للسماح للحكومة الإسبانية بوسق مليون فانيكة [16] من الحبوب دون أداء الواجبات الجمركية مقابل تسليمه تلك الجيوب" [17].

ووافقت الحكومة الإسبانية على اقتراح السلطان وبدأ البلاط الإسباني يفكر في تحرير الإتفاقية اللازمة، إلا أن الوزير الأول كودوي عارض المشروع منبها "بالضرر الذي يمكن أن يلحق اسبانيا من وجود تلك الجيوب بيد المغاربة" [18]، الشيء الذي حال دون تمكن المغرب من استعادة جزء من جيوبه السليبة.

وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الإسباني ماورا ما يلي[19] :

"في سنة 1801 كنا نحن الذين قد اقترحنا على المغرب تسليم الحبوب مقابل استيراد مليون فانيگه من الحبوب المعفية من أداء الجمركية، هذا ليس بغريب لأننا بأقل من ذلك كنا قد سلمنا مدينة وهران إلى باي الجزائر"[20].

(15) - تاريخ المغرب للمؤرخ بيكير صفحة 16.
(16) - من الاسبانية فانيگة Fanega وهي تساوي أربع أمداد.
(17) - انظر تاريخ بيكير المذكور صفحة 189.
(18) - نفس المرجع صفحة 195.
(19) - انظر كتاب القضية المغربية بالإسبانية للمؤرخ ماورا كاماثو، مدريد 1905 صفحة 10.
(20) - سلمت اسبانيا للجزائر مدينة وهران يوم 12 سبتمبر 1791.

وفي شهر محرم 1223 (مارس 1808) قام الجيش الفرنسي بغزو اسبانيا، وفي يوم 25 من نفس الشهر (23 مارس) تنازل ملك اسبانيا كارلوس الرابع عن العرش لفائدة إبنه فيرناندو السابع، غير أنه هذا الأخير لم يعمر سوى عشرين يوما حيث قام الجيش الفرنسي بخلعه يوم 15 صفر (12 أبريل) ونقله إلى فرنسا، وهناك تنازل عن العرش يوم 14 ربيع الأول (10 ماي) لفائدة نابليون الذي عين أخاه خوسي بوناپرط [21] ملكا على اسبانيا.

وعندما حل خوسي بوناپرط بمدريد يوم 26 جمادى الأولى (20 يوليوز) كان الشعب الاسباني قد ثار ضد الغزاة يوم 6 ربيع الأول (2 ماي) حيث تألفت لجنة مركزية للدفاع عن حوزة البلاد كما تألفت لجان إقليمية في جنيع أنحاء اسبانيا، فكان على الامبراطور الفرنسي ناپليون أن يحضر بنفسه إلى اسبانيا وتمكن من احتلال العاصمة الإسبانية يوم 15 شوال (4 ديسمبر) وعندئذ انتقلت اللجنة المركزية للدفاع الى مدينة قادس بجنوب البلاد [22].

واغتنمت انكلترا الحرب القائمة بين اسبانيا وفرنسا فقامت باحتلال الجزيرة المغربية الواقعة ببوغاز جبل طارق بالقرب من القصر الصغير وتعرف بجزيرة الطاورة[23] وذلك يوم 30 محرم 1223 (موافق 28 مارس 1808)[24].

وأما الامبراطور الفرنسي ناپليون فقد أصدر يوم 20 ربيع الأول 1223

---

(21) – أطلق الإسبان على هذا الملك الدخيل لقب بيبي بوطيا (Pepe Botella) بمعنى فلان القنينة.

(22) – تاريخ اسبانيا بايسطروس مدريد 1910 صفحة 204.

(23) – وهي الجزيرة التي أطلق عليها الإسبان اسم Isla Del Perejil جزيرة المعدونوس.

(24) – انظر تاريخ بيكير المذكور صفحة 193.

(موافق 16 ماي 1808) أمره الى ممثله بطنجة ليقترح على مولاي سليمان تسليمه الجيوب المحتلة من طرف الإسبانيين مقابل وقوفه موقف الحياد في الحرب القائمة بين أخيه والشعب الإسباني [25]، غير أن السلطان اكتفى بأن أمر بطرد القنصل الإسباني العام من طنجة يوم 13 رجب 1223 (موافق 4 ديسمبر 1808) بدعوى أنه كان يعارض في تسليم الجيوب الى المغرب[26].

وبعد سنتين كتب القائد الأعلى للقوات الفرنسية المرابطة باسبانيا الجنرال سولط رسالة بتاريخ 15 صفر 1225 (موافق 22 مارس 1810) إلى مولاي سليمان يعرض عليه فيها تسليمه مدينة مليلية وجزيرتي النكور وبادس مقابل اعتراف العاهل المغربي بخوسي بوناپرط كملك اسبانيا وموافقته على توسيع حدود مدينة سبتة، وتقول المصادر الإسبانية ان مولاي سليمان أجابه بأنه سوف يبعث سفارة في هذا الشأن عندما يكون بوناپرط قد بسط نفوذه على جميع التراب الإسباني [27].

وما أن علمت اللجنة المركزية للدفاع عن حوزة اسبانيا بالمحاولة المذكورة حتى قررت فتح باب المفاوضات مع السلطان من أجل تسليمه مدينة مليلة والجزيرين مقابل السماح لها بوسق كل ما تحتاج إليه من الحبوب والمأكولات والمواشي من المغرب. وفي شهر جمادى الأولى 1225 (موافق شهر يونيو 1810) وصل إلى عاصمة مكناس المكلف بأعمال القنصلية الإسبانية بطنجة خوان ذي لابيدرا وعرض على السلطان اقتراح اللجنة المركزية، وتقول المصادر الإسبانية أن مولاي سليمان أصر على اقتراحه

---

(25) - نفس المرجع صفحة 190 - 191.

(26) - نفس المرجع صفحة 194.

(27) - انظر كتابي : موقف العرش المذكور صفحة 71.

السابق وهو السماح للإسبانيين بوسق مليون فانيكة من الحبوب معفية من الرسوم الجمركية [28].

والجدير بالذكر أنه في هذه السنة (1225 - 1810) تمكنت انكلترا من تحقيق رغبتها الغالية وهي السيطرة على الملاحة عبر بوغاز جبل طارق باحتلالها مدينة سبتة، حيث سمحت لها اللجنة المركزية الإسبانية بإدخال قواتها إلى المدينة المذكورة [29].

وفي يوم 20 محرم 1226 (موافق 14 فبراير1810) اجتمع مجلس الكورطيس[30] الإسباني المقيم أنذاك بقادس لدراسة الرسالة التي وجهها له الوصي على عرش اسبانيا والتي جاء فيها أنه من الضروري "الحصول علي الحبوب والمأكولات والمواشي التي نحن في أشد الحاجة إليها في هذه الظروف، وذلك مقابل تسليم الجيوب الصغرى إلى ملك المغرب" [31].

ويستفاد من محاضر الجلسات العديدة التي عقدها المجلس المذكور أنه كان هناك من أعضائه من يعارض في التخلي عن الجيوب كما كان هناك من يرى بضرورة الحصول على الحبوب والمأكولات والمواشي مقابل الجيوب المذكورة، وأخيرا اجتمع الكورطيس يوم 13 شعبان (2 سبتمبر) ووافق على ملتمس "يأذن بفتح باب المفاوضات مع سلطان المغرب لمعرفة شروطه النهائية" [32].

وبناء على ذلك بعتث الحكومة الإسبانية إلى مكناس قنصلها العام

(28) - انظر تاريخ بيكير المذكور صفحة 195.

(29) - جل المؤرخين الإسبان التزموا الصمت في هذه القضية، مع أن الإحتلال الإنجليزي لسبتة دام من سنة 1225 (1810) إلى سنة 1229 (1814).

(30) - اسم البرلمان الإسباني.

(31) - انظر كتاب : "رحلتي إلى الكورطيس بالإسبانية للدبلوماسي الإسباني فيبانويفا، مدريد 1860 صفحة 173.

(32) - نفس المرجع صفحة 278.

بطنجة السنيور بلاص ذي ميندیتابال صحبة القائد العام للأسطول الإسباني رافيل لوبو، وكان وصولهما لمدينة مكناس في منتصف سنة 1226-1811) ، حيث اقترح على مولاي سليمان تسليمه مدينة مليلية وجزيرتي النكور وبادس مقابل السماح بوسق الحبوب والمأكولات والماشية التالية دون أداء الواجبات الجمركية :

1.500.00	قنطار من الزرع.
300.000	قنطار من الشعير.
500.000	قنطار من الخضر.
200.000	قنطار من الفحم.
100.000	قنطار من التبن.
15.000	قنطار من القنب.
5.000	قنطار من الزيت.
10.000	بقرة.
10.000	خروف.
120.000	دجاجة.
2.000	حمار.
400	بغل.

وتقول المصادر الإسبانية أن مولاي سليمان اكتفى بأن عرض عليهم مبلغا من المال قدره 500.000 ريال [33] يلتزم بأدائه خلال خمس سنوات، وهناك من المؤرخين الإسبان الذين يقولون أن السلطان لم يوافق على الإقتراح الإسباني نتيجة للضغط الذي وقع عليه من طرف قناصلة بريطانيا ، فرنسا والبرتغال [34]، في حين يؤكد المؤرخ بيكير أن مجلس الوصاية الإسباني

(33) - انظر تاريخ بيكير المذكور صفحة 196.

(34) - انظر كتاب ماورا المذكور صفحة 12.

قد أخبر الحكومة البريطانية بالمشروع فأبدت هذه الحكومة رغبتها في أن تسلم إليها تلك الجيوب [35].

وعلى اثر عودة الملك الإسباني فيرناندو السابع إلى عرشه يوم 23 جمادى الأول 1229 (13 ماي 1814) انسحب الجيش البريطاني عن مدينة سبتة [36].

وفي يوم 28 رمضان 1235 (9 يوليوز 1820) اجتمع مجلس الكورطيس تحت رئاسة الملك فيرناندو السابع، وفي اليوم التالي ناقش المجلس قضية الجيوب في جلسة سرية وقرر عرض ملفها على اللجنة السياسية التي وافقت يوم 30 محرم 1236 (7 نوفمبر) على تسليم مليلية وجزيرتي النكور وبادس إلى المغرب [37].

وعلى ضوء هذا التقرير وافق مجلس الكورطيس في جلسته المنعقدة يوم 2 رمضان 1236 (موافق 3 يونيو 1821) على تسليم الجيوب الصغرى إلى المغرب وأذن للحكومة بالتفاوض من جديد مع السلطان مولاي سليمان، وبناء على ذلك فوضت الحكومة لقنصلها العام بطنجة ولممثلها الخاص طوماس كومين بتوقيع الإتفاقية الخاصة بالموضوع مع السلطان[38].

ولا نتوفر على معلومات تمكننا من معرفة الأسباب التي حالت دون إبرام الإتفاقية المذكورة على أساس الإقتراح الأخير للسلطان وهو أداء 500.000 ريال بالتقسيط، غير أن المؤرخ بيكير يؤكد أن سبب ذلك يرجع إلى موقف انكلترا المعارض لفكرة التسليم [39].

(35) - انظر تاريخ بيكير صفحة 194.
(36) - تاريخ اسبانيا لبايسطيروس.
(37) - انظر كتاب Elcamino Nuestro للمؤرخ انريكي اركيس، مدريد 1941 صفحة.
(38) - انظر تاريخ بيكير صفحة 196.
(39) - نفس المرجع صفحة 198.

ويقول المؤرخ ماورا ان "الإصرار على تسليم الجيوب الصغرى للمغرب سنة 1820 يدل على أن فكرة التخلص من الجيوب المذكورة لم تكن ناتجة عن التجزئة الأليمة المفروضة علينا من جراء الغزو النابليوني لبلادنا، بل كانت نتيجة لسياسة مدروسة ومتفق عليها" [40].

(40) - انظر كتاب ماورا المذكور صفحة 40.

وثيقة إسبانية جديدة حول عهد مولاي سليمان : رحلة الراهب بطريسيودي لاطوري إلى المغرب (ربيع 1800)

د. عبد العزيز التمسماني خلوق
كلية الآداب/ الرباط

إن كل باحث مطالب بإعادة كتابة تاريخ المغرب، لا سيما المعاصر، على ضوء المصادر المغربية والأجنبية التي يمكن أن تكشف الكثير من الحقائق المفيدة. وفي هذا المجال، تكتسي الربائد والمستندات المتنوعة والمخطوطات المحفوظة بإسبانيا، الخاصة بعهد السلطان مولاي سليمان، أهمية كبرى، فهي تحمل الكثير من الإيضاحات عن سياسته، وترسم صورة واقعية لعلاقاته التجارية بأوربا الرأسمالية، وتضع، أمام المهتم بالتغيرات التي طرأت على المجتمع المغربي في عصره، معلومات ثمينة. ويتعلق النص الغميس الذي اقترحه كموضوع لهذه المساهمة بالحالة الداخلية في ربيع 1800، وقفت عليه بمكتبة الإسكوريال، وهو عبارة عن رحلة قصيرة تقع في سبع ورقات من الحجم الصغير، كتبها الراهب الإسباني بطريسيو خوصي دي لاطوري Fray Patricio josé de la Torre لوصف المراحل التي اجتازها من طنجة إلى مكناس، تحمل عنوان : "Noticia de INTINERARIO desde Tanger hasta la carte de Mequinez"

اهتم فيها بتسجيل ماوقعت عليه عينه، فنجده، في حديثه عن وباء الطاعون الفتاك الذي كانت تشهده البلاد، دقيقا في الملاحظة، صادقا في

مشاعره، مدركا بعمق آثار هذه المسغبة الطاحنة، المشحونة بالأعاصير الرهيبة.

سأحاول أولا تسليط الضوء على بعض الأعمال التوثيقية الفاحصة التي استندت إلى الأرشيف الإسباني لدراسة الحياة الاجتماعية في عهد مولاي سليمان، ثم انتقل إلى استنطاق الوثيقة الجديدة التي نحن بصددها.

بخصوص المسألة الأولى، تعتبر المجموعات الوثائقية الخاصة بالمغرب، المحفوظة بدور الأرشيفات الإسبانية من المصادر الأساسية للعلاقات المغربية الإسبانية منذ قيام الدولة العلوية الشريفة، لقد قدمت جردا عاما لها في الدورة الأولى لهذه الجامعة في دجنبر 1989 : استعرضت مضامينها، وعرفت بمظانها، مشيرا إلى الملفات والمحافظ التي تمس العهد السليماني وتقدم مادة واسعة تتناول الوضع الداخلي، وملامح العلاقات الثنائية بين البلدين.

يتوجب القول هنا بأن الدراسات التاريخية الإسبانية، المتعلقة بهذه المرحلة، توقفت عند مزايا معاهدة فاتح مارس 1799، وقد تطرقت إلى هذا الموضوع بالذات في بحثي المنشور "المغرب وإسبانيا عند نهاية القرن الثامن عشر"، أبرزت فيه الإهتمام الذي حظيت به هذه المعاهدة لدى بعض الدارسين الإسبانيين المعاصرين الذين استحضروا الظروف التاريخية التي أحاطت بها، محللين بنودها التي اصطبغت بروح التسامح، واستهجنت كل مظاهر التعصب الديني المذموم، واستنكرت، في ذلك الوقت، صوره المقيتة، مركزين اهتمامهم على الجهود التي بذلها مولاي سليمان للتقرب من إسبانيا، آملا إعادة العلاقات الدبلوماسية الودية مع العاهل الإسباني كارلوس الرابع.

من جهة أخرى، صدرت، في المدة الأخيرة، ثلاث دراسات تاريخية إسبانية :

- الأولى ركزت على الأصول المعاصرة للسياسة الخارجية الإسبانية بالمغرب للباحث فسينتي كارسيا فرانكو Vicente Garcia Franco وقد أرجعها إلى الفترة التي نحن بصددها، نشرها في العدد التاسع من دورية "أوراق"، الصادرة عما كان يعرف بالمعهد الإسباني العربي للثقافة بمدريد، بعنوان :

"Grigenes contemporaneos de la politica exterior espanola en Marruecos1800 - 1845"

المساهمتان الثانية والثالثة اهتمتا ببعثة كارلوس الرابع الطبية إلى مولاي سليمان سنة 1800، أنجزهما البروفيسور براوليو خوستيل كلبوثو Braulio Justel Calabozo - "Embajada médica de Carlos IV a Muley Soliman", in Actas del Primer Congreso Hispano-Africano, que aparecieron bajo el titulo "Espana y el Norte de Africa", 2 volumenes, Granada 1987, vol. I, pp. 415-428.

"El médico Coll en la carte del Sultan de Marruecos (año 1800), Cadix, 1991, PP. 241

أما فيما يتعلق بالرحلة التي نحن بصددها، فقد وصلتنا منها نسخة فريدة بخط المؤلف نفسه، محفوظة بمكتبة الإسكوريال تحت رقم : (fols. 231R - 236V Z.IV.18) ألفها القسيس بطريسيو خوصي دي لاطوري الذي وردت معلومات وافية عن حياته ومؤلفاته في المرجعين التاليين :

Calalogo de los manuscritos de la Real Bibleoteca de El Escorial", vol. 1, pp. XCV-CII.

Augusto Sanchez Perez, " Un arabista espanol del siglo VIII : Fr. Patricio José de la Torre", Al-Andalus, 18(1953), 450-455.

سجل هذا الراهب في رحلته، بشكل موجز، يوميات سفره من طنجة إلى مكناس في الفترة الممتدة من 7 أبريل 1800 إلى 10 ماي من نفس السنة، وكان في رفقة السفارة الطبية إلى مولاي سليمان - برئاسة خوصي أنطونيو كول José Antonio Coll - بعد ظهور وباء الطاعون بالمغرب وفيما يلي تلخيص لوقائع رحلته، ومشاهداته وانطباعاته :

استهلها بالحديث عن السفارة المذكورة واعتبرها رمزا لأواصر الصداقة وحسن الجوار بين البلدين كانت تضم José Antonio, Coll, Francisco Padro, Joaquin Conzalez Bautista Watuon

وصاحب الرحلة الذي جاء - على حد قوله - لتعلم لغة البلاد واقتناء الكتب النادرة.

ثم انتقل الراهب لاطوري إلى وقائع السفر، مدونا مذكراته على شكل يوميات. وأن أول انطباع يخرج به قارئ هذا النص المخطوط هو أن صاحبه كان حريصا على تسجيل مجموعة من الملاحظات النافذة تمس الحياة الاجتماعية في الأماكن التي توقفت بها.

لقد خرج مع الوفد الطبي الإسباني من طنجة صباحا يوم 7 أبريل 1800، وحط رحاله مساء في ضاحيتها بقرية عين دالية.

في اليوم الثاني (أي 8 أبريل)، نجده يذكر أشكال الحياة القروية التي أثارت انتباهه بأحواز أصيلة، معرفا بساكنتها، مدرجا أسماء الوديان والسهول التي مر بها، محددا موقعها.

أما في اليوم الثالث (أي 9 أبريل)، فقد وصل إلى العرائش، مكث بها النهار كله. واقتصر حديثه عن باشا المدينة، وآثار الطاعون بها، ثم غادرها يوم 11 أبريل في اتجاه الغرب، واصفا الأراضي الهبطية ودواوير قبائلها.

في 12 أبريل، أقام الوفد الطبي الإسباني بضفاف سبو، فاهتم صاحب الرحلة بوصف مظاهرها الطبيعية وبساطة الحياة فيها. واسترسل، في اليوم التالي، يتحدث عن بعض ضحايا الوباء، راسما صورة حية لبني حسان.

في يوم 14 أبريل 1800، اقتصر المؤلف على تقديم معلومات مقتضبة عن الحملة السلطانية التي شهدتها هذه الأصقاع خلال سنة 1799، متحدثا عن التدابير الزجرية التي اتخذها الجهاز المخزني لاستتباب الأمن، وهنا لم يخف هذا القسيس إعجابه بالعاهل المغربي الذي كان يجوب البلاد ويتفقد أحوالها بنفسه.

بعد وصوله إلى مكناس يوم 15 أبريل، أخذ الكاتب يدون الأخبار المروية عن الطبيب كول الذي استقبله مولاي سليمان يوم 19 من نفس الشهر، مشيرا إلى أن السفارة أقامت بالعاصمة الإسماعيلية حتى يوم 10 ماي 1800 قبل أن تنتقل إلى فاس.

تجدر الإشارة إلى أن بطريسيو دي لا طوري يشهد، في خاتمة رحلته، للسلطان مولاي سليمان بأجمل الخصال، معبرا عن إعجابه بدماثة أخلاقه وسيرته العفيفة.

ختاما، أود أن أشكر البحاثة الإسباني الزميل Jaume Bover الذي أخذ على عاتقه نسخ هذه الوثيقة الجديدة التي أضعها بين أيدي المؤرخين المهتمين بعهد السلطان مولاي سليمان.

فيما يلي نص الرحلة الكامل :

الحمد لله وحده

Noticia del itinerario desde Tanger hasta la corte de Mequinez.

Habiéendose servido el Rey Catolico acceder a la solicitud de Muley Soliman, emperador de Marruecos, de mandarle un fisico de los mas acreditados de España, con' motivo de asistir a su persona y demas familia real en las criticas circumstancias de la peste que en el ano de 1799 despoblo casi una 3 à parte de'los habitantes de sus dominios, paso a esta honrosa comision de orden del rey el facultativo Don Josef Antonio Coll, trayendo en su compania para preparar las medicinas y como farmaceuticoa Don Francisco Puduolos dos naturales del Principado de Cataluña - vienen asi - mismo en su compania Don Joaquin Gonzalez, Bautista Watuon de intérprete, hijo de padres italianos, y él nacido en Malaga, y un monge jeronimo profeso del Real Monasterio de San Lorenzo del Escorial comisionado por su Majestad Catolica para el estudio de la lengua del pais.

Dicho facultativo traia consigo una muy buena y escogida coleccion de remedios y todos a proposito para precaber, curar y extinguir la epidemia, o contagio, etc. 231V y que la humanidad de Nuestro Soberano mandaba de regalo al de Marruecos, etc.

Salimos pues de Tanger para Mequinez el dia 7 del mes de abril de 1800, lunes de la Semana Santa a las once de la mañana y campamos en sitio que los naturales ilaman Ain Dalia - عين دالية - que en nustra lengua vale lo mismo que la fuente de la parra.

Llegamos a dicho lugar como a las cinco de la tarde, los naturales cuentan 3 leguas de Tanger a Ain Dalia.

Dia 8

Salimos de Ain Dalia como entre 6 y 7 de la mañana, sin novedad, cruzamos el bosque que llaman Guba غابة , lo mas que de los arboles que produce son alcornoques que llaman delem الدلم. A su caida hacia el mediodiase halla el vado del rio que llaman مشرع الحشف rio que se hace mas o menos caudaloso segun el fluxo o refluxo del océono el cual va a desaguar a la parte de ponieente

Pasado el vado se entra en una hermosa y estendida vegaque se hace intransitable en tiempos de grandes lluvias ; es muy la tierra es muy caminamos entre mediodia y poniente hasta entrar en la provincia de Algaravia (232r). Todo lo que anduvimos por ella es tierra feraz, argilosa, la variedad de montecillos y colinas, con el contraste de las altas montañas del Rif hacen una deleytable tosa perspectiva hallamos aqui copia de ganado vacuno, poca lanar y cabrio, poca siembraya por faltar agentes para el cultivo de la tierra con motivo de la mortandad, que ocasiono la peste del año, pasado y ya por las muchas y continuas aguas de este año. Preguntamos varias veces de la peste, y nos aseguraban no haber nada en el dia.

Cerca de las 4 llegamos a campar entre los lindes que separan la provincia de la Algaravia y la de Aman. Aquella de la jurisdiccion de Tanger, y ésta a la de larache.

Dia 9

Salimos de la provincia de Aman. Cruzamos el bosque de larache y entramos en esta ciudad, entre 2 y 3 de la tarde. Quedamos en dicha cuidado lo restante del dia y el dia siguiente Jueves Santo visitamos al Bacha y nos hizo el obsequio de tomar el thé con él. Nos ofrecio su favor y mas que necesitamos, etc. En este dia cayo enfermo uno de los

arrierros de Tetuan, 232V nos dio algun cuidalo en el principio en atencion a las circumstancias del contagio. Luego que se supo esta novedad Don Josef mando se le diese la medicina conveniente. Se mejoro al tanto, y sigue su camino aunque de algun cuidado.

Dia 10

Quedamos en Larache, con motivo del dia, y se hacen algumas provisiones. Estas las pago Don Josef Manera en cuya casa nos hospedamos, obsequiandonos segun tiene de costumbre.

Dia 11

Salimos de larache y campamos cerca de un santuario que llaman لالا ميمونة pasamos les hermosas y ensanchadas, dilatadas campinas del Algarbe, tierras felices pero sincultivo, en ellas viven las cabillas llamadas jolyt y Telig, habitan por lo comun en tiendasque les naturales llaman xaimas خايمة cubiertas de unc clase tela o texido de Iana basta, palmito y pelos de cabra, estos, como los bereberes, se mudan de un sitoi a otro, segun la copia de yerba y aguas que necesitant (233r) para sus ganados, que consisten en ganado vacuno, que es en mayor copia, lanar, cabrio y camellos. Otras viven en una especia de chozas que llaman.نوالة

alzan sobre la tierra, con poco o ningun cimiento, lo alto de una vara de fabrica de barro y cantos, sobre esto cruzan ciertos palos, los entretexen con cañas, y después la cubren y tachan con heno y ramage, los que viven en estas chozas no se mudan de sitio, cultivan la tierra, y crian ganados.

Dia 12

Salimas de la Mimuna y campamos a la ribera del rio Sebu. Este rio es uno de los mas caudalosos del Algarbe, y en la parte que hicimos alto lo es mucho mas por haber desaguado en él y nacen las aguas del Guanza , otro rio del Garbe de algun caudal.

Cruzamos gran parte de las llanuras de Asagan, en que viven los de las 233V cabilas llamadas Sfiani y Beni Malili.

Preguntamos del contagio, y nos aseguraron no haber nada en el dia.

Dia 13

Vadeamos el Sebu y campamos en la llanura de Asagan, y entre los arabes llamados Beni Jasen بني حسن y lindas con los berebcres. El sitio en que campamos se llama por los naturales xaguaja

No se halla agua en estas llanuras, sino las que lleva el rio y en el estio, los que viajan necesitan illevar consigo el agua para no padecer de la sed. Estos naturales habitan el xaimas, cultivan la tierra y crian ganados, en especial el vacuno, su color es moreno, efecto del gran calor que sufren en las estaciones de primavera y estio.

No en contramos novedad en orden al contagio. Preguntamos del precio del trigo y nos dijeron que el almud valia seis . El almud corresponde al zelemin de Castilla, aunque de mayor cavidad, de suerte que cuatro de dichos almudes hacen casi una fanega y quartilla de Castilla, resulta valen Cuatro almudes.

Cuando montamos par partir 234R vimos que baxaba rio abaxo un cadaver al qual sacamos a tierra en la lancha y le dieron sepultura.

Dia 14

Salimos de jaguafa. Caminamos entre oriente y medio dia hasta los montes que terminan las llanuras de Azagan. Campamos en un valle que forman estos montes, cerca de una fuennte que llaman los naturales Ain El Asis عين العزيز

Entre estas montañas, que llaman itenem viven los gente feroz y dada al robo y pillage, en el año pasado de 1799, el hoy reinante Mura escarmentarlos y castigar los de- ley Soliman hizo en ellos un pa litos. Después que segaron sus mieses e hicieron la recoleccion de sus frutos, dio orden para que los principales de esta cabila se juntasen en un lugar disimulando tener que hablarles y tratar con ellos, se juntaron en el sitio determindo hasta 1400 personas, que todas perecieron al filo de la espada. Asi es que en el dia Itimem 234V se halla casi despoblado, y solo vimosqual y qual aduar. Viven en xaimas, crian ganado, mudan de sitio procurando, como esta dicho, aguas y nuevos pastos para sus ganados, tienen un idioma distinto del arabigo, su color es moreno obscuro, visten un xaique con que cubren sus carnes, no llevan nada en la cabeza, son de buena talla, membrudos y endurecidos en manera que parece no hacerles impresion ni el frio ni el calor excesivo, cunado nosotros no podiamos resistirle a pesar de los sombrajes que haciamos, ellos sin resguardo alguno iban en pos de su ganado cantando su libertad, y otros corrian por montes y llanuras en briosos caballos.

Dia 15

Salimos de Ain El Asis, montamos los montes de donde se da vista a la hermosa y feraz campiña en que esta situada la ciudad de Mequinez. Pasamos cerca de un santuario muy celebrado y de gran respecto y veneracion por los moros, llamado Mouley Edris. A la sazon salia el emperador de él y caminaba para otro llamado 235R Sidi Casem, distante uno de otro como unas tres leguas, poco mas o menos. Iba él muy rey acompañado de sus ministros, los grandes y mucha tropa, todos a caballo y en mucho numero, pasamos distantes como un cuarto de legua, y nos hubiéramos encontrado con Su Majestad si como pensabamos hubieramos tomado el camino de Sidi Casem, pero

impidio esto los malos pasos, y los muchos barrizales del camino, por aquella parte.

El rey que tenia noticia de que estabamos en camino, y que nos esperaba de un dia para otro, con la noticia que se dioa su Majestad de nuestra llegada a Ain El Asis, nos mando que siguiésemos derechamente y sin deternemos a la ciudad. Nos mando un moro de los principales de la ciudad para acompañarnos y en caminarnos a las casas del Costali, que estaban destinadas para nuestro alojamiento.

En efecto poco mas de las cinco de la tarde de dicho dia entramos en la ciudad sin haber tenido novedad particular en 235V el camino.

El dia 19 de dicho mes fuimos a palacio llevando en quatro mulas los caxones de medicinas, los que quedaron en palacio. El rey llamo al facultativo Coll y al interprete, las dos unicas personas que vieron al soberano en aquella audiencia. Se mostro muy fino, muy humano y agradecido del obsequio que nuestro monarca le hacia en esta ocasion. Pasaron en esta visita y conferencia Algunas cosas harto estrañas de la real persona y bastante significantes de su pasion dominante, la voluptuosidad.

Pregunto al médico, segun éste me informa, que edad tenia, respondio de sus años, a lo que respondio Su Majestad diciendo : y un hombre de su edad cuantas veces puede en el dia usar de las mujeres?, respondio a esto lo que le parecio pudenté y razonable. En esto, y en cosas que de aqui se derivan pasaron algun tiempo, hablaron del galico purgacion, etc. de las enfermedades de las mujeres relativas a esto, menstruacion y demas y con esto le despidio Su Majestad.

Seguimos en Mequinez 236r hasta el dia 10 de mayo del mismo año en que Su Majestad mando al médico y demas de la comitiva que pasase a Fez, una orden de asistir y estar al cuidado de un hijo suyo, y

de su hermano Muley Absalem, en tanto que Su Majestad volvia de una expedicion de Tedla, una de sus provincias, que se habia sublevado.

Salimos pues de Mequinez en dicho dia y llegamos a Fez al dia siguiente al medio dia, hicimos el viaje, con bastante comodidad, venia acompañandonos de orden del rey el governador de Fez.

Dista la una ciudad de la otra como unas 12 leguas. El camino llano, a excepcion de algunas baxadas, y pequeñas cuestas para buscar algunos rios, lo que cruzamos por puentes, obra de Muley Ismael, visabuelo del rey reinante Al primer rio y puente le llaman puente nuevo, al segundo محدورة y al tercero وادي النجاة rio del asilo, libertad, etc. Antes de llegar al primero قنطارة جديدة hallamos una fuente my copiosa que llaman (236V) طوط الفلافيل Por todo el camino hallamos gran copia de aguas dulces, cristalinas, varios arroyuelos que serpenteando entre la verduras de los prados, hacien la vista deleytosa. Caminamos hasta entrar en el hermos valle de donde se descubre Fez El por este valle corren las aguas sobrantes de la ciudad.

Esta esta situada sobre una pequeña colina entre dos montãnas que tiene a su lado por la parte de norte y mediodia al poniente tiene su vista al valle dicho, y por la parte de oriente se descubre una gran cordillera con una hermosisima proporcion, y hacen una agradable vista. V. el Cartas..

Llegamos fatigados del calor, y nos aposentaron en un jardin del governador en donde la frescura del sitio, los arboles, las flores, la copia de naranjas, la abundancia de las aguas, todo convida a una vida sensible, muelle y voluptuosa.

مولاي سليمان بين الوهابية والتجانية

رشيد الزاوية
استاذ باحث

يبدو أنه قد أصبح شبه متفق عليه، كلما طرحت قضية تاريخية محددة، إلا واحتد فيها النقاش واختلفت حولها الآراء وتضاربت، خصوصا عندما تكون النصوص المصدرية المعتمدة غير متجانسة من حيث منحاها الفكري، وتحمل بين طياتها ثغرات يسهل تكديسها بشتى التأويلات. وفي واقع الأمر، لا يؤدي هذا الإختلاف إلا لشيء واحد، هو الإندفاع نحو التنقيب والغور في ثنايا الأحداث، بغية التقرب ما أمكن من الصواب حتى لا نقول "الحقيقة" التي هي الهدف الأسمى من البحث في ميدان علم التاريخ.

وموضوع العرض الذي أتقدم به اللحظة من هذا القبيل، حيث سيتم التركيز فيه على شخصيتين بارزتين، معاصرتين، اتسم موقفهما من الوهابية والتجانية في سياسة مولاي سليمان بتعارض واضح، وتباين كبير في وجهات النظر، سيما والأمر يتعلق بقضايا جوهرية كان لها تأثير كبير على مجريات الأحداث، ولا يدعي صاحب هذا العرض أن بامكانه في هذه العجالة الإيفاء بالغرض بقدر ما سيحاول الكشف عن هذا التباعد في الرؤى، ومحاولة رصد بعض خلفياته وبالتالي استخلاص بعض الخلاصات بالاعتماد أساسا على هاتين الشخصيتين وهما أبو القاسم الزياني ومحمد أكنسوس، ولن يتم تجاوزهما إلا لضرورة تنسيق أو تعقيب.

I - الوهابية :

اختلفت الكتابات التاريخية حول طبيعة "الحركة الوهابية" وتاريخ وصولها إلى المغرب، والمكانة التي تبوأتها في سياسة السلطة المركزية على العهد المحمدي والسليماني. ولا يهمنا هنا الخوض في إعطاء أجوبة في الموضوع، بقدر ما سنحاول إظهار موقف كل من الزياني وأكنوس فيه. تفيد قراءتنا لمختلف تآليف الزياني في الحكم على أن هذا المؤرخ لم يكن له أدنى علم بالدعوة الوهابية رغم زيارته للحرمين سنة 1169 هـ/ 1756 م، بل حتى بعد وفاة السلطان سيدي محمد ومقامه بالمشرق نحو أربع سنوات (من 1206 إلى 1210 هـ/ 1791-1795 م)، لم يكن يرى في الحركة الوهابية أكثر من تمرد على السلطة العثمانية [1]، وحسب نصوص هذا المؤرخ، يظهر أن الدعوة إلى "الوهابية" لم تصل المغرب إلا سنة 1226 هـ/ 1811م، وهي السنة التي بعث فيها علماء تونس بنسخة من "رسالة محمد بن عبد الوهاب" والتي تلقوها بدورهم من سعود بن عبد العزيز (1803 - 1814م) إلى علماء مدينة فاس[2].

وحسبما يفهم من كلام الزياني، فإن هذه الرسالة لم يتم توجيهها رسميا إلى السلطان مولاي سليمان بقد ما هي استشارة لعلماء فاس في الموضوع قبل إصدار أي رد، بدليل أن جوابهم للدعوة جاء منددا بالعنف الذي سلكه أتباع الوهابية ليحملوا الناس على نهج طريقهم، كما تضمن اعتراضا على بعض مبادئها معززا بما ورد في الكتاب والسنة والسير وغيرها [3].

(1) - الترجمانة الكبرى. ص 189.

(2) - انظر النص الكامل لهذه الرسالة في "الترجمانة" ص 394- 396، وفقرات منها في كتاب "الشيخ محمد بن عبد الوهاب" تأليف أحمد بن حجر وبوطامي آل بن علي، الكويت 1983 ص 49 - 51.

(3) - أثبت الزياني جزءا كبيرا من الرد التونسي على "الوهابيين" في كتاب الترجمانة ص 397 - 402.

وقد تكلف حمدون بن الحاج [4] بالرد المغربي على رسالة "الوهابيين" بأن نظم قصيدة يمدح فيها الأمير السعودي ويدعو له فيها بالجزاء كما يناقش فيها بعض الجوانب[5]. لكن المصادر اختلفت في الموضوع، فالبعض يذكر أن القصيدة كتبت بأمر من السلطان مولاي سليمان وباسمه كما جاء في نص حمدون :

وإنه من سليمان وإنه بسـ م الله لا زلت بسم الله أي سم [6]

وقد أيد هذا الرأي المؤرخ الوزير محمد أكسوس [7]، بينما يرى البعض الآخر أن ذلك تم دون علم السلطان، ومنهم الزياني الذي سفه "الوهابية" واعتبرها هرطقة، بل ذهب إلى حد التهجم على حمدون بن الحاج بقوله "...وكذب على الله في نسبتها لأمير المومنين وإمام أهل السنة .. ولا تقع إلا من مبتدع مثله ..."[8]، وقد رد عليه أكنسوس بنفس الأسلوب قائلا "... ثم تمادى هذا المجهول الزياني على الفحش والتنقيص لعالم الدنيا ... مع أن الشيخ ...سيدي حمدون، إنما أجاب بأمر السلطان وعلى لسانه ..." [9]، ولكون هذا الرد كتب بعد وفاة الزياني، فقد انتصر لهذا الأخير أحد علماء المشرق وهو علي بن طاهر الوتري [10]، وتجاوز الخلاف بين

(4) - أحد علماء فاس المبرزين في العلوم الأدبية والشرعية، وقد كان من المقربين لدى البلاط السليماني. توفي سنة 1232 هـ/ 1817 م.

(5) - انظر النص الكامل لهذه القصيدة بمجلة المناهل. ع. 30. ص 129- 153. منشور بعناية أحمد العراقي في مقال له تحت عنوان "الرد المغربي على الرسالة المنسوية للشيخ محمد بن عبد الوهاب" وقد أثبت الزياني جزءا منه في الترجمانة ص 388 - 389.

(6) - الترجمانة الكبرى ص 389. المناهل ع 30. ص 131.

(7) - أكنسوس، الجيش العرموم، 1 : 196.

(8) - الترجمانة ص 388- 389.

(9) - الجيش العرموم 1 : 196.

(10) - توفي سنة 1322 هـ/1904 م، انظر ترجمته بقلم الأستاذ أحمد العماري. "مجلة كلية الآداب، بفاس. ع 2 - 1985 ص 356 ومابعدها.

المؤرخين ليهاجم أكنسوس والوهابية بوجه عام في رسالته "ماأبرزته الأقدار في نصرة ذوي المناقب والأسرار" [11].

وعلى أي، يؤكد أكنسوس أن الرد المغربي كان رسميا، وأن الذي تكلف بتسليمه إلى الأمير السعودي هو ابن العاهل، الأمير مولاي إبراهيم [12] رفقة وفد يضم كلا من الفقيه محمد الزداغي المراكشي، والطالب الجيلاني السكيري، والقاضي العباس بنكيران وآخرين، والذين يقول عنهم المؤرخ الجبرتي : بأنهم "قضوا مناسكهم وحجوا، وزاروا المدينة، وأكرمهم الوهابية إكراما زائدا" [13]، وهذه الشهادة تعني أن ثمة تعاطفا وتجاوبا مع الوهابية من طرف المغرب على المستوى الرسمي، كما أن هناك أجوبة أخرى[14] تتضمن نفس الآراء المعبر عنها في رسالة حمدون بن الحاج، مما يجعل كلام الزياني لا يعتمد على أساس معقول في هذا الباب، خصوصا إذا وضعنا في الحسبان رسالة السلطان مولاي سليمان الشهيرة التي أمر أن تقرأ في مختلف جوامع المغرب والتي ينهى فيها عن إقامة المواسم، والبناء فوق القبور وزيارتها والدعاء عندها، ويحارب فيها الطوائف الصوفية [15].

والغريب هو أن الزياني نفسه نوه بهذه الخطبة إلى حد كبير بقوله "لم يسمع مثلها فيما مضى من العصور ... فهي سادسة خطب الخلفاء الأربع، اللواتي انتفع الناس بها أجمع ..." [16] مع أنه كان يناهض الوهابية

(11) – قام الأستاذ أحمد العماري بتحقيق هذه الرسالة والتقديم لها في مقال له بمجلة "كلية الآداب" بفاس ع 2. ص 355 – 399. وأخيرا قامت نفس المجلة ع. 11. بنشر تعليق على هذا المقال بقلم الدكتور عبد الله الصالح العثيمين، وكذا تعقيب الأستاذ العماري على هذا التعليق (ص 277 – 294).

(12) – الجيش 1 : 196.

(13) – الجبرتي، عجائب لآثار 3، 354.

(14) – منها جواب حرره الطيب بن كيران محفوظ بالخزانة الحسنية تحت رقم 6424، ومشروع رسالة أخرى كتبها سليمان الحوات سنة 1816 م على لسان السلطان. انظر محمد المنصور "الحركة الوهابية" طي كتاب "الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر" ص 186 ومابعدها.

(15) – انظر نص الرسالة في الترجمانة الكبرى ص 466 – 470.

(16) – الترجمانة ص 471.

ويشنعها، وكأنه يشير بذلك إلى أن "محاربة البدع" من طرف مولاي سليمان لا يعني بالضرورة "تبنى الوهابية" خصوصا وأن الزياني نفسه يصرح بعدائه للطرقية ويجاهر بمعارضته للوهابية في آن واحد.

والسؤال الذي يمكن طرحه هنا، لماذا اتخذ الزياني هذا الموقف ؟

أول ما تجدر الإشارة إليه هو أن الزياني لم يكن يمثل استثناء في معارضته للوهابية، فموقف المغاربة من هذه الحركة كان سلبيا بوجه عام بسبب بعض مبادئها التي اصطدمت بالمعتقدات الشعبية كتكريم الأولياء والصالحين، وبمصالح فئة الشرفاء التي كانت تحظى بوجاهة خاصة لدى البلاط وفي محيطها الإجتماعي، وبالتالي بالتصوف المبني على الإيمان بكرامات الشيخ واعتقاده دون جدال، وهو ما أثار خلافا بين الطرقيين والسلفيين، فالزياني يقول مثلا عن الوهابي أنه "يمنع زيارة الأنبياء والتوسل بهم إلى رب السماوات، وينهى عن قراءة دلائل الخيرات، والدعاء بمقامات الأولياء أهل الكرامات ..." [17] مع تنويهه ومدحه لخطبة مولاي سليمان المتعلقة بمحاربة البدع بإقامة المواسم، وزيارة الأضرحة، علاوة على عدائه الصريح للطرقية، وكل ذلك يوحي بأن هناك خلفيات أخرى - في تقديري - وراء هذا الموقف، منها :

- ظهور الدعوة من خارج المغرب، وهو أمر لم يكن ليحبده المغاربة كثيرا.

- العنف الذي تيمزت به كما لاحظ الجبرتي حين استولى الوهابيون على الطائف سنة 1217 هـ/ 1802 م "قتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال، وهذا دأبهم مع من يحاربهم ..." [18].

---

(17) - الترجمانة ص 388 - 389.

(18) - الجبرتي، عجائب الآثار 2 : 554.

- قيام الحركة الوهابية على أسرة "الشريف سرور" الحاكمة بمكة [19] والتي كانت تربطها بالسلطان سيدي محمد علاقة مصاهرة.

- محاولة إقامة "سلطة عربية" مناهضة للدولة العثمانية، التي كان الزياني معجبا بقوانينها، شغوفا بتاريخها، مساهما في تقوية العلاقات بينها وبين المغرب.

- غموض الوهابية في البداية على الأقل، حيث أن مؤرخا معصرا، اعتبرها تطاول على الشريعة النبوية بقوله "كان يريد أن يدعي النبوءة .."[20] أو قوله ".. وبدل وغير، وشرع ماأراد .." [21] كما أن آراء الناس حسب نفس المؤرخ اختلفت حول مرابى الدعوة "فمنهم من قال إنه ضال ... ومنهم من يقول على الطريق ... والعلم لله ..."[22].

وفيما يبدو، هناك أمور أخرى في "مبادئ الوهابية" تتعارض وسلوك الزياني، بل والبعض منها يكفره، من ذلك على سبيل المثال :

- أن الوهابية تحرم "علم الحروف" و "الجدول"[23]، والزياني ممن كان يتعاطى هذا النوع من العلوم.

- أنها تحرم وتذم إضافة النعم لغير الله. وقد وقع الزياني في كثير من هذا، كقوله على لسان صاحب مركب كان يقله إلى جدة "... والله ما سلمنا إلا ببركة هذا الشيخ، وإلا فلم يقع مركب بهذا المحل وسلم ..." [24].

- أنها تجعل علم "النجوم" نوعا من السحر، وتحرم ما ينشأ عن ذلك

(19) - الجبرتي، م. س 2 : 550.

(20) - تاريخ الضعيف الرباطي 2 : 702.

(21) - الضعيف. م. س 2 : 605 - 606.

(22) - الضعيف. 2 : 702.

(23) - محمد بن عبد الوهاب، كتاب التوحيد" ص 66.

(24) - البستان الظريف (رسالة مرقونة على الآلة الكاتبة) 4 : 669

من تكهنات[25]، والزياني ممن سقط في ذلك مع "رجب بن عياد" أمين مرسى تونس حين فرضت عليه "الكرنطينة"[26].

هذا عن موقف الزياني الشخصي، أما كونه ادعى بأن مولاي سليمان لم يكن له علم برسالة حمدون بن الحاج التي سبقت الإشارة إليها، فإنما يريد بذلك تبرئة السلطان من وجود أي تعاطف مع "الوهابية" لما جر عليه ذلك من قلاقل وفتن، وتألب الطرق ضد سياسته وتورط بعضها في أحداث فاس سنة 1820 م [27].

وثمة نقطة أخرى - في تقديري - أثارت الطرقيين ضد السلطان مولاي سليمان، تتمثل في تعاطفه مع "الطريقة التجانية" دون غيرها. وهذا مايدفعنا إلى الحديث عن علاقة السلطان بها.

II - التجانية :

وكان الزياني وأكنسوس ممن عاصروا ميلادها وانتشارها بفاس، وهي تنتسب لمؤسسها سيدي أحمد التجاني الحسني الكاملي (ت 1230 هـ/ 1815 م). وقد سبق لهذا الشيخ قبل أن يشرع في تلقين طريقته أن أخذ عدة طرق بالمغرب كالوزانية والقادرية والناصرية وغيرها، كما أخذ الطريقة الخلوتية بالمشرق [28]، لكن هذه الطرق كلها - في نظر الشيخ - لم تشبع مراده الروحي ولذلك أذن له بوضع طريقة جديدة اعتبرها أم الطرق الصوفية بدليل قوله "كل الطرق تدخل عليها طريقتنا فتبطلها، لأن طابعنا يركب على كل طابع، ولا يحمل طابعنا غيره ..." [29] أو قوله "... ليس لأحد

(25) - كتاب التوحيد، م. س. ص 64 - 66.

(26) - البستان الظريف. م. س. 4 : 701 - 703.

(27) - الزياني، التاج والإكليل. مخ. خع. رقم 241 ك ص 168. أكنسوس، الجيش 1 : 217. الفاسي قبيلة بني زروال ص 46.

(28) - الكتاني، سلوة الأنفاس 1 : 181 - 182.

(29) - محمد التجاني، غاية الأماني. ط. القاهرة ص 48.

من الأوليـاء أن يدخل كـافة أصحابه الجنة بغيـر حسـاب ولا عقـاب إلا أنا وحدي .. وأمـا سـائر سـاداتنا الأوليـاء .. فـيـدخلون الجنة إصـحـابـهم بعـد الحساب والمناقشة إلا من من الله عليه بفضله .." [30].

ويذكر الزياني أن الشيخ أبا العباس التجاني تعرض حين مقامه "بأبي سـمـغـون" بالجـزائر إلى اضطهـاد الأتراك، فلجـأ إلى فـاس سنة 1211 هـ/ 1796م رفـقـة أسرته وبعض تلامـذته، مـسـتـجـيـرا بالعـاهل المغـربي مـولاي سليـمـان الذي اسـتـقـبله وأنعـم عليـه بدار "مـعـتـبرة من دوره كـان أنـفق في عمارتها نحوا من عشرين ألف مثقال.."[31]، ثم "جعل يصله بما يحتاج إليه .. ورتب له ما يكفيـه.." [32]. ويظهر أن هذه المساعدة المادية كانت تضـمن تأطيرا الطريقة في مستهل نشأتها بفاس من جهة، كما كانت تمثل – ضمنيا – دعـما معنويا من طرف السلطة المركزية، حيث لقيت الدعوة إقبالا كبيرا وسط المجتمع الفاسي، كـما أن مـريديها تمـيزوا بانتـمائـهم إلى أوساط رفـيـعة المستوى كالوزير أكنسوس[33]، والسفير التونسي إبراهيم الرياحي[34]، والأديب حمدون بن الحاج، وغيرهم من تجـار وأعـيـان، وموظفين حكومـيين كمـا جاء في الترجمـانة "..إنضـافت له طائفة من خدام الدنيا أهل اليسار .." [35]، وكل هذه الأمور جعل الطريقة تتقوى وتنتشر بسرعة كبيرة سيما وأنهـا تلتقي مع الوهابيـة في بعض الجـوانب كـمـحـاربة البـدع من زيارة القـبـور، والتـوسل بالأوليـاء إلى غيـر ذلك، الشيء الذي قـوى عـزم السلطان مـولاي سليـمـان، وربما باتفاق مع الشيخ التجاني على إصدار رسـالته التي أمر أن يـخطب بها في مختلف جوامع المغرب.

---

(30) – غاية الأماني، م. س. ص 47.

(31) – الناصري : الاستقصا 8 : 105.

(32) – تحفة النبهاء. مخ. خع. ك 241 ضمن "التاج والإكليل. ص 166.

(33) – غاية الأماني. م. س. ص 40 – 42 – 82.

(34) – غاية الأماني. م. س. ص 11–12.

(35) – الترجمانة ص 390.

إذن فهل هذا يعني أن السلطان كان على الطريقة التجانية ؟ ما يستخلص من مختلف المصادر التاريخية أن مولاي سليمان كان متشبعا بروح الشريعة الإسلامية، حريصا على نشر تعاليمها، عادلا ورعا، حلاه الزياني بقوله ".. من أئمة العدل، ومن أهل الساسة والعقل ..." [36]، "وشمل عدله المشروف والشريف، وعم نواله القوي والضعيف ..." [37]. كان معتدلا في سياسته الدينية، حيث نجده يحيى ليالي رمضان، ويقيم مجالس للإستماع إلى الحديث النبوي ومناقشته مع علماء العصر[38]، كما أولى اهتمامه بالمختصرات وشجع على حفظها [39]، وقام بتحديد وإصلاح وتوسيع العديد من الأضرحة [40]، بل وحتى بعد الرد الرسمي على رسالة الوهابيين سنة 1811م. نجده حريصا على إحياء ذكرى مولد الرسول عليه السلام سنويا، ".. فيأتي المنشدون من أهل فاس وأهل تطوان ..[41]" وغيرهم لانشاد مختلف كتب التوسلات.

لكل تلك الأسباب، كان حمدون بن الحاج ورسالته إلى الحرمين محورا للانتقاد من طرف الزياني محاولة منه تبرئة السلطان من فحواها، في وقت كان علماء آخرون يطالبونه بمحاربتها، كما جاء على لسان أحمد بن عبد السلام بناني "يطلب منه جهاد هذا الظالم، وانتقاد الحرمين الشريفين من يده ..." [42]، وثمة بالفعل مايؤكد أن هناك علاقة بين الوهابية والتجانية، فأحمد أمين مثلا يقول :"نرى من قام بمثل هذه الدعوة فعلا في المغرب

(36) – البستان الظريف 3 : 480.

(37) – البستان الظريف 3 : 525.

(38) – تاريخ الضعيف 2 : 476 ومابعدها.

(39) – الضعيف. م.س.2 : 566.

(40) – الضعيف. م. 2 : 482 - 530 - 558 - 560. الزياني، البستان الظريف 3 : 529.

(41) – تاريخ الضعيف 2 : 698 – 707 – 721.

(42) – م. المنصور، مرجع سابق ص 191 نقلا عن "الفيوضات الوهبية".

كالشيخ أبي العباس التجاني، فقد أمر بترك البدع، ونهي عن زيارة القبور .."[43]. بينما آخر يذهب إلى حد القول بأن التجانية لم تكن إلا "رابطة للفقهاء" أو على الأصح "قناة وهابية"[44].

لكن مهما قيل ويقال، فالتجانية ولو في عهد مؤسسها أبي العباس، لم يخرج نهجها عن نهج بقية الطرق المعروفة أو السائدة، وقد تنبه لذلك أحد زملاء الشيخ التجاني في الدراسة، وهو محمد بن عبد الله الجلالي، فكتب له برسالة "... ينهاه ويحذره من مغبة ذلك، وينصحه بالإقتداء بالسلف الصالح والبعد عن الطرقية، لكن ذلك لم يكن له تأثير في الشيح التجاني، ومضى في سبيله ..." [45]، أكثر من ذلك يستفاد على مستوى الممارسة أن التجانية لا تنكر زيارة الأولياء إطلاقا، كما يتبين من رسالة بعث بها الوزير أكنسوس إلى أبي علي بن طيفور، مما جاء فيها "عدم زيارة أحد من الأولياء الأحياء والأموات إلا أصحاب الإذن الخاص ..." [46]، وهو شيء أكده صاحب غاية الأماني - وهو من أتباع الطريقة - بقوله : "ونحن لا ننكر زيارة الأولياء ولا فضلها، وإنما كلا منا فيما إذا نبه الشيخ التلميذ على تركها، وجب امتثال أمره"[47]، ومما جاء على لسان إبراهيم الرياحي التونسي :

"لا تجادل في الأولياء وسلم ... قبل توتير ذي قوس دام
بشر الخائضين منهم بحرب ... من قوى في بطشه ذي انتقام
رب إني صدقت كل ولي ... راعيا قدرهم بين احترام [48]

(43) - أحمد أمين، زعماء الإصلاح. ط. بيروت ص 10 ومابعدها.

(44) - محمد ضريف، مؤسسة السلطان الشريف ص 127.

(45) - عبد الحليم عويس، أثر دعوة محمد بن عبد الوهاب في الفكر الإسلامي الإصلاحي بالجزائر. القاهرة. 1985 ص 12.

(46) - غاية الأماني. م. س. ص 82.

(47) - غاية الأماني ص 61.

(48) - غاية الأماني ص 13.

وقوله في شيخه :

غوث البرايا أبو العباس أحمد من

معناه أعظم أن يجلى بقرطاس

روح الوجود وقطب الكون مركزه

مدده سره الساري إلى الناس [49].

هكذا إذن يبدو أن "التجانية" لم تكن تدعو إلى "الوهابية" وإنما التقت معها في بعض الجوانب، واختلفت عنها في الأهداف والغايات على عكس بعض الحركات التي يمكن اعتبارها امتدادا للحركة السلفية الوهابية كالحركة السنوسية مثلا في الجزائر[50].

واعتمادا على كل ماذكرنا، يستخلص أن مولاي سليمان الناصري الطريقة قطعا، بتعاطفه جزئيا مع "الوهابية" كحركة إصلاحية، و"التجانية" كطريقة محدثة، إنما كان يريد خلق نوع من التوازن والموازنة في سياسته الدينية، إلا أن هذه السياسة لم تسهم إلا في إثارة معارضة بعض القوى الدينية بما فيها العلماء والمتصوفة والطرقيين وأتباعهم كما تجلى ذلك في التمرد الذي قامت به بعض قبائل الأطلس المتوسط بقيادة أبي بكر أمهاوش من قبيلة آيت سخمان والتي تورطت فيها كل من الدرقاوية والوزانية وذلك سنة 1818م، وكذا في أحداث فاس سنة 1235 هـ/ 1820 م. حيث جاهر بعض سكانها بالخروج عن بيعة السلطان، وكان الزياني ممن عاين الأحداث عن كتب، وألف في ذلك رسالته المسماة "تحفة النبهاء، في التفرقة بين

(49) – غاية الأماني. م. س. ص 82.

(50) – عبد الرحيم عبد الرحمان، تاريخ العرب الحديث والمعاصر. ط. 1982 ص 94 – 97.

الفقهاء والسفهاء"، عارض فيها العلماء الذين أفتوا بالخلع، ونعتهم بأقبح الأوصاف، في حين وصف المتمسكين بالبيعة السليمانية بأهل الخير والصلاح والدين المتين [51].

أقول هذا، والموضوع لا يزال يكتنفه الكثير من الغموض، وهو في حاجة ماسة إلى من يزيحه عنه.

أقول هذا وأستغفر الله، وأثوب إليه إن كنت قد قصرت أو بالغت، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(51) - انظر النص ضمن "التاج والإكاليل". م. س. ص 152 ومابعدها.

مخطوطات علماء افريقيا مصدرا لعهد المولى سليمان

حسن الصادقي
معهد الدراسات الافريقية الرباط

سبق لي في الدورتين السابقتين لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية، أن تحدثت عن بعض المصادر المرجعية مثل كتب التراجيم المشرقية، وكتب المناقب وكتب الأدب.

وسأسلط الضوء في هاته الدورة على نوع آخر من المصادر الأجنبية ويتعلق الأمر بالمؤلفات المخطوطة لعلماء بلاد السودان الغربي والأوسط التي لها صلة بعصر المولى سليمان محور دورتنا هاته.

وقبل ذلك لابد من إبداء الملاحظة التالية، وهي أن أغلب الباحثين المغاربة يركزون على نوع من المصادر الأجنبية وهي المصادر الموجودة في الدول الأوربية وتركيا.

سواء كان باللغة العربية أو باللغات الأوربية، ويهملون ويتناسون أن هناك مصادر وثائقية أخرى توجد في إفريقيا شمالها (الجزائر، تونس ... إلخ) وكذا إفريقيا جنوب الصحراء في بلاد السودان الغربي والأوسط وتعتبر مؤلفات علماء هاته المناطق بالفعل وثائق ومصادر أجنبية ولو أنها كتب بالعربية.

ولا يخفى أن مؤلفات علماء إفريقيا باللغة العربية، شملت ميادين متنوعة كالآداب والتراجم والتاريخ والفقه والحديث ... إلخ، ولازال أغلبها مخطوطا في دور الوثائق، بنيجيريا، غانا النيجر، مالي موريطانيا، الجزائر وتونس.

وتوجد بطبيعة الحال في الخزائن المغربية العديد من المخطوطات السودانية لعلماء تركوا بصماتهم واضحة في الثقافة المغربية والثقافة الإفريقية، وسجلوا من قريب أو بعيد ما يعتبر وثائق للحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية لعصر المولى سليمان.

1 - كتاب " قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر " لصالح بن محمد بن نوح الفلاني [1]، المتوفى بالمدينة المنورة. هو عالم سوداني زار المغرب في عهد المولى سليمان ودخل مراكش عام 1218هـ يوجد هذا الكتاب مخطوطا في الخزانة العامة و2821.

يعطينا هذا المخطوط صورة عن العلوم التي درسها صالح الفلاني، وكذا مقروءاته التي تشمل كتب المغاربة أمثال ابن غازي وزروق وابن عطية وغيرهم.

ولاشك في أن هذا المخطوط يفيد الدارسين للحياة الثقافية بالمغرب في عهد المولى سليمان.

2 - كتاب " انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكور " لمحمد بلو بن عثمان بن محمد بن عثمان ابن فودى 1937.

هو الأمير الثاني لخلافة سوكوتو التي أسسها والده عثمان بن فودي في نيجيريا، ويعتبر هذا الاخير من الأمراء العلماء حيث ألف العديدد من

(1) - ترجمته في الاعلام عن حل بمراكش ... للمراكشي ج 7: 302، فهرس الفهارس للكتاني 2. 264.

التصانيف باللغة العربية هو وشقيقه عبد الله ابن فودي، بالاضافة إلى ابنه محمد بلو صاحب انفاق الميسور. يوجد من هذا الكتاب مخطوطة فريدة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2384 (2)، وهو في تاريخ بلاد التكرور وأقاليمها وحياة المؤلف وجهاد والده وتأليفه.

لكن الذي يهمنا منه هو أنه يحتفظ لنا بنصوص رسائل من المولى سليمان الى الأمير محمد الباقر أمير منطقة آهير شمال نيجيريا (3) وهو موضوع الرسالة المؤرخة بجمادى الثانية 1225- 1810 وفيها اشارة الى والد المؤلف عثمان بن محمد ابن فودى الذي قام بمحاربة البدع " وأحيى سنة النبي عليه السلام وأخمد البدعة والضلالة وهدم أركان الجهالة وشن الغارات على بلاد الكفرة ... قهر أهل الطغيان والفساد وعلا به الايمان وساد ".

وهاته الرسالة جواب عن رسالة محمد الباقي الى المولى سليمان التي حملها إليه الشيخ عثمان بن محمد بن منصور "بلسان طلق غير ذي عي وقصور" حسب ما جاء في الرسالة.

- أما الرسالة الثانية فهي من المولى سليمان إلى الشيخ عثمان ابن فودى نفسه " السيد الذي فشا في اقطار السودان عدله واشتهر في الآفاق المغربية ديانته وفضله العلامة النبيه ... " كما جاء في ديباجة الرسالة حيث يبارك المولاى سليمان فيها أعمال عثمان ابن فودي الجهادية والاصلاحية، وهي مؤرخة كذلك في جمادى الثانية 1225/1810.

وتقر هاتان الرسالتان الوثيقتان : بوجود علاقات تتمثل في تبادل الرأي بين المولى سليمان وأمراء بلاد السودان خاصة من اشتهر منهم بالعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(2) - طبع بعناية وينتج في لندن عام 1957، وطبعه ثانية بالقاهرة بعناية جماعة من علماء الازهر وإعادت تحقيقة الباحثة بهيجة الشاذلي في رسالة جامعية.

(3) - انظر دراسة شرقي عطا عن انفاق الميسور مجلة البحث العلمي العدد 26 - 1976، حاليا شمال النيجر.

كما توحي الرسالتان بأن هناك إجماع عام للأمة الإسلامية في المشرق والمغرب والسودان على جملة من النقط الهامة لأمر الدين والدنيا وهي محاربة البدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله وقد ساهم المولى سليمان بنفسه في هذا الأمر وظهر ذلك في كتاباته ضد البدع منها : [4]

- إمتاع الأسماع بتحرير ما التمس من حكم السماع " خ ع د / 2 3460 ك 1/963

- حسن المقالة في تطهير النفس مما يشين الحج ويسلب كماله " خ ع ك 963 / 4.

- " الخطبة الوعظيه ضد بدع المراسم الشعبية " وردت في الاتحاف لابن زيدان ج 5 : 465 : 470 والتراجمانة 466-470.

- رسالة ضد بدع الزيارة للصلحاء " نشر الناصري فقرة منها في الاستقصا ج 8 : 123.

ومحاربة المولى سليمان للبدع شجع أمد السودانيين على تأليف رسالة في بدع البحارة والحمارة والحمالين تحت عنوان :

3 - " شكاية الدين المحمدي إلى رعاية الموكلين به " لمحمد بن القاضي ابي بكر يوسف بن إبراهيم القوتي التنبكتاوي كان حيا عام 1244/ 1809[5] وهو مخطوط صغير يوجد ب خ س تحت رقم 6831.

يقول المؤلف في أول المخطوط "وبعد فلما خرجت إلى الحج واتجهت الى البحر ألزمت ركوب السفن لمقصور يدي ورجلي عن مصاحبة القفول في البر

(4) - انظر حول مؤلفات المولى سليمان : المصادر العربية لتاريخ المغرب لمحمد المنوني ج 2 منشورات كلية الأداب 1989.

(5) - محمد النوني المصادر العربية ج 2 ص 64.

رأيت في تلك السفن مناكر ضاق بها صدري ... ولم أزل كذلك حتى توجهت إلى محروسة فاس .. وكان أمير المؤمنين بها في الوقت السراج المنير ... تاج العلماء ... السلطان الأعظم ابن السلطان سيدنا سليمان بن أبي المكارم الشريف المعظم محمد نصره الله " ... والمقصود من هذا الكتاب تغيير المناكر إلى من وكل بتغييرها ... " (6).

ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن العادات المنكرة التي فشت في البحارة والحمالين والحمارة، كما يشير إلى جهل البعيد في كل الأوطان الاسلامية من المغرب حتى تركيا وأنه ألف فيهم رسالة سماها " هتك الستر عما عليه سودان تونس من الكفر " (7).

ويطلب المؤلف من المولى سليمان أن يأمر أصحاب السفن بالعدول على المناكر " وأن ترسل الى باشا الجزائر وتونس وطرا بلس كتابا من هذا الشأن وتنبههم وتحذرهم عن ذلك ... لانك سلطان وهؤلاء تحتك ولو كانوا تحت العثماني الآن" (8).

ويظهر أن صاحب رسالة شكاية الدين المحمدي رجل مصلح معتز بالدين الاسلامي غيور عليه مما يشوبه من شوائب المنكرات وهو كغيره من علماء السودان لم يفته التأليف باللغة العربية رغم عجمة لسانه كما يشير الى ذلك في أول المخطوط.

ومن المؤلفات التي أضافها علماء السوادن الى الثقافة العربية الاسلامية ، والتي ألفت في عصر المولى سليمان هناك :

4 - كتاب ضياء التأويل في معاني التنزيل " لعبد الله بن محمد بن عثمان ابن فودي ن 1828/1244.

---

(6) - مخطوط شكاية الدين المحمدي.

(7) - يوجد مخطوط هتك الستر في المكتبة الوطنية تونس وقدم للباي حمودة باشا الذي حكم تونس ما بين 1814/1792.

(8) مخطوط شكاية الدين المحمدي.

يوجد مخطوطا ب خ ع د 2041. خ ع ك 1976. خ س 707.

5 – وكتاب " كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن " لسابق الذكر يوجد ب خ س 6879.

6 – "نور الالباب " لعثمان بن محمد بن عثمان ابن فودى، توجد لدى مصورة منها.

وبعد، هذه بعض المخطوطات السودانية المؤلفة باللغة العربية [9] وهي وثائق مصدرية لعهد المولى سليمان، إذ تمكن القارئ من استخراج إفادات وإضافات لتسليط الضوء على العلاقات السياسية بين المغرب وبلاد السودان كما تعطينا بعض الانطباعات عن الأمور التي شغلت بال المسلمين من رجال الفكر والسياسة واجتماعهم على ضرورة محاربة البدع أيا كان نوعها ومصدرها وتعطينا صورة للثقافة والمجتمع في هذا العهد.

(9) – انكب بمعونة الله حاليا علي عمل أكاديمي يتعلق بمؤلفات علماء بلاد السودان باللغة العربية عبر العصور.

الندوة الثانية

العمل الداخلي والسياسة الخارجية للسلطان مولاي سليمان

المولى سليمان لم يكن وهابيا

د. محمد المنصور
كلية الآداب/الرباط

عرف القرن الثامن عشر حركة واسعة لتجديد الإسلام وإصلاح أحوال المسلمين في أماكن عديدة سواء في المشرف او المغرب. ولازالت هذه الحركة الاصلاحية في حاجة إلى دراسة لمعرفة أسبابها ودوافعها، هل هي أسباب داخلية نابعة من واقع المجتمعات الإسلامية ذاتها أم أن لها علاقة بما حدث من اختلال بين الحضارتين الاسلامية والغربية مع بداية التوسع الأوربي وتراجع الدول الإسلامية.

وفي المغرب كذلك ظهرت الدعوة إلى التجديد مع سيدي محمد بن عبد الله والمولى سليمان. لكن الأفكار الإصلاحية التي نادى بها كل من السلطانين غالبا ما أسيء فهمها، فقيل عن السلطان الأول أنه تبنى العقيدة الحنبلية بعد أن تأثر بالدعوة الوهابية، وقيل عن الثاني أنه أراد أن يفرض المذهب الوهابي بالمغرب فأثار غضب القوى الدينية، وكتب الكثير عن سلفية السلطانين واعتبر المولى سليمان مكملا للاتجاه الإصلاحي الذي بدأه والده، وهذه كلها مقولات خاطئة. فسيدي محمد بن عبد الله لم تكن له صلة بالوهابية أو الوهابيين، والمولى سليمان لم يعتنق الدعوة الوهابية، كما أن توجهه الإصلاحي يختلف تماما عن توجه والده من قبله.

المولى سليمان وتوجهه الإصلاحي :

تأثر المولى سليمان بالتربية الدينية التي تلقاها على يد نخبة من

العلماء كالطيب بن كيران وعبد القادر بنشقرون وحمدون بن الحاج، وقد جمعته بهؤلاء العلماء وغيرهم علاقات وطيدة ظلت قائمة بعد أن تقلد الحكم في سنة 1792، وقد تأثر المولى سليمان بثقافة العلماء القائمة على أساس المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، ومن هنا اتجه توجيها غير توجه والده الذي تبنى العقيدة الحنبلية ونبذ جزءا هاما من " الثقافة المالكية " السائدة.

فالمولى سليمان أعاد للمذهب المالكي المكانة التي كانت له من قبل، وربط علاقات جيدة مع العلماء، وأعاد لمختصر الشيخ خليل اعتباره وشجع الناس على حفظه، وظهر تعلقه بالأشعرية واضحا عندما ألف في المسائل الكلامية التي كان ينهى عنها والده [1] ودافع عن مقولات الأشاعرة في العديد من القضايا. وإذا كان سيدي محمد بن عبد الله قد تقبل ممارسات " الإسلام الشعبي " فزار الأولياء وبني لهم الاضرحة والقبب، فإن المولى سليمان، وهو المتشبت بالإرث المالكي الأشعري، قد أعلن الحرب على الممارسات والبدع المرتبطة بتعظيم الأولياء وإقامة المواسم لهم والبناء على قبورهم بما يخرج عن الشريعة.

المولى سليمان والتصوف

خلافا لما يعتقده الكثير من الناس فإن المولى سليمان لم يكن معاديا للتصوف كما كان عليه الوهابيون، ولم يكن معاديا للطرق الصوفية إذا كان هو نفسه منتميا إلى الطريقة الناصرية التي عرفت بتصوفها السني.

فالمولى سليمان كان متصوفا بطبعه، يميل الى الزهد والبساطة في مأكله وملبسه، يذكر صاحب الاستقصا انه شوهد بسراويل مرقعة وبساعة جيب ربطت بخيط من صوف بدل سلسلة معدنية [2] كما يذكر القناصلة الأوربيون المعاصرون له أن كان يرفض الهدايا المزوقة بماء الذهب.

(1) - انظر الرسالة التي اشترك في وضعها كل من المولى سليمان والطيب بن كيران حول مسألة الكسب، مخطوط الخزانة العامة (1838 ضمن مجموع).

(2) - احمد بن خالد الناصري، الاستقصا، الجزء 7، 181 (الدار البيضاء، 1956).

إنما التصوف كما كان يراه المولى سليمان كان يختلف عن التصوف الشعبي السائد كما تمار سه جل الطرق وكما تمارسه العامة من الناس، التصوف الذي كان يدعو إليه هو ما يسمى بتصوف الفقهاء أو التصوف السني، وهو بالضرورة تصوف نخبوي لا يقدر عليه الا المتفقهون العارفون بأحكام الشريعة، أما عامة الناس، الذين عدهم المولى سليمان من " الأموات لامن الأحياء " فهم عاجزون عن فهم التصوف على حقيقته وهم يمارسونه بشكل يبعدهم عن الدين ويوقع بهم في المحضور، وربما أودى بهم الى الاشراك بالله باعتقاد التأثير للمخلوقات.

ولعل أحسن ما يساق في هذا الاطار لتوضيح مدي تشبت المولى سليمان بالتصوف السني هو تعهده لكتاب إحياء علوم الدين الغزالي وحثه الناس على قراءته، وبخصوص هذا كتب عنه معاصره سليمان الحوات (ت 1816) : «لما أطلع الله على المغرب شمس خلافته ... أمر صرف همته لإحياء هذا الدين بإحياء كتاب الإحياء للغزالي، فصار يقرأ على مر الأيام والليالي، وذلك بعدما تعهده بالقراءة في بساطه السعيد وتطاول له بالمباحثة في تفاصيل مشكله بالنظر السديد» [3]، ومن المعلوم أن الإحياء يمثل دليل المتعبد ومرشد السالك الذي يتوق إلى التقرب من الله لكن دون ما حاجة إلى وساطة الشيوخ وإجتماع المريدين في حلقات الذكر والسماع وما يرافق ذلك من ممارسات منافية للشريعة، وإذا كان المولى سليمان قد أدان نوعا من التصوف الشعبي وتصدى لمحاربته فإنه بالمقابل لم يجد حرجا في الالتحاق بالطريقة الناصرية وتلقي وردها.

إن المولى سليمان لم يعارض التصوف ولكنه أراد إصلاحه وبالنسبة للعامة التي لا تفقه في الدين ولا ينتظر منها أن ترجع إلى الصواب عن طريق الوعظ سلك المولى سليمان طريق الصرامة فتصدى للمواسم والدبح على أضرحة الأولياء وكل الممارسات التي قد تفضى بضعفة العقول إلى

(3) - سليمان الحوات، الروضة المقصودة، مخطوط الخزانة العامة ك 2351، ص 43.

الاشراك بالله. وهنا يقترب المولى سليمان في موقفه من الوهابيين لكن منطلقه العقدي كان هو غير منطلق الوهابيين.

الدعوة الوهابية وردود الفعل المغربية :

الوهابية هي شكل جديد من أشكال الحنبلية، وقد ظهرت بالجزيرة العربية خلال القرن الثامن عشر على يد محمد بن عبد الوهاب (ت. 1792). و"الوهابيون" يسمون أنفسهم بالموحدين لأن دعوتهم تنبني بالأساس على توحيد الله ومحاربة كل الممارسات التي يعتبرونها إشراكا بالله، وهكذا عارضوا بشدة كل تعلق بالمخلوقات سواء كانوا أولياء أو أنبياء، وتشددوا في زيارة القبور، بما في ذلك قبر الرسول عليه السلام، كما تميز الوهابيون بعدائهم للطرق الصوفية على أساس أن التصوف ينطوي على وساطة الشيخ بين العبد وخالقه، بينما يجب أن تكون العبادة خالصة لله. وفي بداية أمرهم أظهر الوهابيون تشددا مفرطا تجاه الذين لم يتبنوا آراءهم فحكموا على كل من تعلق بغير الله بالشرك، ورأو أن هذا يصدق على الذين يزورون قبور الأنبياء والصلحاء ويتوجهون إليهم بالدعاء، ومن ثم اعتبروا محاربتهم لا تختلف عن جهاد المشركين.

لم تصل أصداء هذه الدعوة إلى المغرب إلا في سنة 1803 بعدما تمكن الوهابيون من الاستيلاء على الديار المقدسة بالحجاز. ففي تلك السنة رجع الحجاج المغاربة ومعهم أخبار الوهابيين وخاصة ما تعرضوا له من مضايقات عند زيارتهم لقبر الرسول، وبسرعة أصبحت الوهابية تعني بالنسبة لعامة الناس النهي عن زيارة قبر الرسول وقبور الأولياء ومنع التوسل بهم ولعل ماأورده الضعيف من أن « الوهبي كان يريد أن يدعي النبوة » خير ما يعكس تصور العامة لهذه الدعوة الدينية الجديدة[4]، وبالتالي فإن العداء كان هو الرد الذي لقيته الوهابية بالمغرب، وبطبيعة

(4) – تاريخ الضعيف، تحقيق احمد العماري، الرباط، 1986، ص 375.

الحال لا يمكن فهم هذا الموقف إلا في ضوء الفكر الصوفي وتجذره في الذهنية العامة ولم يكن من باب الصدفة أن يقف المتصوفة والشرفاء في طليعة المناوئين لهذه الدعوة [5].

المولى سليمان والدعوة الوهابية :

تمكن المولى سليمان من الاطلاع على آراء الوهابيين في سنة 1803 عبر بعض الأدبيات التي رجع بها من الحج بعض العلماء، لكنه لم يفكر في إرسال جواب رسمي إلى الحجاز إلا في سنة 1811.

وقبل ان يرسل جوابه، أو على الأصح رأيه في الموضوع لأنه لم يتوصل بمراسلة مباشرة من الزعماء الوهابيين، استشار العلماء، وخاصة شيخه محمد الطيب بن كيران الذي كتب جوابا مطولا يرد فيه على مقولات الوهابيين[6]، وإذا قارنا بين ما كتبه الطيب بن كيران وما كتب به السلطان إلى سعود بن عبد العزيز في سنة 1811 فإننا نجد تطابقا في الأسس التي جعلت كلا منها يرفض أو يتحفظ من ما جاء به الوهابيون.

لقد رأى المولى سليمان في هذه الدعوة جانبا إيجابيا يتمثل في محاربتها للبدع وحثها على إبعاد العامة من كل الممارسات التي قد تودي بهم إلى الشرك، لكنه بقي متحفظا، مثله في ذلك مثل الطيب بن كيران والعلماء المغاربة، من الأسس العقدية التي انبنت عليها الدعوة الوهابية. ويعكس هذا التحفظ تشبت المولى سليمان بالإرث المالكي الأشعري. ولعل أهم نقطة يختلف فيها المولى سليمان مع الوهابيين هي النقطة المتعلقة بالتكفير فالوهابيون الذين بنوا مذهبهم على أساس التوحيد بالغوا في تقديس هذا المبدأ واعتبروا أن كل من يتوجه بدعاء الى نبي أو ولي هو مشرك دمه حلال . أما المدرسة المالكية، الأشعرية فتعتبر أن المتغيت

(5) – محمد المنصور، الحركة الوهابية وردود الفعل المغربية " في الاصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، كلية الآداب بالرباط، 1986، ص 182.

(6) – محمد الطيب بن كيران، رد على مذهب الوهابية ضمن مخطوط ك 2313، الخزانة العامة بالرباط.

بالأنبياء والصالحين، ولو على غير الوجه الشرعي، لا يخرج بفعل ذلك عن دائرة الايمان مادام يقر بالضروري من الدين، وهذا هو الرأي الذي التزم به المولى سليمان ودافع عنه.

كما انتقد المولى سليمان موقف الوهابيين من زيارة القبور والبناء عليها، واعتبر أن ما تحرمه الوهابيون لا يزيد عن كونه من المكروهات التي لا تستدعي الشدة والعنف الذين ميزا سلوك الوهابيين، لذلك دعا المولى سليمان الوهابيين الي نبذ العنف وعدم التسرع إلى تكفير الناس « لأن الغلط بترك ألف كافر أهون من الغلط بسفك محجمة دم امرئ مسلم ».

وحتى عندما لجأ المولى سليمان إلى منع الناس من الزيارة وإقامة المواسم فإنه فعل ذلك انطلاقا من المنظومة المالكية الأشعرية وليس لأنه تأثر بالدعوة الوهابية أو تبنهاها كما يزعم البعض، فهو عندما يمنع العامة من زيارة القبور أو الذبح عليها فهو يفعل ذلك اعتمادا على قاعدة مالكية صرفة هي قاعدة « سد الذرائع »، أي الخوف من الوقوع في المحظور بالنسبة لضعفة العقول وعامة الناس الذين لا يفقهون في الدين. والإختلاف بين هذا الموقف وموقف الوهابيين القائل بتكفير من يتوجه إلى الأموات بالدعاء اختلاف واضح.

إن الرسالة التي وجهها المولى سليمان إلى سعود بن عبد العزيز تظهر تعاطفا واضحا مع ما كانت ترمي اليه الدعوة الوهابية من تجديد الدين وتنقيته من البدع، ومما لاشك فيه أن المولى سليمان قد وجد في هذا الجانب جوابا على وضعية الدين بالمغرب حيث هيمنة " الاسلام الصوفي " والطرق والزوايا، وهذا التعاطف، المبني على نزعة إصلاحية وعلى اعتبارات سياسية كذلك، أثار معارضة العديد من العلماء ورجال الزوايا، وقد ظهر ذلك جليا خلال السنوات الأخيرة من حكم هذا السلطان، لكن الشيء الأساسي لم تكن لها علاقة لا بالوهابية ولا بالحنبلية كما تبناها والده، ولكنها كانت إصلاحية نابعة من الثقافة الدينية المغربية المبنية على المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية.

ملحق : رسالة المولى سليمان
إلى سعود بن عبد العزيز (1811)

" من ملكه الله أمة العرب وقيادها، فأحسن سياستها وأصلح سيرتها ومهد بلادها، وبشر على يديه حسنة أمن السابلة من القطاع والنهاب، وتيسر وصول الحجاج العمار والزوار إلى نيل الأوطار والآداب، فأصبح وقد أحرز بذلك الثناء والثواب وحصل به في الدارين أفضل جزاء وحسن مثاب.

أخونا في الله فلان حفظكم الله من جميع الأسواء وأدام عليكم سبوغ النعماء، سلام عليكم ورحمة من الله نامية وبركات متزايدة، وأياد صافية، ومنن مترادفة وعافية غير عافية.

وبعد فانا نحمد إليكم الله الذي هداكم وهدى بكم فلقد سرنا ما بلغنا عنكم من سيرتكم وشيمكم وأحوالكم من الزهد في الدنيا وإحياء رسوم الدين والحض على طريق السلف الصالح وسنن المهتدين والحمل على إخلاص التوحيد لرب العالمين وقطع البدع والضلالات التي هي منشأ زيغ العقائد وكثرة الجهالات، وما برحنا نسمع عنكم ما قد أصبتم فيه كل الإصابة ووافقتم فيه كتب العلماء ومذاهب السلف والصحابة كما لا يخفى على من مارس موطأ الإمام مالك، وما في الصحيحين وطالع مسند الامام الأوحد الزاهد أحمد بن حنبل أمير المومنين في الحديث بلامين، ومذهبنا معشر المالكية مبني على ما أنتم عليه من سد الدرائع وإبطال البدع والمحدثات، ولا نكفر مع ذلك أحدا بذنب من أهل القبلة ولا من أهل الأهواء في المعتقدات إلا من خرج ببدعته عما علم من الدين ضرورة كمنكري علم الله تعالى بالجزئيات، وعلى هذا إمام أهل السنة أبي الحسن الأشعري والأئمة الأربعة وهو المراد بالقطعيات، أخرج الطبراني عن أنس قال خرج

علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إن بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على اثنين وسبعين فرقة كلها على الضلالة إلا السواد الأعظم، قالوا من السواد الأعظم ؟ قال من كان على ما أنا عليه، وأصحابي من لم يمار في دين الله، ولم يكفر أحدا من أهل التوحيد بذنب غفر له " ورى البيهقي بسند صحيح أن جابر بن عبد الله سئل هل كنتم تسمون شيئا من الذنوب كفرا أو شركا أو نفاقا، قال معاذ الله ولكنا نقول مومنون مذنبون، فالفاسق إذا مات بلا توبة في المشيئة لآية ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وهي مخصصة لعمومات العقاب فإن عوقب لم يخلد بل نقطع بخروجه ودخوله الجنة كما صح في أحاديث الشفاعة المواترة، وفيما رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح " من قال لاإله إلا الله نفعته يوما من دهره يصيبه قبل ذلك ما أصابه "، فارتكاب الكبيرة لا يزيل إسم الإيمان خلافا للمعتزلة في أن مرتكبها غير مومن ولا كافر فيخلد في نار دون نار الكفار وخلافا لقول الخوارج أنه كافر، ولانكفر نافي الراية وخلق الله تعالى لأفعال العباد واختلف فيمن يقول بخلق القرآن فأطلق قوم أنه كافر، وثبت عن الشافعي، وقال آخرون مبتدع لا كافر وتأول البيهقي قول الشافعي على كفران النعم دون الخروج على الملة ورد بأن الشافعي أفتى بضرب عنق حفص القرد لقوله بذلك، ولعل ما ينقل عنكم من تكفير جفاة الأعراب إنما هو فيمن استحق ذلك منهم باعتقاد ما يخالف ما علم من الدين ضرورة، إذ الظن بكم التثبت في الأمور لا سيما في هذا المقام الصعب فلا يخفى عليكم ما ورد في تكفير عوام المسلمين من التشديد وغاية الوعيد الشديد لحديث مسلم وجامع الترميذي عن ابن عمر مرفوعا " أيما امرئ قال لأخيه كافر، فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه". ولأبي داوود عن أبي هريرة رفعه "أيما رجل كفر رجلا مسلما فإن كانكافرا وإلا كان هو الكافر". وهذه مبالغة أو وعيد بأن لا يختم له بالإيمان، عصمنا الله وإياكم، وللبخاري عنه وله وللامام أحمد عن ابن عمر رفعاه : "إذا قال رجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما ". والأحاديث في

هذا أكثر من أن تحصى، وانظر قوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله " إلى قوله " بما تعلمون خبيرا" وفي الصحيح أن المصطفى قال لاسامة : أقتلته بعدما قال لا إله إلا لله فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جئت يوم القيامة ؟ ولما اعتذر بأنه قالها خوفا من السلاح قال : هلا شققت عن قلبه ؟ " وانظر ما تواتر من قوله صلى الله عليه وسلم " امرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا فيها دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله " . فاكتفى من جفاة الأعراب بالشهادة حتى يثبت موجب العصمة.، ومما اشتهر بين علماء الأمة وذكره غير واحد كالتقي السبكي والبيضاوي أن الغلط بترك ألف كافر أهون من الغلط بسفك محجمة دم امرئ مسلم.

وكيف يتوهم أن يلتبس على أمثالكم الفرق بن المشرك الذي يسجد للصّنم وهو يرى أنه يجلب ويدفع ويعصم من الأسواء، وأنه لا ترد شفاعته بل تعتبر لا محالة من غير احتياج إلى إذن - قال تعالى معرضا بهم " من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه " " ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له "، " يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمان ورضي له قولا"، "وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصروكم أو ينتصرون. " ثم قال " قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذن نسويكم برب العالمين " أي في استحقاق العبادة والنفع والضر، وقال " ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله" وقال في النهاية الأنداد جمع ند بالكسر، وهو مثل الشيء الذي يضاده في أموره ويناده أي يخالفه. وفي المصباح ولا يكون الند إلا مخالفا - وبين المسلم المستغيث بنبي أو ولي مع اعتقاد أن الله هو المعطي المانع الضار النافع وأن يستغيث به ويرغب إليه على وجه أن يشفع له عند الله استصحابا للإذن العام في الشفاعة للمسلمين وقضاء حوائجهم أو إسنادا لما يحدث له من إلهام أو كيفية يعلمها الله. وظن قبول شفاعته بمكان خصوصيته، ولا يمنع من ذلك كونه ميتا فإن الأرواح بعد مفارقة الأجساد دراكة عالمة بأحوال الأحياء غالبا، كما تواطئت

به الآثار المتكاثرة المفيدة لليقين. قال تعالى " كل نفس ذائقة الموت " والذائق لا بد أن يبقى بعد المذوق. وقال " إذا بلغت التراقي " إلى قوله " المساق " والمسوق الأرواح، " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء " إلى اخره. وأحاديث نعيمها وتعذيبها وأن أهل القبور يسمعون سلام الزائر ويردون ويعلمون أحوال أهل الدنيا وأن الأرواح تتلاقى وتتزاور كثيرة جدا، قالوا ولكل روح بجسدها اتصال معنوي، أما الأنبياء فنحيا بهم حقيقة على ما للحافظ الأسيوطي في تأليف سماه **أنباء الأذكياء بحياة الأنبياء.**

وبالجملة ليس لنا أن نكفر إلا بإنكار من علم من الدين ضرورة، وكل مالا يخالف إجماعا ولا نصا صريحا قطعيا فمرجعه إلى نوع اجتهاد. فليكن رد العلماء فيه بعضهم على بعض برفق مع الجزم بأن المصيب في العقليات واحد وهو من صادق الواقع كقولنا بأن الباري سبحانه يرى في الاخرة وأنه الخالق لأعمال العباد، وأن صفات المعاني قائمة بالذات العلية، وأنه تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد أو لا يكون ما يريد. أما الأحكام الفقهية فقد اختلف هل كل مجتهد فيها مصيب أو المصيب فيها واحد وعليه الأكثر، فالآنة القول فيها مع الخصوم أجدر، وقد أفاد الغزالي في **الإحياء** في الباب الرابع من كتاب العلم شروط المناظرة والجدل وءافاتهما، فلينظر، وليحذر العالم من التشغيب وقلة الانصاف للحق بعد ظهوره واللجاج فيه، وانظر كيف كانت مناظرة الإمام أحمد رضي الله عنه مع خصومه في المعتقدات وغيرها بإيضاح الحق بأدلة ظاهرة والاحتيال في إيصاله إلى الأفهام حتى يزول الالتباس والاشتباه، وفي هدم الباطل بحل الشبه بلا تعنيت ولا تشغيب وقد كانت البدع والأهواء طافحة في وقته فكان يتعطف في ردها وإبطالها وهذا كله مما سبق إليه الكلام وليس بخاف على أمثالكم ممن هو بصدد تحقيق الحق وإقامة لأحكام.

وأكثر ما تنكرونه على مرتكبيه وهو عندنا معشر المالكية محرم أو مكروه أو مختلف فيه، فقد قال علماؤنا " يكره البناء على القبور أو

التحويز، وسواء كان الميت مالكا أو عالما أو شريفا أو سلطانا أو غير ذلك " وإن بوهي به حرم "، وجاز البناء الخفيف للتمييز بحجر أو خشبة بلا نقش وخد. صحح الحاكم في **المستدرك** أحاديث النهي عن البناء والكتابة على القبور ثم استخف الكتابة فقط بأن أئمة المسلمين شرقا وغربا مكتوب على قبورهم، وبسط المسئلة والخلاف فيها يطول، وذكر علماؤنا أيضا أن الوقود على قبر الولي ووضع الستور عليه ليس بقربة بل هو مكروه ومن نذر مالا لذلك أو نذره بعينه لم يلزمه لكن من وضع يده بمال نذر لذلك وجب عليه جعله بمنزلة شرط الواقف المكروه فإنه يتبع، وقد بسط صاحب **المدخل** الكلام في هذا وغيره من كلامه ولا بأس بذكر مسئلة الصالحين والعلماء والأولياء ما لم يكن منقوشا على القبر أو على جدار أوفى ورقة ملصقة هناك، وإذا كان هذا ممنوعا فما بالك بالشمع الكبير الغليظ الذي ليست به حاجة للوقود ولو كان سائغا فلم يبق إلا أن يكون إضاعة مال وكذلك يمنع ما يفعله بعضهم من تعليق قنديل على قبر من كان مشهورا بالخير والناس يعتقدونه لياتي الناس إلى مكان الضو ليزوروا فلينظر تمامه، ومن المختلف فيه زيارة قبور الصالحين فذكر ابن أيوب في اختصار الرسالة العلمية للقشيري أن ذلك ليس من طريق القوم أي الصوفية وذكر ابن العربي من فقهاء المالكية أنه لا يزار قبر لينتفع به غير قبر نبينا صلى الله عليه وسلم. وقال الشارمساحي " قصد الانتفاع بالميت بدعة "، قيل وهذا ينظر إلى سد الذرائع وحسم مادة البدع المحرمة المتطرقة في ذلك وجعلها الغزالي من العبادة، واعتمده صاحب **المدخل**، وعمل عليه الجماهير الذين لا يحصون، وحظ على ذلك الشيخ ابراهيم التازي في قصيدته المشهورة التي تلقاها العلماء بالقبول وأولها :

زيارة أرباب التقى مرهم يبدي ... ومفتاح أبواب العارة والخير ...

إلى أن قال :

عليك بها فالقوم باحوا بسرها ... وأوصوا بها يا صاح في السر والجهر

ثم قال :

ولا فرق في أحكامها بين سالك مــرب ومجذوب وحـي وذي قبــر

وقـال مـالك في رواية ابن وهب " إذا سلم زائر القـبـر الشـريف على المصطفى يقف المدعاء مستقبلا القبر الشريف لا القبلة " وقد سأله الخليفة المنصور : أيهـمـا يسـتـقبل ؟ فقـال : لم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله عز وجل، وقـال مـالك في **المبسوط** : لا أرى أن يقف يدعو، لكن يسلم ويمضي " وجمع الشيوخ بين قوليه بأن مثل المنصور يعلم ما يدعو به، وآداب الدعاء بين يديه صلى الله عليه وسلم فأمن عليه سوء الأدب فأفتاه بذلك وأفتى العامة أن يسلموا وينصرفوا ليلا يواجهوه بالتوسل به إلى الله أو يدعوا بما يحرم أو يكره، أو يلغوا جهلا منهم، وقد حذر الشيوخ مما يفعله بعض الجهلة من الطواف بالقبر الشريف والتمسح بالبناء أو إلقاء المناديل والثياب عليه - وقد تقرب بعض العامة فأكل الأوز في الروضة الشريفة - وإلقاء شعورهم في القناديل وكل ذلك من المنكرات وإذا كره مالك دعاه العوام عند القبر الشريف فما بالك بغيره من قبور الصالحين، فإن زيارة العوام لقبور الصالحين لا يخلو غالبا من سوء مقالات وظهور جهالات، فمنعهم منها حتى يعلموا ما يقولون سداد قياسا على ما في آية " لا تقربوا الصلاة ... الآية» وحديث مالك " فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه " بجامع الخوف من التكلم بالجهل وما لا يليق بجناب الباري سبحانه، ومن المختلف فيه أيضا تقبيل كل معظم شرعا وقد أخذ بعضهم الجواز من مشروعية تقبيل الحجر وقد ورد في وفد عبد القيس أنهم أكبوا يقبلون يدى المصطفى ورجليه وكذا تمريغ الوجه في الأماكن الشريفة، قالوا ومذهب كثير من العلماء وخصوصا المالكية الكراهة في غير ما ثبت في الشرع كتقبيل الحجر، وقد نهى مالك عن تمريغ الوجه علي الحجر، وكان يفعله إذ خلا به هذا.

وفي **المدونة** وهي أجل كتب المالكية " ولو قال علي جزورا وان انحر جزورا فلينحرها في موضعه ولو نوى موضعا أو سماه فلا يخرجها إليه كانت الجزور بعينها أو بغير عينها وكذلك إن نذرها لمساكين بلده وهو بغيرها فلينحرها بموضعه يتصدق بها على مساكين من عنده وسوق البدنة إلى غير مكة من الضلال " وهذا كله من سد الذرائع. وكرامة الأولياء لا تنكرونها فيما بلغنا عنكم كيف وإنما أنكرتها المعتزلة وأثبتها جميع أهل السنة وقال جمهورهم ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي لا فرق بينهما إلا التحري وعدمه، وهي متواترة معنى، فلا حاجة للتطويل، وهذا القدر كاف في هذه الرسالة المبنية على الاختصار دفعنا بها أن تظنوا بنا أنا ممن نحوا منحى الاعتراض عليكم والإنكار. ولما اتضح لدينا قصدكم وخلوص طويتكم في الذب عن الدين ولحقنا احتياطكم وحياطتكم للمسلمين، ومنعكم الجار وإن جار فكان بكم من اللائذين ومحافظتكم على الشيم العربية والمكارم الشرعية مقتنعين بذلك منكم مبتهجين وإنكم لا تعرضون للمغاربة الحجاج والعمار والزائرين، لم يبق وجه في احتباسهم عن أداء الفريضة والسنة، وجهانهم وأحللنا ولدنا وسطهم في هذه السنة ملتمسين أجر تلك الخطى، وأن يحط بها عنا الوزر والخطا، وان نكون ممن ندب إلى الطاعة وكان، وليها من المسعدين، وإنك لخليق أن تسلك بهذه الأمة أحسن المسالك، وأن تكون عليها من المشفقين، فأحسن جوارها أحسن الله إليك، إن الله يحب المحسنين، ولا تصغ إلى واش يخادع الله وهو خادعه، ولا يحيق مكر السؤ إلا به " والله خير الماكرين "، عصمنا الله وإياكم من كيد الشيطان وجعلنا ممن اضطره الى استثنائهم بقوله " إلا عبادك منهم المخلصين " وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وأصحابه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصدر : مخطوط الخزانة الحسنية 4624.

مولاي سليمان والثورة الفرنسية ونابليون بونابرت (1792-1815)

د. زكي مبارك *

معرفة الحكام المغاربة بأحوال الدول

موقع المغرب الجغرافي هو الذي تحكم إلى حد بعيد في تحديد نوعية ومظاهر علاقاته بسائر الدول، وفرض على قاداته وحكامه نهج دبلوماسية مغربية، تأخذ بعين الاعتبار هذه الخاصية الجغرافية التي جعلت من المغرب أرضا للحوار بين الحضارات، وحتمت عليه أن يظل متفتحا على الآخر، وإن اختلف معه دينيا وسياسيا وبشريا.

هذه الخاصية ستملي عليه بطبيعة الحال ضرورة معرفته بأوضاع الدول والأمم التي يتعامل معها في شتى المجالات. وتصبح معرفة هذه الدول وأوضاعها أكثر إلحاحا عندما يتعلق الأمر بالشعوب التي لها مع المغرب روابط تاريخية وعلاقات تقليدية متينة، كما هو الشأن مع دولة فرنسا التي تأتي في طليعة الأمم المسيحية التي أبرمت مع الملوك العلويين إتفاقيات سياسية ودبلوماسية ومعاهدات تجارية يرجع عهدها إلى سنة 1533 م [1].

(*) - أستاذ التعليم العالي - باحث بالمعهد الجامعي للبحث العلمي - الرباط

(1) - أبرم Pierre de Piton باسم فرانسوا الأول، اتفاقية بين المغرب وفرنسا يسمح بموجبها للأسطول المسيحي الفرنسي بالتزود بما يحتاج إليه من الموانئ المغربية مما حتم تواجد قناصل فرنسيين بهذه الموانئ (انظر : عبد العزيز بن عبد الله، السفارة والسفراء بالمغرب، الرباط - 1985 - صفحة 92.

فغداة تولية السلطان مولاي سليمان الحكم، عرفت فرنسا في يوليوز 1789 م ثورة فكرية واجتماعية وسياسية قلبت البلاد ظهرا لبطن، ورأسا على عقب، وأحدثت في أوروبا تحولات عميقة غيرت الأنظمة الحاكمة، ودعت إلى "نظام عالمي جديد" يستمد مقوماته من مبادئ هذه الثورة التي اتخذت لها كشعائر "الحرية، المساواة، الأخوة".

والجديد في هذه الثورة، أن دعوتها لا تقتصر ولا تنحصر في البلدان الأوربية، بل أعلنت على أنها ثورة عالمية جاءت لتحرر الإنسان كيف ما كان، وأينما تواجد، من العبودية والرق وكل أنواع الاستغلال السياسي والديني والاجتماعي.

من البديهي أن يسترعي هذا الحدث انتباه الحكام المغاربة سيما وقد وقع في بلد مجاورة تربطه بالمغرب علاقات متميزة ويحدث في وقت عرفت فيه الدبلوماسية المغربية نشاطا مكثفا على الصعيدين الأوروبي والعالم الإسلامي، بفضل توجيهات السلطان سيدي محمد بن عبد الله وسياسته الخارجية التي تميزت بالإنفتاح وتمتن الروابط. ففي عهده كان السفراء المغاربة والتجار يطوفون المشرق العربي والغرب المسيحي، موقعين الاتفاقيات، محررين أسرى المسلمين، مقدمين الهدايا والدعم للبلاد الإسلامية، باحثين عن الأسواق التجارية، والكتب النفيسة، مجددين المعاهدات التجارية، حاملين من هنا إلى هناك البضائع والسلع [2].

إن تواجد هؤلاء السفراء والمبعوثين والتجار في مختلف هذه الأمصار والأقطار، واحتكاكهم بشعوبها وولاة أمرها، واللقاء بحكامها، يمكنهم من الإطلاع على أحوالها والتعرف على أوضاعها السياسية والاقتصادية من الداخل.

---

(2) - تطرقنا لجانب من سياسة سيدي محمد بن عبد الله الخارجية في بحث بعنوان : المغرب وجنوة - مجلة MAROC - Europe - العدد 2 - 1992 - صفحة 81. (باللغة الفرنسية).

فهاهو السفير ابن عثمان المكناسي يعطي للسلطان سيدي محمد بن عبد الله، بعد عودته من رحلته الطويلة التي زار خلالها تركيا، والمشرق العربي، والجزائر، وتونس، تقريرا عن هذه الدول فيقول "... وختمنا أعمالنا بمشاهدة أنوار طلعته، ثم تعاطينا معه أكرمه الله وأعزه، أخبار الحرمين الشريفين والمشرق، والشام، والقسطنطينية، وغيرها من البلدان التي رأيناها ومررنا بها ..." (3).

أما أبو القاسم الزياني، السفير، والوزير، والمؤرخ والكاتب، الذي تجول في المشرق العربي، واستقر باسطنبول، وزار عدة دول أوروبية وإسلامية، فيقول عنه المؤرخ الفرنسي : "... لم يكن متوقعا أن يظهر هذا الرجل عارفا كل المعرفة بتاريخ أوروبا في عصورها الحديثة. لقد فهم الزياني أنه يتعين على المغرب أن لا يظل منغلقا على نفسه، متجاهلا لما يقع خارج حدوده" (4).

وإن اختيارنا للرجلين المكناسي والزياني مقصود. فكلاهما سيلعب في عهد السلطان مولاي سليمان دورا أساسيا في رسم وتحديد معالم سياسة المغرب الداخلية والخارجية.

يتضح إذن أن الحكام المغاربة كانوا على معرفة تامة بأحوال الدول والأمم التي يتعاملون معها، وهذه المعرفة غالبا ما تكون موضوعية وشاملة بفضل أناس من أمثال المكناسي والزياني وغيرهم من التجار والمبعوثين. فغداة الإعلان عن الثورة الفرنسية وخلالها، قام بزيارة هذا البلد وهو في غليانه، سفراء ومبعوثون نذكر على سبيل المثال السيدين عبد العزيز فنيش، وعمر بن العروسي، اللذين كانا بمدينة مرسيليا الفرنسية حيث ورد عليهما

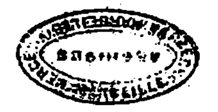
(3) - ابن زيدان - الإتحاف - الجزء -II- ص 305.

(4)- E. Ledi - Provencal - les Historiens des chorfas - Collection Archives - P. 142 et 198/ Notre Traduction.

الحمد لله وحده. هذه نسخة من الكتاب الذي ورد علينا من حضرة
مولانا نصره الله معلما بخطه الشريف لمرسليه من بلاد الافرنصيص
ونصه الحمد لله وحده كاتبنا السيد عبد العزيز فنيش والسيد
عمر العربي سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد بوصول
امرنا هذا اليكم يتوجه الطالب عمر العربي من مرسليه ويصحب
معه جميع براوات الاسكندرية وبراوات مصر وبراوات الانكليز
يعطيها لاهل الاسكندرية وبراوات اهل مصر يعطيها لاهلها
ويعلمهم بالمال الذي فادى عليهم ولا يصحب معه سوى البراوات
والطالب عمر العربي يبقى مقيما بمصر حتى يرد عليه الطالب
عبد العزيز بكتب اخر ويبان الحال على يد جنس اخر من اجناس النصارى
ويقدم علينا الطالب عبد العزيز بحاشية سيدي البخاري وباختصار
الخطاب مع الكنانيش والسبائك والطالب عمر لا يصحب معه شيئا من
البراوات اللاتي للاسكندرية ومصر والكتب والكنانيش والس
والسبائك يقدم بها علينا الطالب عبد العزيز والطالب عمر العربي
يبقى مقيما بمصر حتى يرد عليه الطالب عبد العزيز المذكور وعلى
هذا يكون عملكم والسلام وفي 2 من صفر 1203

يشهد على نفسه كاتبه عبد العزيز بن عبد الرحمن فنيش
وفقه الله ان المسطر اعلاه هي نسخة من كتاب سيدنا
نصره الله الذي ورد علينا لمرسليه من غير زيادة ولا نقص
وكتبت منه النسخة في 4 من جمادى الثانية عام 203





كتاب السلطان سيدي محمد بن عبد الله، المؤرخ في 21 صفر 1203 هـ/ الموافق لشهر نوفمبر 1788 م والمتعلق بموضوع سفارتهما[5].

وقد مكث المبعوثان في مرسيليا شهورا عديدة، ولم يعد السيد عبد العزيز فنيش إلى المغرب إلا يوم 28 رجب 1203 هـ الموافق 25 أبريل 1789م، أي ثلاثة أشهر فقط قبل اندلاع الثورة الفرنسية [6].

وعلى مايبدو من سير العلاقات بين المغرب وفرنسا خلال هذه المرحلة، فإنها لم تتأثر بالأحداث التي تعرفها فرنسا والمغاربة على علم وإطلاع بها. ففي 28 مايو 1789 م، يوجه القنصل الفرنسي من مدينة سلا السيد Du Rocher تقريرا مفصلا عن عودة عبد العزيز فنيش ويحيط فيه علما بأن العاهل المغربي سيوجه السيد محمد الزوين، صهر الملك، وابن باشا إقليم تامسنا، على رأس سفارة مغربية تتوجه إلى مدريد، ونابلي والباب العالي مع توقف في مرسيليا[7].

ويعود محمد الزوين من رحلته التي دامت حوالي شهرين بحيث وصل إلى أرض الوطن يوم الأحد 27 شوال 1204 هـ الموافق 10 يوليوز 1790 م وهو على علم تام بما يجري في مرسيليا وفرنسا وماخلفته الثورة الفرنسية من أصداء في كل من الدول الأوروبية، واسطنبول التي كان حكامها يتابعون أخبار هذه الثورة ببالغ الأهمية.

ولما عاد السفير محمد الزوين من رحلته، من المستقبلين له ومن المهنئين بسلامة العودة، مولاي سليمان، خليفة السلطان بمراكش إذاك. يقول

(5) – أنظر نص الوثيقة التي تتضمن معلومات عن مهام المبعوثين إلى كل من مصر والإسكندرية. (الوثيقة المرفقة ضمن هذا النص).

(6) – توضح الرسالة التي بعث بها من طنجة عبد العزيز فنيش إلى أعضاء الغرفة التجارية بمرسليا تاريخ وصوله إلى هذه المدينة.

(7) – أنظر الصفحة الأولى من التقرير الذي بعث به القنصل من مدينة سلا إلى رؤسائه بمرسيليا حول هذا الموضوع وموضوعات أخرى تتعلق بسفارة عبد العزيز فنيش.

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

الى كافة الكبالروس فنصوص فامن الكمرسي سلام على من اتبع الهدى اما بعد

اعلموا اننا وصلنا لثغر طنجة عمرها الله بوجود مولانا نصره الله مخيم مع القبطان

جاكي برنار وعمل معنا مليحا الكل الامر فهمناه وكذا الترجمان كان معنا وكل ما تقوله لا يفعله

والذي بعد لقونصوا الاصبنيول بلاد القونصواد رسل وكتب القونصواد رش القونصوا

الاصبنيول يقبض الذي على مراكب الذي يبين المذكور ويد بعد لنا الا سيدنا نصره الله امره بذلك

والذي بعد المذكور سلمنا الكتب يبلغ لتطوان والسلام في 25 من ابريل الموافق لعشرين 28 من

رجب عام 1203

كاتبه بامر الشريف بعينه

عبد العزيز بن عبد الرحمن بنيس

وفقه الله بمنه

الضعيف في هذا الشأن "... فلما نزل السفير من سفينته إعتنقه مولاي سليمان وبكى معه على أبيه السلطان رحمه (الله) وكان خبر موت السلطان قد وصل لبلاد العثماني بعد العشرين يوما من موت السلطان رحمه الله"[8].

مما لا جدال فيه أن السفير محمد الزوين تمكن خلال مقامه وتجواله بفرنسا وباقي البلدان التي زارها، من الإطلاع على الأوضاع فيها والثورة الفرنسية في أشدها. وبما أن مولاي سليمان من المهتمين بأحوال الدول والأمم بحكم ثقافته وتكوينه ومهامه، ومن أعمدة الحكم في الدولة المغربية، فإن فضوله الفكري يحتم عليه ويدفع به إلى معرفة الأوضاع الأوربية من السفير الزوين. ومن هنا، فمولاي سليمان قبل توليه الحكم، كان على دراية بما يجري في فرنسا وخارج الحدود المغربية.

توفي مولاي اليزيد بعد سنتين من الحكم (1790 - 1792 م) وتولى بعده السلطان مولا سليمان مقاليد البلاد في مارس 1792 م والثورة الفرنسية في عنفوانها وهي تدخل سنتها الرابعة، سنة الحسم والتحولات الجريئة والعميقة، والحكام المغاربة على علم تام بهذه التحولات التي تشهدها أوروبا.

مولاي سليمان والثورة الفرنسية

إذن يتولى مولاي سليمان الحكم والثورة الفرنسية في مخاض، وسائرة لتصفية مظاهر النظام القديم، بإقرار دستور للبلاد ينظم ويحدد العلاقة بين الحكام والمحكومين. كما أن الثورة دخلت في حروب مع الأمراء والملوك المجاورين للحدود الفرنسية.

ففي 20 أبريل سنة 1792 م، أعلنت الثورة الحرب على النمسا وباقي

(8) - هذه المعلومات أوردها الضعيف في "تاريخ الضعيف" - تحقيق وتعليق وتقديم : أحمد العماري - دار المأثورات - الرباط 1986 - صفحة 215.

Messieurs

J'ai reçu la lettre que vous m'avez fait l'honneur
de m'écrire le 25 février, par original et Duplicata.
Le capitaine Bernard a débarqué à Tanger Cid Abd
elaziz Perrick et les gens de sa suite. Je lui ai adressé
mes ordres pour remettre les 38 lingots d'or au consul
d'Espagne, ils ont été consignés dans le trésor du Roi de
Maroc, suivant ses ordres, et nous sommes valablement
déchargés. Ce maure se loue infiniment de nos politesses
il est actuellement ici et passera incessamment à Maroc.

Le nommé Cid Muhamet Zenini Beau-frère du
Mre Marocquin un de ses principaux ministres, fils du
Pacha de la province de Temsena, est dépêché par l'Empereur
du Maroc en ambassade à Madrid, Naples, et auprès de
la Porte ottomane, m'a remis le premier du courant la
somme de mille Piastres fortes d'Espagne avec ordre de
la lui faire compter à Constantinople s'il est dans le cas d'en
avoir besoin pendant le séjour qu'il fera en cette capitale.
Je n'ai point pu me refuser à lui rendre ce léger service, j'ai
reçu sa somme de mille Piastres, et je lui ai donné une
lettre de crédit dont voici la copie, sur Mrs les députés de
Constantinople, permettez que je vous supplie de leur donner
vos ordres pour qu'ils comptent cette dite somme à ce Cid
Muhamet Zenini s'il en a besoin, je vous en réponds en mon
particulier, ce service ne regarde pas la cour. aussitôt que

vous me

notta.
Il y a 5 a 6 mois
le Maure qui a [illegible]
de millions [illegible]
n'est pas arrivé
à Constantinople.

البلدان الأوروبية لإخضاعها لتوجهاتها وأهدافها. ومن الدول الأوروبية التي تقيم لهذه الثورة وزنها وتتخوف من توسع مبادئها : إنجلترة وإسبانيا الدولتان اللتان لهما مع المغرب حسابات تاريخية. إن مولاي سليمان في هذه الحقبة، لا يمكن له إلا أن يرى بعين الرضى هذه الثورة التي شغلت بال أوروبا في ظرف كان عليه فيه أن يواجه بدوره منافسين له من أفراد الأسرة الشريفة، ومنافسين آخرين خرجوا من صفوف الشعب، مدعمين من طرف بعض الزوايا والرباطات والطرق الدينية. ويعرف مولاي سليمان أن كلا من إسبانيا وإنجلترا تشجع كل حركة انفصالية، أو تمرد قبلي، أو طامع في الحكم من أجل إضعاف المغرب اقتصاديا وسياسيا وبشريا، لصرف حكامه عن الإهتمام بقضايا تحرير سبتة - ومليلية المدينتين اللتين يرى فيهما الغرب المسيحي ثغورا تهدد مصالحه وتواجده في إفريقيا، وبها يتحكم الغرب في الطرق التجارية البحرية الرابطة بين المحيط الأطلسي والمتوسط عبر جبل طارق.

من الأكيد والبديهي أن هذه الثورة التي أشعلت فتيلة الرعب والخوف والفوضى في أهم الدول الأوروبية تخدم موضوعيا وسياسيا مولاى سليمان بصفة غير مباشرة. فقد وجه عنايته لجعل حد للفتن الداخلية، ولإخماد الانتفاضات والتمردات ومواجهة خصومه السياسين الذين يتلقون الدعم من بعض الجهات الأوروبية وفي مقدمتها إسبانيا.

إلا أن موقف مولاي سليمان من هذه الثورة ورجالها سيتغير بعد أن تمت محاكمة الملك لويس السادس عشر، وإعدامه يوم الأحد 21 يناير 1793 م بساحة لاكونكورد بباريس. إن هذا الإجراء "الثوري" قوبل بامتعاض كبير، وأسف شديد، وحزن بالغ، واستياء عميق في معظم الممالك الأوروبية وحتى الإسلامية. وتصل أخبار هذا الإعدام طبعا إلى المغرب عبر قنوات متعددة : السفراء المغاربة، المبعوثون، التجار، القناصل. وتبقى اسطنبول

عاصمة الدولة العثمانية التي لها اتصالات مباشرة بأوروبا والعالم الإسلامي، المصدر الذي تأتي منه أخبار هذه الثورة وتطوراتها وأهدافها البعيدة والقريبة، المعلن عنها والخفية.

وجه السفير العثماني في باريس تقريرا عن هذه الثورة إلى السلطان سليم III المعاصر لمولاي سليمان جاء فيه :

"... بما أن الفرنسيين قد فقدوا ملكهم، فإنهم أصبحوا بدون حكومة، أكثر من ذلك، فبسبب خلو العرش، صارت أغلب المناصب بأيدي رعاع الشعب، وهم ليسوا أكثر من من عصابة من الثوار، أو بالتركي :"مجموعة من الكلاب". وإنه من غير الممكن أن ننتظر الأمانة والصداقة من أمثال هؤلاء الناس" (9).

أما عاصم أفندي، كاتب يوميات السلطان سليم III فقد دون عن الثورة الفرنسية ونظامها الجمهوري ما نصه :

"الجمهورية مثل معدة مريضة : تهدر وتفرقع، مبادؤها تقوم على ترك الدين ومساواة الفقير بالغني" (10).

مما لاشك فيه أن مثل هذه الأخبار تزعج الحكام العثمانيين ولا سيما والدعاية لأفكار الثورة ولأهدافها تعرف انتشارا واسعا بواسطة مختلف البيانات والمنشورات التي ترجمت إلى الأرمينية والتركية واليونانية والعربية.

وقد عملت حكومة الثورة على إذاعة وإشاعة هذه المبادئ في كل الأرجاء. يقول صاحب الثغر الجماني عن هذه الثورة التي بلغت أخبارها وأهدافها ومبادؤها الإيالة الجزائرية.

(9) – خالد زيادة : تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا – مطبوعات دار الإنماء العربي – الدراسات الإسلامية – الطبعة الأولى – لبنان – 1983 – صفحة 84.

(10) – نفس المصدر السابق، صفحة 83.

"...ولقد قام في هذه السنة الجنس المعلوم بالفرنسيس على جميع علمائهم[11] فنفوهم من البلاد إلى بلاد الأصبنيول وغيرها، وقتلوا ملكهم وتركوا الناس فوضى لا ملك لهم، وخرج الأمر عن الضبط، وتغلب العوام فحملوا يوما على برج لهم عظيم، شديد التحصين بحيث لا يرام، فهدموه في أقرب مدة وتغلبوا على ملكهم، فبقي تحت قهرهم ... واتفقوا على أن لا يسود أحد أحدا بعلم ولا بميزة، وأن الناس كلهم سواء لا شريف ولا دنيء، ينادي بعضهم بعضا ياأخي ... وأخذوا الحق من الظالم، وأبطلوا جميع المكوس والوظائف السلطانية، وأخذوا جميع ما بأيدي علمائهم من الأحباس والأموال ... وقاموا قومة واحدة على من يعاديهم فأخذوا أكثر مايجاورهم من بلاد الإمبراطور. وإذا ظفروا ببلد قالوا لأهلها إنما قمنا بتخليصكم من الظلم فكونوا على مثل رأينا، فيسارع الرعايا إلى موافقتهم، وبعثوا إلى جميع أجناس النصارى يأذنونهم بالعداوة. وقد كان الملوك عزموا على أن يقوموا عنهم جميعا ليردعوهم عن سلطانهم، فلما رأوا فعلهم وتغلبهم على من حاربوه تقاعدوا عنهم، وصار كل يطلب أن يكفوا عنه وهم إلى الآن على ذلك يبلغنا العجب عن أخبارهم" [12].

لا يعقل، أن نجد معلومات وأخبار مفصلة ودقيقة عن هذه الثورة في كتابات وتقارير رجال الدولة والمفكرين في اسطنبول والإيالة الجزائرية المجاورة للمغرب، ولانكاد نجد لها أثرا ملحوظا في أهم الكتابات المغربية المعاصرة لهذا الحدث التاريخي الذي اهتزت له الأرض في مشارقها ومغربها.

إن عدم إكثرات الحكام المغاربة وذوي الفكر والقلم بهذه الثورة

(11) - يقصد بالعلماء هنا، رجال الدين والكنيسة بصفة عامة.

(12) - أحمد بن محمد بن علي بن سحنون (الراشدي - الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني - تحقيق وتعليق المهدي البو عبدلي منشورات وزارة التعليم الأصلي الجزائري - (ب ت) من صفحة 86 إلى 87).

وتطوراتها، لا يمكن تفسيره إلا لكونها لم تكن تشكل على المغرب خلال هذه الفترة خطورة ملحوظة. وهذا ما يفسر استمرارية العلاقات الطبيعية بين المغرب الملكي وحكومة الثورة الفرنسية. إلا أن موقف الحكام المغاربة سيطرأ عليه تغيير ملحوظ بعد احتلال بونابرت لمصر، البلد العربي الإسلامي الذي تربطه روابط تاريخية وحضارية وبشرية بالمغرب.

مولاي سليمان وبونابرت بعد احتلاله لمصر

يعد بونابرت روح الثورة الفرنسية. فهو الذي وطد دعائمها بصواعق الحرب، بعد أن فتح Mirabau أبوابها بصواعق فصاحته وخطبه [13].

في 3 يوليوز 1798 م، نزل بونابرت قائد جيش الثورة الفرنسية بالإسكندرية لاحتلال مصر والمشرق العربي، وهي أقاليم تابعة للإمبراطورية العثمانية.

غاية بونابرت من هذا الإحتلال قطع الطريق على إنجلترة التي تقف في وجه الثورة الفرنسية وتوسعها في أوروبا بدعمها للأنظمة الملكية والتحالف معها ضد فرنسا الثورة. إلا أن احتلال مصر والمشرق العربي من أجل تصفية الحساب مع إنجلترا شكل تحديا سافرا للإمبراطورية العثمانية، وأمس بشرعيتها وسلطتها على هذه الأقاليم التي تتعايش فيها شعوب وملل لكل منها معتقداته وديانته، فجاءت جيوش الثورة بقيادة بونابرت لتحرر هذه الشعوب من الاستبداد العثماني، ومن ظلم وتعسف حكامه وولاته على هذه الأقاليم التي يحكمها هؤلاء ويستغلونها باسم الإسلام والخلافة العثمانية.

بالنسبة للمغرب ولحكامه المسلمين، هذا الإحتلال لأرض عربية

(13) - أنظر بونابرت الأول - إلياس طنوس الحديك - دار ومكتبة الهلال - بيروت - 3 أجزاء - 1981.

إسلامية من قبل جيوش مسيحية، لا بد وأن يخلف لدى المغاربة حكاما وشعبا استياء عميقا.

فمصر تعد البلد العربي الإسلامي، القبلة، دينيا وحضاريا وبشريا. فالعلاقات المغربية، المصرية أخوية، ومصر تعد محطة للحجاج المغاربة، والفقهاء، والتجار. وعلى هذا الأساس استقرت جالية مغربية بهذا القطر الشقيق لطلب العلم، أو للتجارة. وبواسطة هذه الجالية المغربية ظلت العلاقات بين البلدين دائمة ومستمرة إلى اليوم [14].

وازداد اهتمام الحكام المغاربة بهذا الإحتلال الفرنسي لمصر أو المشرق العربي لما علموا أن بونابرت اعتمد على الأسرى المغاربة المتواجدين في مالطة، فاتخذ منهم مترجمين ومساعدين، ووسطاء للتفاهم مع الشعب المصري. وتقول بعض المصادر أن البيان الأول الذي وجهه بونابرت إلى المصريين من صياغة وتحرير بعض المغاربة الذين تعلموا اللغة الفرنسية خلال مقامهم بمالطة. يقول المؤرخ المصري عبد الرحمان الجبرتي المعاصر لهذا الحدث : "... وقد كانت الفرنسيس حين حلولهم بالإسكندرية كتبوا مرسوما وطبعوه وأرسلوا منه نسخا إلى البلاد التي يقدمون عليها تطمينا لهم.

ووصل هذا المكتوب مع مجموعة من الأسارى الذين وجدوهم بمالطة وحضروا بصحبتهم وحضر منهم جملة إلى بولاق، وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو بيومين ومعهم منه عدة نسخ وهم مغاربة ويعرفون باللغات" [15].

ومما جاء في أحد هذه البيانات التي وجهها بونابرت إلى المصريين :

(14) – عن العلاقات المغربية – أنظر كتاب : يونان لبيب رزق ومحمد مزين – تاريخ العلاقات المغربية – المصرية – دار النشر المغربية – الدار البيضاء – 1982

(15) – عبد الرحمن الجبرتي – عجائب الأثار في التراجم والأخبار – نقلا من كتاب : تاريخ العلاقات المغربية – المصرية – مزين – يونان المصدر السابق ذكره – صفحة 212.

"... ياشعوب مصر، سوف يقولون لكم إني قادم لإبادة ديانتكم، فلا تصدقونهم، بل قولوا لهم أني آت لأعيد إليكم حقوقكم، وأعاقب مختلسيها، وأنا أحترم الله ونبيه الكريم أكثر ما يحترمهما المماليك، قولوا لهم إن جميع البشر متساوون لديه تعالى، وإنه لا فرق بينهم إلا بالحكمة والمواهب العقلية والفضائل. وعليه بأي حكمة ومواهب عقلية وفضائل يمتاز بها المماليك حتى يتسنى لهم أن يتمتعوا بكل ما يجعل الحياة هنيئة وسعيدة.

"... فإذا كانوا يزعمون أن مصر ملك لهم فليبرزوا الصك الذي تسلموه من الله، ولكنه تعالى عادل ورحيم.

"أيها القضاة والشيوخ .. قولوا للشعب إنا أصدقاء مخلصون للمسلمين الحقيقيين. أولسنا نحن الذين أبدنا فرسان مالطة الأغرار وقد كانوا يعتقدون أن الباري عز وعلا يريد أن يشهر القتال على المسلمين" [16].

لا يمكن أن لا تسترعي هذه البيانات انتباه الحكام المغاربة لما تتضمنه من أفكار جديدة، وأسلوب خطابي مقنع. فالحكام المغاربة كانوا على علم دقيق بمراحل تواجد الجيوش الفرنسية في المشرق العربي. لقد نقل الخبر إلى المغرب، الحجاج المغاربة الذين صادفوا الجيوش الفرنسية في طريقهم من دمشق إلى القاهرة - يقول الضعيف : "... وفي يوم الإثنين 15 رجب 1213 هـ بلغ الخبر إلى فاس أن النصارى دمرهم الله قد أخذوا مصر. وهذا التاريخ يوافق 23 دسمبر 1798 أي أن الخبر وصل إلى المغرب بعد 4 أشهر تقريبا من احتلال مصر كما نجد عند نفس المؤرخ خبرا آخر مفاده أنه ورد على فاس يوم 22 رجب 1213 هـ "بعض الخيل من عند باي معسكر ومعهم كتاب باي الجزائر يعلمون بأن العثماني وجه النجدة لأخذ مصر" [17].

(16) - أهم البيانات التي وجهها بونابرت للمصريين ولجنوده في المشرق العربي أوردها إلياس طنوس الحديك، المصدر السابق. هذا البيان يوجد بصفحة 112 - 114.

(17) - الضعيف - نفس المصدر - صفة 312.

وسيهتم السلطان مولاي سليمان شخصيا بتحركات بونابرت لما بلغه أن مولاي مسلمة الذي غادر المغرب بعد خلعه، وأقام بالديار المصرية، قد اجتمع فيها ببونابرت ووقعت بينهما محادثات أظهر خلالها مولاي مسلمة إعجابه الكبير بهذا القائد الذي روى عنه مولاي مسلمة بأنه "... لا يحتوي بيته سوى على فراش منامه، وموضع جلوسه، وأمامه مائدة عليها دواة وقراطيس وأرائك للجلوس من تأثيثه لا غير" (18).

إلا أن أخبار احتلال مصر والمعلومات المتعلقة بتحركات الجيوش الفرنسية في المشرق العربي، وردت على السلطان مولاي سليمان بصفة رسمية وأكيدة وشاملة يوم 15 غشت 1798 م، أي بعد شهر ونصف من نزول القوات الفرنسية بالإسكندرية، ذلك أن السلطان سليم III وجه للعاهل المغربي رسالة في الموضوع جاء فيها : "... لقد حط نابليون بونابرت في الإسكندرية. وهو يخطط لاقتحام مكة والمدينة وبيت المقدس. ولهذا فقد أصبح واجبا في الدين على سائر المؤمنين سواء أكانوا في المشرق أو الغرب، وسواء أكانوا عربا أو عجما أن يوحدوا صفوفهم لمناهضة هذا الكافر. وإن الأمل معقود عليكم أيها السيد العظيم لتدافعوا من أجل حماية حوزة المسلمين" (19).

وفي 27 يناير 1799 م، يوجه السلطان سليم III رسالة أخرى إلى العاهل مولاي سليمان يحيطه علما بما يقترفه المحتلون من فضائح ويرتكبونه من جرائم في حق العلماء، والرؤساء والهيئات العلمية، وأنه عين القائد الحاج أحمد باشا الجزار لمناهضة الفرنسيين المحتلين، ويعلمه كذلك بأن العثمانيين تحالفوا مع الإنجليز لمحاربة فرنسا فيطلب من العاهل المغربي

(18) – الاتحاف – الجزء الرابع – صفحة 354.

(19) – نص الرسالة في كتاب : عبد الهادي التازي – تاريخ المغرب الدبلوماسي – الجزء التاسع – الدولة العلوية – مطبعة فضالة – المحمدية – 1988 – صفحة 43 و44.

تقديم كل المساعدات لهذه الدولة الإنجليزية لنقل إلى جبل كل ما تحتاج إليه من المغرب حتى تخليص الديار المصرية من هذا الاحتلال [20].

في هذا الظرف يأتي دور السفير ابن عثمان المكناسي ليوظف تجربته وخبرته ومعرفته بالشؤون الأوروبية لخدمة بلاده دبلوماسيا وسياسيا. يتذكر ابن عثمان أن سيدي محمد بن عبد الله قد سبق له أن نصح كارلوس الرابع، ملك إسبانيا بأن يلتزم الحياد في الحرب التي دارت رحاها بين الإنجليز وفرنسا في رسالة موجهة إلى العاهل الإسباني جاء فيها :

"... لقد طرق سمعنا أن الإنجليز والافرنصيص جعلوا الكرة بينهما وأنت نريدك أن لا تدخل معهم في تلك الكرة ولا تتكلم معهم في شأنها لأنك لا مصلحة لك في الدخول معهم فيها ولا الكلام في شأنها" [21].

ويجد مولاي سليمان نفسه في نفس الموقف. السلطان العثماني يلتمس منه الوقوف بجانبه وقد دخل في تحالف ضد الفرنسيين مع مجموعة من الدول الأوروبية الأخرى، بينما بقيت إسبانيا في الحياد مع تعاطف كبير تجاه فرنسا مادامت جيوش الثورة لا تهدد الملكية الإسبانية. في هذا الظرف يفكر مولاي سليمان في دعم روابطه مع إسبانيا، والتظاهر لفرنسا الثورة بالحياد وتقبل بعض مبادئ الثورة.

في هذا السياق يبرم المغرب وإسبانيا معاهدة فاتح مارس 1799 م الموقعة من طرف ابن عثمان عن المغرب، وجوان سلمون عن الجانب الإسباني. لم تجد هذه المعاهدة استحسانا من طرف إنجلترة ولا حتى من طرف الدولة العثمانية.

فالدولتان المتحالفتان ضد فرنسا تنتظران موقفا أكثر فعالية من

(20) - نفس المصدر - عبد الهادي التازي صفحة 123.

(21) - نفس المصدر - عبد الهادي التازي صفحة 123.

المغرب وإسبانيا. إلا أن حكومة الثورة الفرنسية صفقت لهذه المعاهدة المغربية - الإسبانية "واعتبرتها خطوة جديدة في سبيل التقدم والحضارة على أساس أن هذه المعاهدة نصت ولأول مرة، على احترام الجانبين المغربي - والإسباني لمبادئ نادت بها الثورة الفرنسية. وقد جاء التنويه بهذه المعاهدة في جريدة حكومة الثورة والناطقة باسمها : المدرب : Le Moniteur حيث جاء فيه : "... إن مبادئ الحقوق الدولية المقدسة قد انتقلت من كتب الفلاسفة إلى دواوين الممالك المغربية.

وصارت هذه المبادئ تهيمن على أعمالهم. فلم تبق الخلافات الدينية بين الشعوب تقف حجر عثرة في سبيل التقارب بينها، وأن نفس أولائك المسلمين الذين كانوا لا يقبلون من الكفار إلا الخضوع أو السيف، صرنا لا نسمع منهم اليوم إلا ألفاظ الصداقة والتفاهم والإنسجام. وباختصار فإن امبراطور المغرب يكتب أنه يتمنى أن لفظة الاسترقاق البغيضة تزول من ذاكرة البشر ويوقع على هذا باسمه كما ورد في الفصل الثالث عشر" [22].

من الواضح أن ما نشرته الجريدة الفرنسية الناطقة باسم حكومة الثورة من تنويه بالمغرب يقصد به الدعاية لمبادئ الثورة التي بدأ يتقبلها أكثر الملوك المسلمين تشددا، وفي طليعتهم سلطان المغرب.

لقد كان على مولاي سليمان بحكم الظرفية التاريخية والملابسات السياسية الأوروبية أن يتظاهر لفرنسا الثورة بالحياد تجاه أهدافها التوسعية وبقبول وتقبل بعض المبادئ التي نادت بها.

وغير خاف أن هذه المعاهدة أقلقت بعض الفقهاء المغاربة لما تضمنته من بنود فيها مساس صريح بأحكام الشريعة الإسلامية [23]. ولعل من

---

(22) - جريدة Le Moniteur - السنة الثامنة - صفحة 61- أنظر ابن زيدان - الجزء الرابع - صفحة 162- وكذلك كتاب الاكسير - ابن عثمان - تحقيق محمد الفاسي - صفحة من المقدمة).

(23) - أنظر مايقوله امحمد بن عبود عن هذا الجانب من كتابه : "مركز الأجانب في مراكش - دراسة قانونية لوضعية الأجانب في المغرب قبل عهد الحماية وخلاله. الطبعة الثانية - تطوان - 1980 - صفحة 44.

المعارضين لها في ذلك الوقت الفقيه والمؤرخ الزياني بحكم مواقفه الدينية، وارتباطاته الوطيدة بالدولة العثمانية، وبحكم عدائه لمنافسه في الفكر والقلم والسياسة والدبلوماسية محمد بن عثمان المكناسي المعروف بعلاقاته الوطيدة بإسبانيا وتفتحه للغرب، وصانع هذه المعاهدة.

إلا أنه من الناحية العملية، لعبت هذه المعاهدة دورا إيجابيا في تطبيع العلاقات المغربية - الفرنسية. ومما يدل على ذلك، القرار الصادر بتاريخ 28 مارس 1799 م من حكومة الثورة والذي ينص على وجوب إعادة البضائع المغربية للمغرب، وتعويض التجار المغاربة الذين استحوذت على تجارتهم ومراكبهم الباخرة الفرنسية Le Barret . ومن المعلوم أن مولاي سليمان سبق له أن وجه إلى باريس، في شأن هذه الباخرة الفرنسية المعتدية السفير الحاج عبد الرحمان بن زاكور للتباحث في هذا الموضوع مع الحكومة الفرنسية وكان يرافقه أحد التجار المتضررين الحاج محمد بن صالح من تجار آسفي المرموقين [24].

إن قرارا مثل هذا لا يمكن اعتباره سوى إلتفاتة سياسية كجواب على موقف المغرب. وقد صدر في أقل من شهر بعد توقيع الاتفاقية المغربية - الإسبانية. وتأكد حسن العلاقات بين المغرب وفرنسا في التقرير الذي وجهه القنصل الفرنسي بالصويرة Broussonet عندما استقبله السلطان مولاي سليمان استقبالا متميزا بهذه المدينة في مايو 1799.

فقد قال القنصل بأن السلطان أولاه عناية خاصة بالمقارنة مع غيره، وهذا يدل، حسب أقوال القنصل "بأن الدعاية الإنجليزية والمحاولات الرامية

---

(24) - J. Caillé - le vice - consul Broussonet et ses " Mémoires" sur le Maroc Hespéris Tamuda, 1961, vol II, Fascé.1, pp. 5-42.

أنظر كذلك : عبد العزيز عبد الله - المصدر السابق - صفحة 23.

لتعكير صفو العلاقات المغربية - الفرنسية من طرف انجلترة لم تحظ لدى السلطان بتأثير كبير"(24).

وتنتهي حملة نابليون على مصر بانتصار كل من الإنجليز والدولة العثمانية على فرنسا وجيوشها وتوقيع وثيقة الإستسلام في غشت 1801 م وبهذا الإنتصار تستعيد الدولة العثمانية نفوذها في المشرق العربي وفي كل من تونس وطرابلس والجزائر. كما تستعيد انجلترة هيمنتها وسيطرتها البحرية في المتوسط، وتظل الدولة القوية التي تقف في وجه الثورة الفرنسية وحكامها وأهدافها التوسعية.

إلا أن طموحات بونابرت التوسعية، وحبه المفرط للسلطة والهيمنة، لم تنل منها هزيمة جيوشه في مصر. لقد عاد إلى باريس ليستغل الظروف المضطربة التي أصبحت عليها البلاد الممزقة والمفككة بسبب الخلافات التي نتجت عن الصراع من أجل الحكم بين مختلف التيارات التي أفرزتها الثورة المضادة. وبالتحايل، والمكر، والمشروعية، ينتهي به المطاف إلى أن يتوج نفسه "امبراطورا، لفرنسا، وماكان لأحد من ملوك أوروبا أن ينازعه هذا اللقب في هذا الظرف.

مولاي سليمان والإمبراطور نابليون بونابرت

ظلت النمسا وانجلترة تنازلان فرنسا في ميدان القتال وتقفان في وجه طموحاتها التوسعية. وما أن أصبح بونابرت يرأس الحكومة الجديدة بصفته القنصل الأول فيها حتى شرع في نهج سياسة ترمي إلى تطويق إنجلترة لإضعافها عسكريا واقتصاديا. وضمن هذا المخطط يبرم معاهدة صلح مع حليفتها النمسا - صلح Luniville في فبراير 1801 م، ليحرم إنجلترة من

(24) - J- Caillé - le vice - consul Broussonet et ses mémoires sur le Maroc Hespéris TAMUDA 1961, vol II, Fascé 1, pp. 5-42.

نظر كذلك : عبد العزيز عبد الله - المصدر السابق - صفحة 23.

حليف قوي وعنيد. ومع ذلك، إقتنع بونابرت كل الإقتناع بأن انهيار إنجلترة لن يتأتى إلا بمحاصرتها بحريا وتطويقها اقتصاديا وسياسيا وعسكريا بالسيطرة على كل الأبواب والممرات التي تتحكم في هذه الجزيرة. وهذه الخطة أطلق عليها "الحصار القاري".

إلا أن هذا الحصار القاري لن يكون مجديا وفعالا إلا إذا ساهمت فيه كل الدول التي لها مع إنجلترة صلات بحرية وتأتي في طليعة هذه الدول، المغرب، الذي يتحكم بدوره في مضيق جبل طارق والذي يعد بالنسبة لإنجلترة إحدى رئتيها.

وقد عملت على السيطرة على هذا الصخر بمعاهدة أوترخت الموقعة بينها وبين إسبانيا في يوليوز 1713، نظرا لما يشكله من تهديد على الجزيرة الإبريطانية فيما إذا تحكمت فيه قوى معادية. وما أن علمت إنجلترة بمخططات بونابرت حتى وجه كاتب الدولة في الداخلية وشؤون المغرب، بتاريخ 18 يوليوز 1801 م، مذكرة إلى القنصل الإنجليزي بطنجة جاء فيها :

"... إن هناك ما يحمل على الإعتقاد بأن الفرنسيين يفكرون في بعض المشاريع العدوانية تجاه بلدان شمال إفريقيا بأمل أن يكسبهم ذلك قوة إضافية تمكنهم من بلوغ هدفهم المتمثل في غزو مصر (...) وعند إبلاغ سلطان المغرب بخطورة هذه الأطماع عليك انتهاز هذه الفرصة لفضح سياسة المخادعة والتحايل المتبعة من طرف الفرنسيين وتقوية مكانتنا لديه بإبراز سلوك حكومة صاحب الجلالة تجاه حلفائها عندما حررت مصر وأرجعتها إلى حكامها الشرعيين" [25].

يتضح من هذه الرسالة أن مخططات بونابرت ترمي إلى احتلال دول

---

(25) – فاطمة الحراق – "المساعي المغربية من أجل استرجاع سبتة" – مجلة البحث العلمي – المغربية – عدد 29 – 30 – 1979 – صفحة 312.

شمال افريقيا وفي طليعتها المغرب، وكذلك مصر والمشرق العربي كحلقة من حلقات الحصار القاري.

وفعلا، توجه الحكومة الفرنسية في يونيوه 1803 م الجاسوس علي باي العباسي للتعرف على البلاد المغربية وللاتصال بذوي الرأي والكلمة فيها، ولأخذ كل المعلومات المتعلقة بتضاريسها وتحصيناتها العسكرية. وقد تمكن من كسب عطف السلطان مولاي سليمان الذي قربه إليه ومنحه ثقته.

وهذا ما سهل على هذا الجاسوس توغله في كل الأوساط المغربية حاضرتها وباديتها، فأخذ ينشر فيها أفكار الثورة الفرنسية، وأعمال بونابرت في مصر، وضرورة إقرار دستور للبلاد لتحديد السلطة بين الحكام والمحكومين. وقد استطاعت دعاية علي باي العباسي أن تجد لدى بعض المتنورين المغاربة استحسانا وقبولا [25].

وكما فعله في المغرب، فقد وجه بونابرت كذلك إلى مصر وسوريا الكولونيل Sebstiani في مهمة سرية لا تبتعد من حيث الهدف والشكل عن مهمة علي باي العباسي. وهذا يدل كل الدلالة أن أطماع بونابرت التوسعية باحتلاله لشمال افريقيا ومصر ظلت حية في أعماقه منذ انهزام جيوشه بأرض الكنانة.

من المعلومات التي ترد على الحكام المغاربة من مصادر موثوق بها، ومن اكتشاف دور الجاسوس علي باي العباسي الذي أدى به نشاطه السري إلى طرده من المغرب، ومن تصرفات بعض القبائل وزعمائها، تيقن المغاربة أن بونابرت وجه عنايته لاحتلال المغرب وأخذت أطماعه التوسعية والاحتلالية تشكل تهديدا على البلاد والعباد.

---

(25) - أنظر بخصوص هذه النقطة - ابراهيم حركات - المغرب عبر التاريخ - الجزء III - صفحة 168.
أنظر كذلك : J. L. Miège, le Maroc et l'Europe, T III, P. 19.

ويتوجه مولاي سليمان إلى طنجة، العاصمة الدبلوماسية للمغرب لدراسة الأوضاع الخارجية في عين المكان. ويبادر وهو في هذه المدينة إلى إيجاد تسوية عاجلة للصراع الذي طال بين الأسطول المغربي والأسطول الأمريكي بتوقيع معاهدة صلح في 12 أكتوبر 1803 مع أمريكا (26).

كما يجري مباحثات مع القنصل الإنجليزي MATRA حول طموحات بونابرت، والعلاقات المغربية - الإنجليزية وضرورة توطيدها في هذه المرحلة. ولقد أبان السلطان مولاي سليمان عن استعداده للتفاهم مع إنجلترة فيما إذا التزمت هذه الأخيرة بحماية المغرب من خطر وتهديدات فرنسا التوسعية. وتزداد مخاوف مولاي سليمان عندما بلغه أن بونابرت توج نفسه يوم 18 مايو 1804 م امبراطورا لفرنسا. ويريد أن يحقق مايدعم به هذا التتويج، فتهاجم جيوشه الأسطول البحري الإنجليزي بجرف Trafalgar في يوم 21 أكتوبر 1805. فتكون للإمبراطور نابليون بونابرت أول هزيمة نكراء في عهده الجديد يتلقاها من الأميرال Nelson.

هذه الهزيمة تفقده السيطرة على البحار، ويعود لمخططه ثانية وهو الحصار القاري والتوسع في أوروبا عبر البر.

وفي سياق هذا المخطط، يحتل نابليون هولندة في مايو 1806 م، وينصب أخاه جوزيف على نابولي الإيطالية في مارس 1806 م، ويتابع سياسته الاحتلالية والتوسعية في البلدان الأوربية. وضمن هذا التوجه، يوجه Talleyrand وزير الشؤون الخارجية للإمبراطور الفرنسي رسالة إلى السيد محمد بن عبد السلام السلاوي، نظيره المغربي في طنجة، يحيطه فيها علما بانتصارات نابليون، وبعزمه الأكيد على احتلال مدينة سبتة "... ومن

(26) - حول هذا الموضوع مصدران مهمان :
المنوني : مظاهر يقظة المغرب الحديث - الجزء الأول، صفحة 15 الهامش (2).
وكذلك : مذكرات أسير الداي كاثكارت - قنصل أمريكا في المغرب ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1982 - صفحة 287 - 288.

الأفيد للمغرب أن ينحاز إلى جانب فرنسا ويفضل صداقتها على صداقة الإنجليز" [28].

هذا الاقتراح الفرنسي يعتمد على مايعرفه الفرنسيون من حرص شديد للمغاربة على تحرير مدينتهم السليبة. وما تشكله هذه القضية من أهمية سياسية ووطنية لدى الحكام المغاربة. كما يعرف الفرنسيون والإسبان والإنجليز مدى تعلق المغاربة، حكاما وشعبا، بهذا التحرير واستعدادهم لتقديم أجسم التضحيات من أجله. ولهذا فسيستغلون هذا المطمح الوطني أبشع استغلال وتظل سبتة والجنوب المحتلة من أرض الوطن ورقة مساومة وموضوع نزاع دائم مع هذه الدول الأوروبية المتنافسة على المغرب.

ويجد مولاي سليمان نفسه بين مد الإنجليز وجزر الفرنسيس. وبما أن للضرورة أحكام، وفي مجال السياسة أكثر، يرى العاهل المغربي أن المصلحة العليا تحتم عليه التقرب من هذا الإمبراطور حتى وإن كان لا يرغب في ذلك. فالقنصل الفرنسي في طنجة D'ORNANO عمل مافي وسعه على إقناع الحكام المغاربة بوجوب التقرب من فرنسا الأمبراطورية على حساب إنجلترة "المنهارة". ويأتي الظرف المناسب ليقوم مولاي سليمان بهذه الخطوة الدبلوماسية التي تفرضها الظرفية التاريخية.

في مايو 1807 م يوجه العاهل المغربي السفير الحاج ادريس الرامي إلى فرنسا، فيستقبل من لدن الإمبراطور نابليون يوم 6 شتنبر 1807 في حفل بهيج لا يخلو من عظمة وتكريم، ويلقي الحاج ادريس الرامي خطاب العاهل المغربي الذي جاء فيه :

"... إلى السلطان الشهير المعظم الملك نابليون الأول امبراطور الفرانصيص وراي إطاليا ... أما بعد، فإن قنصوكم النجيب D'OR-NANO القاطن بإيالتنا المحروسة أنهى إلينا ماصدر لكم من الوقائع

(28) ملخص الرسالة في مقال فاطمة الحراق - المصدر السابق صفحة 309 - 323.

والحروب مع عدوكم من أجناس النصارى إلى أن أعقبكم الظفر بهم مالم يحصل مثله لغيركم من ملوك الأجناس. فعليه وجهنا لكم سفيرنا وخديمنا الأمين الحاج ادريس الرامي مهنيا لكم بانتظام شمل مملكتكم وظفركم بعدوكم، وليعرفكم أيضا بما لكم عندنا من المكانة التي لم يدركها غيركم. وإننا معكم على المحبة القديمة والمودة السالفة تابع في ذلك أثر سيدنا الوالد طيب الله ثراه [29].

هذه السفارة كانت مجرد تحرك دبلوماسي، غير أن العاهل المغربي يعرف أن الإنجليز سيتضايقون منها. وللحصول منهم على بعض الامتيازات يبعث من مراكش بتاريخ 5 يونيوه 1807 م خطابا إلى القنصل الإنجليزي Grenn الذي حل محل MATRA بطنجة. في هذا الخطاب يقترح مولاي سليمان على الحكام الإنجليز احتلال مدينة سبتة وإعادتها للمغرب مقابل منحها كل التسهيلات التجارية في المغرب وامتيازات خاصة [30].

طبعا، يأتي تقديم هذه المقترحات من طرف المغرب لإنجلترة في وقت مازال يوجد فيه السفير الحاج ادريس الرامي بباريس، وفي وقت يحقق فيه نابليون بونابرت انتصارات سياسية في أوروبا ومن أهمها إبرامه مع روسيا القيصرية في 7 يوليوز 1807 م معاهدة Tilsit .

هذه المعاهدة تمكن نابليون من تشديد قبضته على دول أوروبا الوسطى من جهة، وتقريب روسيا القيصرية التي سبق لها أن تحالفت مع الدولة العثمانية وانجلترة لمحاربة فرنسا الثورة بعد احتلال بونابرت لمصر.

---

(29) - نص الرسالة في كتاب : عبد الهادي التازي - تاريخ المغرب الدبلوماسي الجزء التاسع - صفحة 100.

عن سفارة الحاج ادريس الرامي : J. Caillé - L'Ambassade d'El Hadj Drissi Rami, Herp, Vol, I, 1960, P. 62.

(30) - أنظر في الموضوع : يونان كليب - المصدر السابق، صفحة 176.

لهذه المعاهدة انعكاسات كذلك على المغرب لكونها نصت في أحد بنودها على تعاون الدولتين من أجل تحرير كل الشعوب الأوروبية الخاضعة للخلافة العثمانية الإسلامية.

وإذا كان هذا الهدف لا يشكل خطورة على المغرب الإسلامي بحكمه غير خاضع للخلافة العثمانية وبعيد كل البعد عن مناطق نفوذها، فإن احتلال جيوش نابليون للبرتغال ونفي ملك هذه الدولة في نوفمبر 1807 م، وكذا احتلال نفس الجيوش للعاصمة الإسبانية مدريد في مارس 1808 م وإلقاء القبض على ملكها، وهذه الانتصارات التي تحققها الجيوش الفرنسية في مناطق مجاورة للمغرب، لا بد وأن تدفع بالحكام المغاربة إلى التخوف والحذر والحيطة من هذا الزحف الاحتلالي الفرنسي.

هذه التحركات والانتصارات للجيوش الفرنسية لم تكن غائبة على المغاربة حكاما وشعبا. فالمؤرخ الضعيف المعاصر لهذه الأحداث يقول :

"... وفي هذه السنة (1223)، قوي نفوذ سلطان الفرنسي وهو نابليون بنابرطي، وقهر أجناس النصارى وغلبهم، ولا بقي مخالفا عليه إلا اللنغليز، وأراد الخروج للمغرب وأتى بأجناس النصارى للبوغاز وإلى طريف والجزيرات...وفي أوائل محرم 1223 هـ شاع وذاع بأن النصارى دمرهم الله خارجين للمغرب، وأخذ الناس في الاستعداد للجهاد ومن جميع جهات المغرب كأهل فاس، وتطوان وسلا وغير ذلك (...) وفي يوم الثلاثاء 13 صفر من العام المذكور[31]، ورد كتاب السلطان من مراكش يحذر أهل سلا وأهل الرباط من بني الأصفر ... وكان عيد المولد عام 1223 هـ يوم الأربعاء .. وفي هذا اليوم كانت على ساحل الرباط نحو الأربعين ألفا من القبائل

(31) - 13 صفر 1223 يوافق مارس 1808- أبريل 1808 أي شهر بعد احتلال بونابرت لمدينة مدريد الإسبانية.

الشـاويـة، وعـرب الويدان ووورديغـة وقطع أهل سـلا مـحـزمين وكـان مـيـز كبير"[32].

يتـضح من هذا النص أن المغـاربة كـانوا على أتم الاستـعداد لمواجهـة جيـوش نابليـون الغـازية. وبما أن إسـبانيـا أصـبحت تحت نفـوذ فـرنسـا، فـإن مدينة سبتـة المغربيـة تصبح بدورها خاضعـة لهذا النفوذ حتى وإن لم تحتل بعد، من طرف الجيوش الفرنسيـة التي شغلتـها مواجهة المقاومـة الشعبيـة في كل من إسبانيا والبرتغال لمحاربة الاحتلال الفرنسي.

من الطبيعي أن يساهم المغرب في دعم هذه المقاومة الشعبية الإسبانية والبرتغاليـة بتقديمه المساعـدات لإنجلترة التي تدعـم حركـة الثـوار وتمدهم بالمال والعتـاد، وهذا الموقف المغربي مـا كـان ليـرضي الفـرنسيس فـي الوقت الذي ارتاحت له إنجلترة واسبانيا والبرتغال.

ومرة أخرى يرى السلطان مولاي سليمان أن الظروف الجهوية السياسية منهـا والعسكرية، مـواتيـة ليـقوم المغرب بالتحركات المفروضة من أجل تحرير سبتـة وقـد استـولى الإنجليـز في مـارس 1808 م على جزيرة المعـدنوس التي تتـحكم في طريق سبـتـة بحريا. وقـد قـام الإنجليز بهـذه العـمليـة الاحتـلاليـة لحـمـاية المدينة من الاحـتـلال الفـرنسي لهـا، وليـبـقى سكانهـا الإسبـان غـيـر خـاضعين للحكم الفـرنسي. بينمـا رأى المغـاربة في هـذا التـواجـد الإنجليـزي بجزيرة المعدنوس، خطوة عـسكرية تمكن المغـاربة مـن استـرجـاع سبـتـة عن طريق البر إذ توجـد سبـتـة ضـمن التـراب الوطني المغـربي، فـيـرد الإنجليـز كل تحرك فرنسي من البر.

من هذا المفهوم لهذه الأحداث يوجه السيد السلاوي مذكرة إلى القنصل الإنجليـزي يوم 24 أبريل 1808 م في شـأن مـوقف بلاده من عـودة المدينة السليبة إلى أرض الوطن. وجاء في هذه المذكرة.

---

(32) – الضعيف – المصدر السابق – صفحة 344.

"... واعلم إذا ظهر منكم الحصار في البحر، فإن محلتنا تصبح رابطة في البر تحاربهم، وإذا أردتم نزول محلة عندنا فهي من جملة محلتنا ... وإذا لم تقدروا إلا على حرب البحر فنحن نكفوكم بحول الله حرب البر. وإذا لم يقع عليها الحصار اليوم الذين هم مشطوطون (كذا) مع الفرنسيس فمتى يقع ؟" [33].

يعتقد الحكام المغاربة أن الإنجليز سيحاصرون مدينة سبتة ليتمكنوا من تحريرها في الوقت الذي يكون الإسبان "مشطوطين" مع الفرنسيس. وهذه من سوء تقديراتهم كما سيتضح فيما بعد.

فبمساعدة المغرب وإنجلترة للمقاومة الشعبية الإسبانية والبرتغالية يتم طرد الغزاة الفرنسيس من إسبانيا بانهزام جيوش الجنرال Dupant في يوليوز 1808 م، ومن البرتغال بانهزام جيوش Ju Not في غشت 1808 م.

لم يكن خاف علي الفرنسيس دور المغرب في هذا الإنهزام بما قدمه من مساعدات للثوار ولإنجلترة. ولهذا يوجه الإمبراطور بونابرت مبعوثه القبطان Burel في مهمة لدى العاهل المغربي مرفوقا بممثل فرنسا الدائم في طنجة السيد D'ornano. ويستقبل المبعوث الفرنسي وحاشيته بفاس يوم 13 غشت 1808 من طرف مولاي سليمان استقبالا باردا. فالمبعوث جاء ليذكر الحكام المغاربة بأن احتلال انجلترة لجزيرة المعدنوس تعتبره الإمبراطورية الفرنسية تهديدا خطيرا ومباشرا على مجالها الحيوي في المنطقة.

كما حذر الحكام المغاربة من نوايا السياسة الإنجليزية التي تسعى إلى الهيمنة على المتوسط لضمان سيطرتها على البحار والتحكم في الطرق التجارية البحرية.

رأى المغاربة أن هذه الزيارة بأسلوبها وشكلها وتهديداتها لم تحترم

(33) - فاطمة الحراق - المصدر السابق - صفحة 318 - 319 مشطوطون مع الفرنسين يعني بذلك إنشغال الإسبان بتحرير بلادهم من السيطرة الفرنسية.

الأعراف الدبلوماسية ولا التقاليد المغربية المألوفة والمتبعة في الإمبراطورية الشريفة، ولهذا فلم يقيموا لها وزنا ولم يعيروها سوى الأهمية التي تستحق.

في الواقع كانت مهمة Burel مزدوجة الأهداف. فالجانب الدبلوماسي والسياسي شكل الهدف الظاهر منها، إلا أن الجانب الخفي من المهمة تمثل في دراسة الأوضاع المغربية والإطلاع على التحصينات والتضاريس المغربية من طرفه وحاشيته من أجل تحضير مخطط لاحتلال المغرب عندما تدعو الضرورة إلى ذلك. لقد كانت مهمة Burel شبيهة بتلك التي قام بها BAUTIN الذي وجهه إلى الجزائر في نفس الشهر ونفس السنة للقيام بنفس المهمة [34].

أمام تزايد الضغوط الفرنسية على المغرب، يتوجه مولاي سليمان نحو انجلترة من أجل تحديد موقفها تجاه المغرب بصفة صريحة. لقد لاحظ الحكام المغاربة أن سلوك الإنجليز تجاه بلادهم بدأ يطرأ عليه نوع من الفتور منذ أن تحررت إسبانيا والبرتغال من السيطرة الفرنسية واستعادت شعوبها المسيحية حريتها الدينية والسياسية.

وضمن هذا السياق، يوجه النائب السلطاني السلاوي بتاريخ 16 فبراير 1810 م مذكرة إلى الحكومة الإنجليزية جاء فيها : "... إننا لا نفهم الأسباب التي جعلت حكومتكم تهمل قضية سبتة. فإن كنتم تنوون الاستيلاء عليها بالخير أو الشر فلا تضيعوا وقتا من أجل ذلك، وإن لم يكن لكم بها غرض فأخبرونا بذلك حتى ننظر في الأمر بأنفسنا" [35].

من هذه المذكرة يتضح ويفهم أن المغاربة عازمون على تحرير سبتة.

(34) - أحمد العماري - "المغرب في سياق التوسع الكولونيالي" أشغال ندوة الجامعة الصيفية - المحمدية - يوليوز 1987 - صفحة 108.

(35) - فاطمة الحراق - المصدر السابق - صفحة 321.

وعلى إثر ذلك تبادر انجلترة بعد مشاورة إسبانيا والتفاهم معها بإنزال وحدات عسكرية بالمدينة المغربية السليبة لتعزيز التواجد الإسباني بها وحمايتها من كل محاولة لتحريرها من طرف المغرب. ويريد المغاربة استفسار الإنجليز حول هذا الإحتلال وأبعاده، فيوجهون إليهم في 20 مارس 1810 الخطاب التالي :

"... إذا وقف لكم عار الصبنيول (كذا) ولم تريدوا إحداث عيب معهم فادخلوا في الخير بيننا وبينهم يخرجون منها ويمكنوها لسيدنا نصره الله" (36).

فطن المغاربة بنوايا إنجلترة تجاه المغرب وعطفها الأكيد تجاه الإسبان الدولة المسيحية مثلها. فالدول الأوروبية وإن اختلفت فيما بينهما مرحليا - فإنها لن تذهب إلى حد تمكين دولة إسلامية من امتيازات سياسية أو ترابية على حساب دولة أوروبية مسيحية.

وتتوضح السياسة الأوروبية بشكل واضح بعد انهزام نابليون وانهيار امبراطوريته في معركة Waterloo سنة 1815 م، إن هذه الهزيمة هي في حد ذاتها بداية النهاية لعهد الثورة الفرنسية التي كان يجسدها بونابرت حتى وإن تخلى عن مبادئها الأساسية بمجرد توليه الحكم.

وتعود الدول الأوروبية لترتيب البيت الأوروبي في مؤتمرVIENNE الذي عقد في يوليوز 1815 م. من بين مقررات هذا المؤتمر الأساسية، عودة الحدود الأوروبية إلى ما كانت عليه قبل الثورة الفرنسية. وهكذا تستعيد فرنسا نظامها الملكي، وإسبانيا ملكها الشرعي الذي تم عزله ونفيه وسجنه، ويعود نظام الحكم في أوروبا من نظام الجمهورية إلى النظام الملكي.

بطبيعة الحال فهذا التحول لا بد وأن يدخل على السلطان مولاي

(36) - نفس المصدر - نفس الصفحة مع التنبيه إلى الهوامش التي تعطي توضيحات إضافية عن هذه الرسالة.

سليمان نوعا من الارتياح. ويعبر عن ذلك وعن مشاعره تجاه ما كان يكنه للإمبراطور بونابرت في الرسالة التي وجهها العاهل المغربي إلى ملك إسبانيا الذي استعاد عرشه.

جاء في هذا الخطاب :

"لقد بلغنا أن الله تعالى رد عليكم مملكتكم وأهلك عدوكم وقواكم عليهم ... بعد أن كنتم في وثاقهم وأسرهم وأراحكم من تعب ذلك الغدار ... فهنيئا لكم بالرجوع لأوطانكم والعود لكرسي مملكتكم وسلطانكم ... أبقاكم الله في رعيتكم آمنين وقطع دابر الذين ظلموا ...".

خلاصة :

إن مقارنة هذا الخطاب مضمونا وأسلوبا بالخطاب الذي سبق أن وجهه مولاي سليمان إلى الإمبراطور نابليون توضح جليا مشاعر العاهل المغربي تجاه ذلك الرجل الذي غير معالم السياسة والجغرافية في أوروبا والمشرق العربي.

وقد عرف مولاي سليمان كيف يتعامل مع الرؤساء والحكام الذين لعبوا دورا مهما في السياسة الدولية في عصره من أمثال بونابرت وسليم III والحكام الإنجليز.

لقد تقلد مولاي سليمان عرش أسلافه في ظرف دقيق وحاسم وطنيا ودوليا وجهويا. كان عليه أن يواجه وطنيا منافسين له من الأسرة الشريفة، ومنافسين آخرين خرجوا من الصفوف الشعبية ومدعمين من قبل الزوايا والطرق الدينية والحركات الجهادية. كما كان عليه خلال حكمه الطويل والعويص التصدي لتحالفات سياسية فريدة من نوعها في تاريخ المغرب كالتي قامت بين أعيان فاس ونخبتها الواعية، وأعيان الأمازيغ لضرب إمارة المسلمين وشرعيتها.

أما خارجيا، فقد واجه بكل حزم وذكاء الثورة الفرنسية بمبادئها وأهدافها التوسعية. كما أحسن توظيف الحركة الوهابية لصالحه ولفائدة حكمه بجعلها حركة دينية تبناها الحكم من أجل القضاء على باقي الحركات الدينية التي تريد الاعتماد على الدين لإضفاء الشرعية على مطالبها.

وأخيرا تعامل هذا العاهل المغربي بكل حكمة وتعقل مع تيارات سياسية تصارعت فيما بينها داخل السلطة الحاكمة وكان يمثلها كلا من الزياني ذي النزعة العربية - الإسلامية، وابن عثمان المكناسي ذي النزعة الغربية والتفتح على العالم المسيحي، فاستطاع بحكمته التوفيق بينها من أجل مصلحة البلاد العليا.

ويمكن القول بأن التحديات المختلفة التي واجهت العاهل مولاي سليمان خلال فترة حكمه وقبلها، مكنته من اكتساب تجربة غنية في مجال ممارسة السلطة وتوجيه السياسة الخارجية في ظرف بدأت تتوضح فيه المذاهب السياسية الأوروبية والأفكار التوسعية ومفهوم الدفاع عن المجال الحيوي.

وقد وضع مولاي سليمان بحكم هذه التجارب، وبحكم ثقافته الواسعة واعتماده على مساعدين أكفاء ومقتدرين من أمثال الزياني، والمكناسي، وأكنسوس، وضع اللبنات الأولى والمرتكزات المرجعية لأسلوب الحكم المخزني الشريفي، بحكم البلاد وطنيا وخارجيا.

إن إصدق شهادة في حق هذا العاهل العالم هي التي قالها فيه وزيره، وصديقه وأستاذه الفقيه والمؤرخ والكاتب الزياني الذي قال عنه :

"... ولا يعرف مقدار هذا السلطان إلا من تغرب عن الأوطان، وحمل عصا التسيار، ورمت به في الأقطار الأسفار وشاهد سيرة الملوك في العباد، وماعمت به البلوى في سائر البلاد، ولا يتحقق أهل المغرب بعدله، إلا بعد مغيبه وفقده"

جوانب من الأوضاع السياسية والإجتماعية بالمغرب خلال عهد السلطان مولاي سليمان

د. عبد اللطيف حسني
كلية التربية/ الرباط

يبدو، أن الصرح العظيم، الذي سينجح السلطان سيدي محمد بن عبد الله، في تشييده، سيبدأ في الإنهيار، مباشرة بعد مقتل إبنه السلطان مولاي اليزيد (1791) إذ سيعيش المغرب، منذ ذلك الحين، تحت تأثير أوضاع سياسية، وإجتماعية، بالغة التدهور، نخرت بشكل عميق الكيان الوطني، وأحالته إلى أشلاء ممزقة، ففي ظروف مأزومة كهذه، سيدعى السلطان مولاي سليمان للحكم، إذ بويع هذا السلطان، مطلوبا لا طالبا للسلطة، وسيمارس الحكم خلال فترة تمتد من سنة 1792 إلى سنة 1822، أي لمدة ثلاثين سنة، حاول فيها سياسة البلاد، سياسة، عملت على الحد، والحيلولة دون المزيد من التدهور، بيد أن أزمات المغرب التاريخية، الكامنة في الماضي التاريخي المغربي، كانت أكبر، وأشد وقعا، من سياسة السلطان مولاي سليمان، المحدودة في الزمان، لقد كان السلطان مولاي سليمان، بحق، إمبراطورا، يصلح لإمبراطورية السماء، أكثر من صلاحيته لحكم الأرض، إذا كان ينبغي عليه أن يمارس السلطة الدينية، بنوع من القساوة[1].

(1) – من تقرير القنصل البريطاني "جيمس دوگلاص" المؤرخ في 26 أبريل 1822، عبد الهادي التازي التاريخ الديبلوماسي للمغرب، المجلد 9. ص 180. المحمدية. سنة 1988.

ومادام ذلك لم يتحقق، فقد كان على السلطان المولى سليمان، أن يواجه على المستوى السياسي، أزمة سلطة، ساهم في إفرازها الموروث السياسي الإسلامي، الذي تعلق المغرب به، مجسدا في قاعدة، أو ضابط الوراثة، المعمول به في مجال انتقال السلطة. وضابط البيعة، هذه الأزمة، ترافقت مع أزمة في الجهاز الإداري الموروث هو أيضا عن قرون خلت، مجسدة في علاقات الولاة بالأهالي، أما على المستوى الإجتماعي، فقد تجسدت الأزمة في ذلك الشرخ العميق، والإنفصام الحاد، بين السلطة، والمجتمع، ممثلا في علاقات القبائل والزوايا، بالسلطة المركزية.

1- الأوضاع السياسية بالمغرب على عهد السلطان مولاي سليمان :

إتسمت هذه الأوضاع، بأزمة في السلطة، ترافقت مع أزمة حادة، في الجهاز الإداري، كأحد قنوات تمرير السلطة، ونشرها في سائر أنحاء البلاد.

أزمة السلطة :

لقد ورث المغرب في مجال نظام الحكم، في التجربة السياسية الإسلامية، قاعدة الوراثة كقاعدة تحكم انتقال السلطة من سلطان لآخر، كما ورث في هذا الشأن، تقليد البيعة كتقليد لإضفاء الشرعية على من يتولى السلطة، ويبدو أن هذين الضابطين، قد لعبا دورا أساسيا في خلق حالة عدم الإستقرار السياسي، التي عانى منها المغرب، خلال حقبة حكم السلطان مولاي سليمان.

أ - قاعدة وراثة السلطة :

تنصرف، دلالات هذه القاعدة، إلى أن الملك، ينتقل داخل الأسرة الواحدة في الأعقاب من خلال الأسلاف، وهذا الإنتقال، يتم، بمقتضى عقد ولاية العهد، إذ يعهد السلطان في حياته، إلى أحد أفراد أسرته بالحكم، لكن الإشكال الذي يثور والذي يبدو أن هذا الضابط لم يتوقعه، إشكال

موت الخليفة فجأة، دون أن يعقد ولاية العهد لأحد أفراد أسرته، وهي الحالة التي ارتهن لها المغرب، بعد مقتل السلطان مولاي اليزيد، إذ أدى الأمر إلى احتدام التنافس بين أفراد الأسرة المالكة، من أجل الإمساك بالسلطة، وفي هذا الشأن، ستحدثنا المصادر التاريخية عن "حدوث الفتنة بالمغرب، وظهور الملوك الثلاثة من أولاد سيدي محمد بن عبد اللة"، المولى هشام، الذي بايعه أهل الحوز، ومراكش وآسفي، والمولى مسلمة، الذي بايعته بلاد الهبط والجبل، والمولى سليمان المبايع من قبل أهالي مدينة فاس [2]، سينغمس هؤلاء السلاطين الثلاثة في مغامرات ذات طابع عنيف من أجل إستئثار كل منهم بالسلطة، الأمر الذي أسهم في زعزعة، الإستقرار السياسي، الذي مكنت تجربة وحنكة السلطان سيدي محمد بن عبد الله من إقراره، هكذا، يبدو، أن قاعدة وراثة السلطة، لعدم دقتها، قد جعلت من السلطان مولاي سليمان يواجه في بداية حكمه، وضعية سياسية مضطربة، من أجل وضع حد لها، نراه يدخل في مواجهات عنيفة مع كل من المولى مسلمة، والمولى هشام، ويبدو أن الأمر كما تفيد المصادر التاريخية، لم يكن قاصرا على هؤلاء السلاطين الثلاثة، بل تجاوزه إلى مطالبة غير هؤلاء، من أفراد الأسرة المالكة بالحكم، ففي سنة 1794، سيبايع أهل مراكش، المولى الحسن[3]، وفي نفس السنة، سيثور المولى عبد الملك بن إدريس بأنفا، والذي ستتم بيعته بها[4].

ب - نظام البيعة :

واضح، إذن أن السلطان مولاي سليمان، قد دشن حكمه، بمحاولة إنتهاج سياسة تهدف إلى وضع حد للاضطراب السياسي، الذي عانى منه المغرب، والذي تخلف عن مقتل السلطان مولاي اليزيد، بيد أن ضوابط

(2) - الناصري. الاستقصاء. ج 8. ص 86.
(3) - الناصري. الإستقصاء. ج 8. ص 97.
(4) - المصدر نفسه. ص. 98 ومابعدها.

ممارسة السلطة، المأزومة، بقيت عائقا دون تحقيق ذلك، فإلى جانب نظام الوراثة، لعب نظام البيعة، دوره في تكريس حالة الأوضاع السياسية البالغة التدهور، إذ تعد البيعة، القناة الشرعية الوحيدة، المؤدية للسلطة. وهي بإجماع فقهاء المسلمين عقد بين الأمة والخليفة، وباعتباره عقدا تبادليا، فإنه تترتب عنه حقوق لكلا العاقدين [5]. ومن أحكام البيعة الرضا، إذ هي عقد رضائي، فلا يجوز أن يشوبه ضغط، أو غش، أو تدليس أو إكراه، فإن ذلك يبطله، وعقد البيعة، هو من العقود الإلزامية، ويترتب على ذلك، أن الأمة في تعاقدها مع الخليفة، إنما توكله في ممارسة السلطة نيابة عنها[6]، كما يترتب للخليفة على ذلك حق السمع والطاعة [7]، وباعتبار العقد ملزما، فإنه لا يفسخ، إلا بموت الإمام، أو عجزه، أو خروجه على شروط العقد [8].

تلك، بشكل مجمل وجد مختصر، أحكام البيعة، سقناها في هذا الصدد، لنقرأ على ضوئها بيعة فاس سنة 1792، للسلطان مولاي سليمان وخلعه سنة 1820، وبيعة مولاي إبراهيم بن اليزيد، لكي نضع اليد، على مدى الأزمة، الذي عانت منه السلطة المركزية، ممثلة في السلطان خلال هذه الفترة.

تحدد بيعة السلطان مولاي سليمان لسنة 1792، المواصفات التي بناء عليها، رشح أهالي، فاس، السلطان مولاي سليمان لمهام السلطنة، إذ جاء فيها بهذا الصدد: "... فهداهم (يعني المبايعين)، التوفيق، والتسديد، والرأي الصالح السديد، إلى من نشأ في عفة وصيانة، ومروءة وديانة، وعكوف على تحصيل العلم الشريف، ودأب على التحلي بحلى العمل المنيف،

---

(5) - الماوردي. الأحكام السلطانية. ص 8.

(6) - Dr. Sanhoury. le califat. P 94.

(7) - إبن الأثير. الكامل في التاريخ. ج 5. ص 197. طبعة بولاق. سنة 1350 هـ.

(8) - أبو حامد الغزالي. إحياء علوم الدين. ج 2. ص 269. طبعة الشعب. مصر. سنة 1969.

مع نجدة ونباهة، وذكاء وفطنة، ونزاهة، وعلو همة. وقوة عزمة، وتدبير وسياسة، وخبرة بالأمور وفراسة ..." [9].

وإذ تعكس البيعة، هذه المواصفات، فإنها تبلور في نفس الوقت، بعض مطالب وتطلعات الرعية، إذ ورد فيها بهذا الشأن : "وأصلح (أي الله بالخلافة)، أمر المعاش والمعاد وألف بها بين قلوب العباد من الحاضر والباد. وجعلها صونا للدماء، والأموال والأعراض، وغل بها أيدي الجبابرة. فلم تصل إلى مفاسد الأغراض، وقام بها أمر الخلق واستقام، وأقيمت الشرائع والحدود والأحكام ... فهنيئا لأرضنا إذ ألقت مقاليدها إلى من يحمي حماها، ويحقن دماها، ويكبت عداها، ويدفع رداها، وينصر الشريعة، ويشيد مبناها، ويعلن بحقيقة الحق ويوضح معناها نصره الله، ونصر به، وأمات البدع والضلالة بسببه، ودمر به شيعة الجور والفساد ... [10]".

واضح إذن، أن مطلب تحقيق الإستقرار السياسي، يأتي في طليعة مطالب المبايعين، وإذ قبل السلطان مولاي سليمان بالبيعة، وباعتبار البيعة عقدا ملزما للطرفين، فقد عنى ذلك في أحد وجوهه، إلتزام السلطان بتحقيق هذا الهدف، وهو الهدف، الذي بدا بعيد المنال، رغم جهود السلطان مولاي سليمان لتحقيقه، لذلك لن يتورع المبايعون أنفسهم، بعد مرور 28 سنة، على خلع السلطان مولاي سليمان. واستبداله بالمولى ابراهيم بن اليزيد، فعن أسباب الخلع، جاء في نص البيعة ما يلي: "... ثم إن شرط من يقوم بهذا الوظيف، ويستظل الناس بظله الوريق، أن يكون قادرا على التنفيذ، ممتثل الأمر في القريب والبعيد، بحسن تدبيره، الذي أنام الناس، في أكناف الأمان. وكمال حياطته العاصمة من طوارق الزمان، وحسن سياسته الجارية على القوانين الشرعية، والأعراف التي بين المسلمين مرعية، ولا يخفى على من له رأي سديد. وألقى السمع وهو شهيد، أن هذا الشرط، إختل منذ زمان

(9) - الناصري. المصدر السابق. ص 88.
(10) - الناصري. المصدر السابق. ص. 87.

في أبى الربيع مولانا سليمان، بشهادة الأخبار المتواثرة، والفتن المتكاثرة، التي ماجت كموج البحار، وجاءت من البلايا بما لا يدخل تحت حصار، من قطع السبل في كل وجه وقبيل، ونهب الأموال، وتنكيس الأحوال، وسفك نفوس، وانهدام قواعد وأسوس، وانغلاق الأبواب، وانفتاح الأنياب المتلقفة حصول الأماني، الآخذة العروة الوثقى من أعلى المباني، المنزلة أماكن الدين من قواعدها، الرافعة عروش الطغيان على عوامدها، وهذا أمر بلغ حد الإشتهار، والتحق بوسط النهار، وصارت القلوب به طائرة، والعيون ساهرة، والأماني تتطلع إلى الفتح الإلاهي الذي عمت ألطافه المتوالية، وسبقت نعمه المتناسقة المتدانية، والأطماع يائسة من الخلافة السليمانية، التي رماها صاحبها بالعراء، وخلفها إلى وراء، كما أفصح بذلك كتابه، وأعلن به خطابه، خروجا عن عهدة ما أمر به الزمان، من إنسداد باب المعاش والأمان، وتقصيا عن بقاء الناس بعده فوضى، تتزاحم عليهم الأحوال التي لا ترضي، وتتسارع إليهم الأيدي العادية، والخطوب الرائحة الغاذية، والأحوال الفاتكة البادية، في الحواضر والبادية (11)" .

فإن تقليد البيعة، الذي كان من المتوقع، بناء على بيعة سنة 1792، أن يسهم في تحقيق نوع ما في الإستقرار السياسي، نراه، وقد إنقلب إلى عكس الغاية المنشودة منه، إذ استخدم هذا التقليد في بيعة ابراهيم بن اليزيد، سنة 1820، بشكل فتح المجال أمام التوارث، والإنتفاضات التي اندلعت بشكل أشد حدة.

2 - أزمة الجهاز الإداري :

ترافقت أزمة السلطة المركزية، ممثلة في شخص السلطان، مع أزمة حادة في الجهاز الإداري المغربي، ممثلا في العمال والولاة، باعتبارهم قناة من قنوات تمرير السلطة، ونشرها في سائر أرجاء البلاد، هذا على الأقل ما

(11) - محمد داود. تاريخ تطوان. المجلد 3.

تظهره، رسالة في الموضوع، خطت من قبل السلطان مولاي سليمان، كما يكشف عنه الواقع الذي كان عليه جهاز العمال والولاة.

أ - واقع الجهاز الإداري :

لقد كان التنظيم الإداري، المعمول به في المغرب، تنظيما عتيقا، ركيزته الباشاوات، والعمال، والقواد، وكان هؤلاء الولاة، يختارون في الغالب من ذوي الجاه، أو النباهة، أو الغنى، أو كل ذلك، ويظل الوالي عاملا، ما بقي على ولائه للعرش، وقد كان هؤلاء الولاة، يضطلعون بالإضافة إلى أعباء الإدارة، بمهام الأمناء، إذ يتولون، تحصيل مستفاد المراسي، والغرس، في جميع متحصل الزكاة والأعشار، والمكس، ويسهرون على تنفيذ الكلف والهدايا في الأعياد، وتجنيد السكان للحركات التأديبية، وكان منهم من يضمن من ماله الخاص، أداء الرعايا لتلك الحقوق، وقد يحمله المخزن تبعة ذلك، مما أدى ببعضهم إلى الإستبداد، وأكل الأموال، والتعسف، وغمط الحقوق [12].

لنأخذ كشاهد على واقع هذه الأزمة، علاقة السلطان، المولى سليمان، بالوالي، الغازي بن المدني، الذي كان متوليا على الدار البيضاء والشاوية.

تحدثنا المصادر التاريخية، أنه في سنة 1795، عين السلطان مولاي سليمان، الغازي بن المدني، واليا على الشاوية والدار البيضاء، خلفا لأخيه، مولاي الطيب، الذي عين خليفة بمراكش، لا نعرف عن الغازي بن المدني إلا ماعرفه لنا السلطان مولاي سليمان. إذ كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله، قد أمر المولى سليمان بقراءة القرآن على يده، وعند توليته وفي الفترة الممتدة من سنة 1795 إلى سنة 1810، لم يحدث أي عصيان لقبيلة الشاوية

(12) - إن جهاز الأمانة لم يحدث إلا في عهد السلطان مولاي عبد الرحمن، أنظر في هذا الصدد، أمينة هراج التوزاني، الأمناء بالمغرب في عهد السلطان الحسن الأول. ص 197 ومابعدها، الرباط، سنة 1979.

من فرد أو جماعة. هذا المعطى، حدا بالسلطان مولاي سليمان، إلى توسيع دائرة نفوذ الغازي بن المدني، إذ ستمتد لتشمل العدوتين، الرباط وسلا، وماجاورهما من قبائل بني أحسن وأعراب الويدان، وذلك سنة 1805. ونظرا لشساعة ولاية هذا الوالي، فقد أسند مهمة قيادة العدوتين، إلى القواد، وبسبب محبة السلطان للغازي بن المدني، كما تفيده المصادر التاريخية، واحترامه له، صار مدلا عليه، وصدر منه تجني عليه، والتدخل في شؤونه الخاصة، فكان ذلك سببا لمحنته، فمن ذلك أنه عندما كان السلطان في طريقه إلى مراكش، وفي يوم الإثنين ثالث عشر قعدة عام 1225 هجرية، بعد إنفصاله من وادي أم الربيع، بعث للطالب الجيلالي بن أحمد بن الجيلالي السكيري، وساره، بأنه سيوليه عمالة بني أحسن، ثم إن الجيلالي المذكور، أفشى هذا السر الذي كان بينه وبين السلطان لابن القاسم ولد بوعزة القسطالي، وأعلمه أن السلطان أراد أن يوليه على قبائل بني أحسن، فذهب ولد القسطالي، لصهره الغازي بن المدني المزمزي، وبلغه الخبر، فحصل للغازي قلق وغضب، فذهب إلى السلطان وقال له، كيف يمكن أن تولي ولد أحمد بن الجيلالي على قبائل بني أحسن، وهو حديث السن. ونقص من قدره، فأجابه السلطان بأنه لا يوليه، بيد أن السلطان عزل المدني بن الغازي عن العدوتين، وذلك سنة 1226، حيث سافر إلى قبائل الشاوية، وشرع في بث الفتنة بين أهاليها. فأول ما فعله منع دخول الزرع من الشاوية إلى الرباط. كأنه يحارب السلطان إقتصاديا، وأمر بالقبض على الشيخ البصير بن الطاهر المزابي، وهو من أعيان قبيلة أمزاب، الأمر الذي أسفر في النهاية عن حدوث فتنة أدت إلى كسر الأسواق وقطع الطرقات. وانحصار الزرع عن العدوتين، مما حدا بالسلطان إلى إلقاء القبض على الغازي بن المدني. وذلك سنة 1226، ليطلق سراحه بعد ذلك، ويولى على الأوداية. ثم على أهل فاس، ثم ليعود واليا على قبائل الشاوية من جديد، ليلقي القبض عليه ثانية سنة 1230 هـ. لتثور الفتنة من جديد بين قبائل الشاوية [13].

(13) – استقينا هذه الأخبار، عن هاشم المعروفي، في كتابه "عبير الزهور في تاريخ الدار البيضاء وما أضيف إليها من أخبار آنفا والشاوية عبر العصور. ج. 1. ص 186 ومابعدها. الدار البيضاء. سنة 1987.

إنه نموذج واحد فقط، يدل على الوضعية التي كان عليها جهاز العمال والولاة، خلال حقبة حكم السلطان مولاي سليمان.

ب - شهادة السلطان مولاي سليمان، على العمال والولاة :

يتعزز هذا النموذج الذي سقناه في هذا الصدد، للدلالة على أزمة الجهاز الإداري، بكتاب السلطان مولاي سليمان لأهل بفاس، بمناسبة ثورتهم على عاملهم الصفار، سنة 1819/1235، والتي تعتبر شهادة على تردي الأوضاع الإدارية، ونص الكتاب :

بسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم، إلى أهل فاس : السلام عليكم ورحمة الله تعلى وبركاته. وبعد : "فإن العثماني، باصطنبول، وأمره، ممتثل بتلمسان، والهند، واليمن، ومارأوه قط. ولكن أمر الله يمتثلون (ياأيها الذين آمنوا أطيعو الله، وأطيعوا الرسول. وأولي الأمر منكم)، وكان (ص) لا يجزي بالسيئة، السيئة، ولكن، يعفو، ويصفح، واعلموا، أن العمال ثلاثة، عامل أكل السحت، وأطعمه الغوغاء والسفلة، وعامل لم يأكل، ولم يطعم غيره، إنتصف من الظالم، وعامل أكل وحده، ولم يطعم غيره، فالأول، تحبه العامة والسفلة، ويبغضه الله والسلطان والصالحون، والثاني، يحبه الله، ويكفيه ما أهمه من أمر السلطان، والثالث، كعمال اليوم، يأكل وحده، ويمنع رفده، ولا ينصر المظلوم، فهذا، يبغضه الله ورسوله، والسلطان، والناس أجمعون، وهذا، معنى حديث : ازهد فيما في أيدي الناس، يحبك الناس إلخ، وحديث : العمال ثلاثة إلخ، فلو كان للصفار (أي عامل فاس) مائدة خمر، وطعام، يأخذه من الأسواق. ويتغذى عنده، ويتعشى السفلة والفساق، ويدعو اليوم ابن كيران، وغدا إبن شقرون. وبعده بنيس وابن جلون، ويفرق عليهم من الذعائر، لأحبوه، وماقاموا عليه، ولو أردتم النصيحة لله ولرسوله ولأميره، لقدم علينا ثلاثة منكم، أو ذكرتم ذلك لولدنا مولاي علي أصلحه الله، فأخبرنا بذلك. وقل

للصفار، الكلاب لا تتهارش إلا على الطعام والجيف، فإذا رأت كلبا، بباب دار سيده، ولا شيء أمامه، لم تعرج عليه، وإن رأته يأكل، فإن هو تعامى وأشركهم فيما يأكل، أكلوا معه، وسكتوا، وإن هو قطب جهه، وكشر عن أنيابه، تراموا عليه، وغلبوه على ما في يده، وهذا الصفار لم يتق الله، ويزهد الزهد الذي ينصره الله به، ولم يلاق الناس بوجه طلق. ويطرف مما يأكله، فسلطهم الله عليه. ولما رأى يوسف بن تاشفين، النعمة التي فيها ابن عباد، قال : أكل أصحابه وأعوانه مثله ؟ فقالوا، لا ، فقال : إنهم يبغضونه، ويسلمونه للمكاره، لاستبداده دونهم، ولتغيير المنكر شروط، ومايعقلها إلا العالمون، وكم من مرة قلنا لكم، العلماء، هم ينكرون ما ينكر، ويعلموننا بما كان، ولكن الجلوس بلا شغل، والفراغ، وعدم الحمد، حملكم على مايحرم عليكم الكلام فيه.

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أي مفسدة

وأما بيت مال الله، والأحباس، فالله حسيب من بدل. وقد كنتم تتكلمون على المكس والحرير والقشينية وغير ذلك، فأرى حكم الله من ذلك، وانظروا، لمن تعرفونه من العمال. وأما الفسق، فهو عادة وديدن، كل من قام في الفتنة، وكم مرة رمت قطعه، فلم أجد إليه سبيلا، لأن جل كبرائكم بالمصاري والعرصات. وإنما أولي عليكم البراني، لأنكم لا تحسدونه، وإن أكل وحده، والحاسد يريد زوال النعمة عن محسوده، والتجار، لأن التاجر، لا يطمع في مال أحد، ويكفيه الرفعة والجاه، لنماء ماله. وانظروا ما أجبتكم به. وما كتبتم لنا به، واعرضوه على فقهائكم، فمن قال الحق منا، ومن قال الباطل. أخذتم بحظكم من الفتن. إ هـ [14].

إنها شهادة إدانة من قبل السلطان مولاي سليمان في حق عماله

(14) – الناصري : الإستقاصا. ج 8. ص. 139 ومابعدها.

وولاته، وهي شهادة تعكس تردي الأجهزة الإدارية، في إدارة شؤون أهالي البلاد.

2 - الأوضاع الإجتماعية بالمغرب على عهد السلطان مولاي سليمان

غذت، أزمة السلطة، مترافقة مع سوء التسيير الإداري الفتن والثورات والإنتفاضات التي عمت سائر أرجاء المغرب، خلال هذه الفترة، ففي زمان قل علمه وكثر جهله، وغاض خيره، وفاض شره، وأمر السلطان متداع مختل، والفتنة قائمة على ساق [15]. حسب شهادة أحد المؤرخين، لم تبق من نتيجة متوقعة لذلك على المستوى الإجتماعي، سوى أن نلحظ ذلك الشرخ العميق، والإنفصام الحاد، الذي سجل في مستوى علاقة السلطة بالمجتمع، وهو مابرز جليا في علاقات السلطة بالقبائل، وبالزوايا.

أ - علاقة السلطة بالقبائل

أوصى "أبو القاسم الزياني" أحد رفقاء السلطان مولاي سليمان، باعتماد السلطان في سياسته للقبائل، منطق القوة، إذ كتب يقول : "وسياسة البربر، هي ما أوصى به عبد المومن بن علي، ولده، يوسف العسري، لما كتب له ولاية العهد، قال له : عقوبة العرب المال، وعقوبة البربر القتل، فإياك أن ترفع السيف عن البربر، وترفع المال عن العرب، فلا يستقيموا إلا على هذا المنوال [16].

هذه السياسة التي أوصى بها "أبو القاسم الزياني" للسلطان مولاي سليمان، لم يتبناها هذا الأخير، إذ كانت سياسته حسب شهادة أحد المؤرخين في هذا الصدد تعتمد الحلم، "وأما الحلم، فهو دأبه وطبعه، وقد اتفق أهل عصره على أنه كان أحلم الناس في زمانه، وأملك لنفسه عند الغضب من أن

(15) - المصدر نفسه. ص. 158.

(16) - أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا. ص 71.

يقع في الخطأ. ومذهبه درء الحدود بالشبهات، والتماس التأويل، وقبول العذر ...[17]، لذلك لا يبدو غريبا ذلك السيل الجارف من الثورات والإنتفاضات القبلية، والمدينية، التي عايشها السلطان مولاي سليمان، ففي سنة 1207، سيكلف أخاه المولى الطيب بغزو قبائل الشاوية، قصد إجبارهم على البيعة، إلا أن الجيوش السلطانية ستمنى بالهزيمة. وفي سنة 1208، سيثور "محمد بن عبد السلام المدعو زيطان. بقبيلة الخماس، وسينتصر على الجيوش السلطانية الساعية لإخماد ثورته، ولن يتمكن من إخضاع القبيلة إلا في سنة 1209، وهي السنة التي ستخرج فيها الرحامنة من طاعة المولى هشام، لتدخل في طاعة المولى الحسين، كما ستثور الفتنة بين قبائل الحوز، وبين عبدة وأحمر ودكالة، وفي سنة 1211، سيتحرك السلطان اتجاه بلاد دكالة وأزمور وتيط، من أجل مبايعتهم له، كذلك الشأن بالنسبة لمراكش، وآسفي والصويرة، وفي سنة 1215، سيعلن برابرة آيت ومالو العصيان، وستنهزم جيوش السلطان في مواجهتهم، وفي سنة 1216. سيتمكن السلطان من فتح بلاد درعة، وفي سنة 1218، ستعلن آيت ادراسن العصيان، وستتمكن الجيوش السلطانية من إخضاعها، كما هو الشأن بالنسبة لسوس سنة 1219، بينما تمكن عرب الأعشاش سنة 1912 في عصيانهم من الإنتصار، وفي سنة 1222، سيعلن بني موسى وآيت عتاب ورفالة وبني عياط العصيان، وسيتمكن السلطان من إخضاعهم، كما سيخضع في نفس السنة إقليم تكرارين، وتوات، وستنتفض من جديد سنة 1223، قبيلة ايت ومالو، كما ستنتفض سنة 1224، ورديغة وقبائل البربر، وآيت يسرى. وفي سنة 1226 ستتحالف قبائل البربر على العصيان، وستتمكن من الإنتصار على الجيوش السلطانية، لتتلوها في سنة 1228 انتفاضة قبائل تامسنا. وفي سنة 1230، قبائل الحوز، وفي سنة 1234 برابرة فازاز، الذين سيتمكنون من هزم جيش السلطان، ليتوج هذا المسلسل، في سنة 1235، بثورة أهل

(17) - الناصري : المصدر السابق. ص 169 - 170.

فاس، التي استمرت إلى غاية سنة 1236، حيث تمت مبايعة مولاي ابراهيم بن اليزيد كسلطان بدلا عن المولى سليمان[18].

لقد أسهم في صنع هذه الإنتافضات التي عمت المغرب خلال هذه الفترة، ذلك التشتت للسلطة، الذي سبق أن أشرنا إليه، وتوزعها بين سلاطين ثلاثة، كما أسهم فيه أيضا، سياسة المولى سليمان، الذي يبدو أنه كان مصرا على نشر سلطته، ونفوذه المادي في جميع أرجاء المغرب، لقد علق أحد المؤرخين على نهوض السلطان لعرب الأعشاش سنة 1221، قائلا : "وكان ذلك خطأ منه في الرأي، إذ كانت لهم شوكة. وكان في غنى عن التعرض لهم : بما درّ عليه من الجبايات الوافرة من تلك القبائل، لكن الحرص لا يزال بصاحبه حتى يقطع عنقه. فلما علموا بقصده إياهم، عدلوا عن لقائه إلى المحلة، فأغاروا عليه، وأنتهبوها، فرجع أهلها منهزمين من غير قتال[19]".

لقد أسقط السلطان مولاي سليمان المكس على الرعايا، غير أن الواجبات الشرعية، من زكاة وأعشار، لم يكن مستعدا للتنازل عنها، وهو ماكان يعني عدم رضا السلطان مولاي سليمان بمجرد نفوذه الروحي على المغاربة، إذ طمح إلى تحقيق نفوذ فعلي للسلطة، إلى جانب النفوذ الروحي، وإن سياسة من هذا القبيل، وفي غياب الوسائل اللازمة، لتنفيذها، قد خلقت نوعا من الإنفصام بين السلطة، والمجتمع، جسدته ثورات وانتفاضات هذه الحقبة.

ب - علاقة السلطة بالزوايا :

إشتهر السلطان مولاي سليمان، بخطبته ضد البدع. وهي الخطبة، التي تعكس السياسة الدينية، المرسومة على المستوى النظري من قبل هذا

(18) - إستقينا هذه الوقائع عن الناصري. في المجلد 8. من الاستقصاء.
(19) - الناصري. المصدر السابق. ص. 112.

السلطان، إن الخطبة هذه، تتوجه بأصابع الإتهام، لطوائف معينة (جيلالة وعيساوة). كما أنها تعلن إلغاء إقامة المواسم، وتوحي بعقوبات صارمة، كالقتل، لكل مخالف لتعاليم هذا الخطاب[20]، لذلك اعتبرت هذه الخطبة، في نظر شيوخ الزوايا، بمثابة إعلان حرب ضدها، الأمر الذي سيكرس، المزيد من إنفصام السلطة عن المجتمع، إذ ستسهم مثلا : الزاوية الدرقاوية، التي كان نفوذها منتشرا في الأطلس المتوسط، إسهاما أساسيا في نخر عرش السلطان مولاي سليمان.

لقد حاول السلطان المولى سليمان، في البدء تأطير هذه القوى، وتوظيفها، إذ أرسل "مولاي العربي" شيخ الزاوية في مهمة لدى أخيه، ومنافسه في العرش "المولى مسلمة" وبعد ذلك بسنوات، دفعت الأحداث، السلطان إلى استعمال "درقاوة" في مهمة ذات أهمية قصوى، ففي سنة 1802 - 1803، قتل "داي" وهران، أحد الدرقاويين، مما أدى إلى تمرد القبائل العربية بتحريض من مقدم الطريقة، وقد تمكن هؤلاء من هزيمة الجيش التركي، مما اضطر معه "داي" الجزائر، إلى طلب تدخل السلطان مولاي سليمان. من خلال مولاي العربي، الذي بدلا من إخماده للثورة أيد الثائرين، وأخذ منهم البيعة للسلطان مولاي سليمان.

بيد أن هذه العلاقات، سرعان مابدأت تعرف نوعا من الفتور، لتصل إلى القطيعة، مع إعلان المولى سليمان، الحرب ضد الطرقية. إذ عارض "مولاي العربي" السلطان، وثار أتباعه، وكبدوا المخزن هزائم متعددة. وفي سنة 1818، تمكنوا من قتل إبنه "المولى إبراهيم" وفي سنة 1819، كانت مكناس محاصرة من قبل "أبو بكر امهاوش" مناصر درقاوة. وفي سنة 1820، وقع "مولاي العربي الدرقاوي" و "الحاج العربي الوزاني" وأعيان فاس، وثيقة خلع السلطان مولاي سليمان وتنصيب أخيه المولى إبراهيم بن اليزيد خلفا له.

(20) - أنظر نص الخطبة. في : أبو القاسم الزياني. الترجمانة الكبرى. ص 466.

سنأخذ نموذجا آخر، لعلاقات المخزن بالزوايا، نموذج الزاوية الشرقاوية، لقد كانت هذه الزاوية، حسب أغلبية الملاحظين الأجانب، في القرن 19، تسهم إلى جانب شريف وزان. في تقرير مصير الدولة كلها، لا سيما في الفترة مابين 1803 و1806، ولقد تدخل السلطان مولاي سليمان في سنة 1821، في شؤون هذه الزاوية، إذ عين شرقاويا عمره إحدى عشر سنة، مقدما للزاوية، ووارثا لأسرار أسلافه، بدلا عن أخ أكبر منه سنا، نشأ في القصر الملكي إلا أنه لم يكن مطيعا، ويصرح الظهير بالخصوص بأن السيد ليس مسؤولا إلا أمام الله.

هكذا، يتبدى لنا بشكل واضح، أن موقف السلطان مولاي سليمان، لم يكن على مستوى واحد في معالجة قضية "الزوايا"، إذ هنالك موقفان في هذا الصدد، موقف مبدئي وموقف عملي. فالموقف المبدئي، يرفض ظاهرة الزوايا باعتبارها من الانحرافات المخالفة للإسلام السني، في حين يذهب الموقف العملي إلى تشجيع هذه الظاهرة، مع مراقبتها والسهر على إستغلال نفوذها.

وهذا الموقف المزدوج للمخزن اتجاه هذه المؤسسة، أسهم في خلق الإنفصام بين السلطة والمجتمع، فالموقف المبدئي، أدى إلى إشعال نار الحرب بين الزاوية، والمخزن، والموقف العملي، أدى إلى تقوية هذه المؤسسة، وجعلها دولة داخل الدولة.

الظرفية التاريخية العامة وتأثيرها في توجيه سياسة السلطان المولى سليمان

محمد بوكبوط
كلية الآداب / تطوان

لاشك أن تناول عهد المولى سليمان (1792 - 1822) بالدراسة يكتسي أهمية بالغة لعدة اعتبارات، لعل أهمها دقة المرحلة التاريخية التي تولى فيها هذا السلطان الحكم، وتجلى ذلك فيما شهدته من مستجدات وتقلبات سواء على المستوى المحلي أو الدولي، تم ضبابية الصورة التي تكونت عن هذا العهد في أغلب الكتابات التاريخية، بحيث اقترن بمصطلحات العزلة والاحتراز، وكأن المغرب انزوى بنفسه بمنأى عن التطورات المحيطية به.

وتروم هذه المساهمة محاولة وضع عهد السلطان المولى سليمان في إطاره التاريخي العام، بجرد بعض العوامل الأساسية التي نرى أنها ساهمت في رسم المسار التاريخي للمغرب في نهاية القرن الثامن عشر وطوال العقدين الاولين من التاسع عشر، وتحكمت الى حد بعيد في توجيه السياسة التي بينها هذا السلطان، ويمكن في نظرنا إجمال هذه العوامل في ثلاثة : النتائج المترتبة عن سياسة والده سيدي محمد بن عبد الله، والتطورات في أوربا ، والمستجدات في الشرق العربي.

فالبنسبة للعامل الأول نعتقد أنه يستحيل فهم أحداث العهد

السليماني دون ربطها بتركة سياسة السلطان محمد الثالث (1757-1790) المتميزة بالانفتاح على التجارة الاوربية المكثفة، مما أسفر عن إحداث تغييرات عميقة في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للبلاد.

يتجلى ذلك في أن محاور الاقتصاد المغربي - قبل النصف الثاني من القرن الثامن عشر - كانت متجهة نحو الجنوب عبر الصحراء خلال عدة قرون، تمت خلالها صياغة الهياكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبلاد، فجاءت سياسة سيدي محمد بن عبد الله لتدشن عهد القطيعة مع هذه الصحراء، محولة مركز الثقل الاقتصادي نحو الساحل الاطلنتيكي، مع ما ترتب عن ذلك من تغيير موضوع وحجم المبادلات التجارية، ومن ثم تغيير المعادلة الاقتصادية برمتها [1].

ومن البديهي أن هذا التحول أفاد بعض الجهات ومعها بعض القوى الاجتماعية التي ارتبط نشاطها بالتبادل مع الأوربيين عبر الموانئ، بحيث تميزت الظرفية الاقتصادية باندفاع الاخيرين إلى موانئ المغرب ومدنه الداخلية وبواديه لاقتناء المنتوجات المختلفة وتصديرها، ولم يقتصروا في ذلك على «شراء الطعام والاوام» [2]، بل تعدى أمرهم الى «شراء الدواب من البغال والبقر والاغنام والدجاج وغير ذلك»، [3] من المواد كالصوف والجلود والنحاس والشمع ....، كل ذلك خلق رواجا تجاريا مكثفا، مكن بعض الفئات الاجتماعية - حضرية وبدوية - من مراكمة ثروات مهمة وتنمية مصالح مرهونة بالتجارة البحرية الأوربية.

ارتكازا على هذا الواقع كان حتميا ان ترغب هذه القوى المستفيدة من

(1) - انظر المزيد من التفاصيل، بوكبوط محمد، الاصلاحات السياسية والاقتصادية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790) رسالة د.د.ع كلية الآداب فاس مرقونة.

(2) - محمد بن الطيب القادري، حوليات نشر المثاني، تحقيق نورمان سيكار، م.ج.ب.ع. الرباط 1978، ص 97.

(3) - نفسه.

من سياسة الانفتاح التجاري في مواصلة نفس النهج بعد وفاة سيدي محمد سنة 1790. وهنا تسعفنا المصادر التاريخية بمادة لا يستهان بها تعكس أوضاع المغرب في هذه الفترة المهمة من تاريخه، ولعل كتاب الضعيف يشفي الغليل في هذا الباب، إذ يورد هذا المؤرخ شهادات عاش أحداثها عن مواقف بعض الشخصيات التي ساهمت في صنع أحداث عهد المولى سليمان.

ولعل أبلغ الامثلة على هذه التطورات والمواقف والاحداث التي كان أبطالها أعيان عبدة ودكالة والشاوية والحوز أمثال عبد الرحمان بن ناصر العبدي والحاج محمد بن العروسي وأخيه الهاشمي، وسيدي عبد الله بن محمد بن عبد القادر أحد الشرفاء الوزانيين المستقرين بميناء الدار البيضاء، وغيرهم، والذين بادروا إلى معارضة سياسة المولى اليزيد المتسمة بالعداء للاجانب، وخاصة الأسبان، بحيث بايعت هذه الفئة من الأعيان المستفيدين من التبادل مع الأوربيين المولى هشام سنة 1792 في الأقاليم الاطلنتيكية الجنوبية ضد أخيه اليزيد « الذي أضر بكل أحد » كما جاء في رسالة بعثها الأسبان إلى ابناء سيدي محمد بن عبد الله حسب الضعيف، وبعد مقتل المولى اليزيد وتولى المولى سليمان، ظلت نفس الفئة مناوئة لكل التدابير السلطانية الرامية الى مراقبة التصدير المكثف للمنتوجات المغربية والتي كانت أحوال البلاد تفرضها[1]، فقد استمر أعيان المناطق السابقة الذكر والمدن الموجودة فيها في ممارسة مبادلاتهم مع الأوربيين متحدين قرارات السلطان المولى سليمان ومعلنين العصيان بمساندة أمراء آخرين مستعدين للحفاظ على مصالحهم.

وتزخر مصادر هذه المرحلة بمعلومات مهمة عن انفلات الأمور من يد المولى سليمان على هذه الاصعدة السياسية والتجارية، إذ يورد الضعيف

(1) – الضعيف، تاريخ الضعيف، تحقيق أ. العماري، ص 253.

صورا عن مدى اندفاع الاوربيين نحو المدن الموانئ المغربية وحركت التصدير المكثفة التي ترتبت عن ذلك الى جانب الانعكاسات الاجتماعية لذلك، وفي ذلك يقول : « أخبرني قاسم باينا بأن الرباط تكاثرت به النصارى ويمشون للأسواق بالثلاثين والأربعين ... ويطلعون للابراج ... ويدخل النصرانى لبعض الدور على الفحش والمنكر، ونحو الخمسين او الستين سفينة بقرب سيدي مخلوف، ويوم عاشوراء (1211 هـ / 1794) لم يوجد اللوز ولا الفاكهة، وكانت السفن توسق الزرع من تطاون وطنجة والعرائش والرباط والدار البيضاء والصويرة» [1]، واذا كان جانب من هذه المبادلات خاضعا لمراقبة السلطان ويتم بإذنه فإن هناك نشاط مماثلا يتم خارج ارادة ومراقبة المخزن، بحيث « كان السلطان مولاي سليمان يبعث الرياس من الرباط وسلا في السفن يتعرضون للسفن التي تخرج من آسفي ومن طيط فيغنمونهم ويأتون بسفن النصارى وبالزرع ثم يبيعه السلطان للنصارى ايضا » [2]، كما كانت تجارة التهريب ذاتها نشيطة على الساحل المتوسطي، إذ كان أهل الريف قد « استقلوا بأنفسه وصاروا يبيعون الزرع النصارى حتى كادوا يبيعون لهم أولادهم» [3].

يتضح إذن مدى تثبيت الفئات التي ارتبطت مصالحها بالمبادلات الأوربية بضرورة مواصلة هذا النشاط، ولم ترضخ بسهولة لمصالح المخزن، بل لم تتردد - بعد مواقفها الآنفة الذكر - في التحالف مع الأجانب والتآمر معهم ومسايرة مخططاتهم الرامية الى ضرب الوحدة والاستقرار معهم ومسايرة والحفاظ على امتيازاتهم التجارية.

فهؤلاء أعيان عبدة والاقاليم الجنوبية الذين سبقت الاشارة إليهم عند

(1) - نفسه ص 274.

(2) - الضعيف، المصدر السابق، ص 274.

(3) - نفسه ص 385.

بيعتهم للمولى هشام بمراكش « تخربوا واجتمعوا بالجيش بنيف وثلاثين ألفا، ونزلوا ... ببلاد دكالة على أن يحاصروه (اليزيد) لئلا يقطع لبلادهم، وبعثوا للنصراني صلمون الصبنيولي على أن يعينهم ويمدهم بالمال والانفاض ... فبعث لهم وحرضهم على بعضهم بعضا، وبعث السفن لمرسى آسفي فيهن نحو العشرة انفاض ذا طناشر، وخمسون قنطارا (من البارود) وستمائة مكحلة ... »[1]، هكذا تدخلت إسبانيا بالخصوص في شؤون المغرب بشكل سافر، إذ قدمت الدعم المكثف لكل من أعلن معارضته للمولى اليزيد والمولى سليمان، ويأتي أعيان السهول الاطلنتيكية على رأس هؤلاء بحكم تضرر مصالحهم من إجراءات المولى اليزيد التي وترت العلاقات المغربية الاسبانية، وكذلك من تدابير المولى سليمان الرامية إلى فرض مراقبة المخزن على الحركة التجارية.

هذه التطورات التي عانى منها المولى سليمان أبرزت جانبا من خطورة حرية التجارية مع الأوربيين سياسيا واجتماعيا، فقد جعلت المخزن يقف على حقيقة كون فتح أبواب البلاد أمام التبادل المكثف مع أوربا يمكن قوى اجتماعية من تملك إمكانات مادية ومصالح اقتصادية تحفز طموحاتها السياسية التي قد تتناقض رأسا مع منطق المحزن وأسسه. ومما له دلالته كذلك فيما يتصل بآثار سياسة سيدي محمد بن عبد الله على الواقع الاقتصادي والاجتماعي ومن ثم السياسي الذي ورثه المولى سليمان، موقف فاس وفئاتها المتنفذة المناصر لمولاي سليمان في نزاعه مع اخوته على الحكم، ذلك الموقف الذي يعكس تضرر طبقة التجار والحرفيين من سياسة الانفتاح خلال العهد السابق، ورغبتها في كسب السلطان والتأثير على نهجه الاقتصادي والسياسي الشيء الذي يتأكد في إثارة الجدل حول مسألة الاتجار مع الاوربيين.

(1) - نفسه ص 230.

والحقيقة - كما يفصل في ذلك الاستاذ محمد المنصور [1] - أن هذه المسألة ظلت مطروحة من طرف العلماء بتحريم الاتجار والاقامة بين الكفار او تقنينه بدقة من طرف الشريعة، كما أن هذا التحريم والتقنين لم يقتصرا على البلدان المسيحية الاوربية، بل شملا شعوب افريقيا الوثنية.

هنا تقف على المسألة بالغة الأهمية في تفسير جانب من تطورات أوضاع المغرب في هذا العهد، وهي أن ذلك الطرح الذي يذهب إلى كون المولى سليمان « منع » التبادل مع الأوربيين لأسباب دينية صرفة يجانب الصواب في اعتقادنا، لان هذه العوامل الدينية كانت قائمة في عهود كل من سبقوا أبا الربيع ومن خلفوه من السلاطين الحريصين مثله على قواعد الشريعة وفق ما تمليه إمارة المؤمنين والبيعة، مما يكشف أن إثارة هذا الجدل، والتركيز على موقف الشريعة من التجارة مع الأوربيين بالخصوص يعكس في الحقيقة ردود فعل ضد وضع داخلي متأزم مشوب بالتهديدات المحدقة بالكيان المغربي، كيان المخزن وكيان المجتمع بمكوناته على حد سواء، ولا حاجة إلى التدليل على أن مثل هذه، المسائل تكتسي في الغالب حساسية شديدة إبان فترات الأزمات، وعهد المولى سليمان كان عهد أزمة، مما يفسر تأجج المسألة الدينية بالدعوة إلى السلفية والتأثر بالوهابية كرد فعل على ما طال المجتمع المغربي من تأزم عقد تجربة الانفتاح.

ومن تجليات هذا التأزم ذات الدلالة - إضافة إلى ما سبق - الوقائع التي طبعت عهدي المولى اليزيد والمولى سليمان، والتي تترجم موقف الرأي العام المغربي من المستفيدين من ظرفية عهد محمد الثالث، إذ يشير الضعيف مثلا إلى « أن أهل الرباط كانوا يشترون السفن من النصارى ... وكثر عليهم المال والريال ... ويركنوه لصحبة النصارى ... ويكرمونهم ويحبونهم وعلى هذه الحالة الجل منهم » [2]، الشيء الذي أدى سنة 1795

(1) - El Mansour M, Maroco in the reign of Mawlay su layman

(2) - الضعيف، المصدر السابق، ص 276.

إلى انتفاضة سكان الرباط وعزمهم على الوقوف في وجه هذه التجارة المسؤولة عن ثراء فئة من مواطنيهم وانغماسها في نمط عيش مستفز [1]، كما حدثت انتفاضات أخرى في مناطق مختلفة من البلاد تعكس نفس الموقف الذي يترجم تشنجا في العلاقات الاجتماعية، إضافة إلى الموقف من اليهود باعتبارهم من أكبر المستفيدين من تلك الظرفية، مما يساهم في إدراك خلفيات قيام المولى اليزيد بنهب ملاح تطوان، وتصور المصادر المعاصرة - يهودية وعربية - مدى الفزع والرعب الذي انتاب اليهود عقب شيوع نبأ وفاة سيدي محمد، لإدراكهم لمواقف فئات معينة من المجتمع منهم في هذا الظرف المتأزم.

وقد أنضافت عوامل طبيعية إلى ما سبق لخلق وضعية متردية بالمغرب خلال هذا العهد، إذ ابتليت البلاد بطاعون سنة 1799 - 1800 وبمجاعة سنة 1717 - 1818 وبطاعون اخر سنتي 1818 - 1820، وبديهي أن سياسة المولى سليمان لم تسلم من تأثيرات وانعكاسات هذه الكوارث.

اما العوامل الخارجية التي لعبت دورها في التأثير على سياسة أبي الربيع، والتي سنتناولها بإيجاز، فتأتي في مقدمتها الاحداث الجسام التي كانت أوربا القريبة جدا من المغرب - مسرحا لها. « ففي هذه السنة (1222هـ) قوي سلطان الفرنسيس وهو نابليون بنابا رطي، وقهر أجناس النصارى وغلبهم ولا بقي مخالفا عليه إلا اللنقليز، وأراد الخروج للمغرب وأتى بأجناس النصارى للبوغاز وإلى طرفيا والخزيرات وصنع قنطرة من اللوح ليقطع عليها (!) ثم خاف من اللنقليز لانه لم يتفق معه على ذلك، ... وكان الناس في ضيق من أجل السلطان عندما دخل سوس وغاب خبره ... » [2] «وفي أوائل محرم 1223هـ (1808) شاع وذاع بأن النصارى دمرهم

---

(1) - نفسه.

(2) - الضعيف، المصدر السابق، ص 342.

الله خارجين للمغرب. وأخذ الناس في الاستعداد للجهاد من جميع جهات المغرب» [1]، بالفعل لم يسلم المغرب من تأثيرات الحروب النابوليونية في بداية القرن التاسع عشر، خاصة وأن نابوليون سيطر على إسبانيا، وأصبح بذلك مشاركا في التحكم في مضيق جبل طارق ومن ثم مجاورا مباشرا للمغرب، الذي قدر له موقعه أن يجد نفسه محشورا في دوامة تقاطعات وتناقضات المخططات الاستعمارية الاوربية في إحدى أهم النقاط الحساسة على صعيد الكرة الأرضية : مدخل البحر المتوسط الغربي الحيوي بالنسبة للقوتين العملاقتين آنذاك انجلترا وفرنسا.

ورغم اتخاذ المولى سليمان موقف الحياد حيال الصراعات الاوربية، فانه لم يسلم من اتهام المعسكرين المتحاربين له [2] وتنافس انجلترا وفرنسا على نيل الامتيازات التجارية من المخزن [3]، وكذلك تأثير المغرب من الحصار القاري الذي فرضته انجلترا على فرنسا النابوليونية.

كل ذلك فرض على السلطان وضعا مشحونا يتسم بالخطورة البالغة من حيث تهديد حوزة البلاد بشكل مباشر، ويورد الضعيف أن الشعور بالخطر كان عاما، ولم يكن الأمر مجرد إشاعة، بل تشير المصادر التاريخية إلى أن نابوليون راودته فكرة اجتياز المضيق فعلا، ثم إن أصداء الحملة الفرنسية على مصر في أواخر القرن الثامن عشر أكدت للمغاربة مدى خطورة التوسع الفرنسي، مما جعل المولى سليمان يتفادى اتخاذ أي خطورة تورطه في الصراع أو تثير ردود فعل خطيرة العواقب من قبل القوى المتصارعة، وفي هذا الصدد نجد تفسيرا لتدابير السلطان المتصلة بالاسطول، فرغم إدراكه لأهمية هذا الأخير - على صغره وضعفه - في مراقبة السواحل

(1) - الضعيف، المصدر السابق، ص 342.

(2) - لم تخل الاتهامات من نصيب من الصحة، انظر مثلا طلب نابوليون الخيول من المولى سليمان واستجابته لذلك، الضعيف، نفسه ، ص 342.

(3) - El Mansour, M., op. cit. p.61

لمنع تجارة التهريب، ذلك الادراك الذي ترجم في إصدار أوامره لاحياء دار صنعة سلا سنة 1800، وشراء سفن من انجلترا سنتي 1804 و1807، إضافة إلى إصلاح العديد من القطع البحرية في جبل طارق ولشبونة[1]، رغم كل ذلك، فإن التهديد، الاوربي والامريكي[2] جعله يفضل تفكيك الاسطول لتجنب الاحتكاك والاصطدام مع القوى الغربية التي جعلت من حوض المتوسط مسرحا لمنافستها المحمومة ولعملياتها الحربية.

إلى جانب توتر الاوضاع في أوربا المجاورة، صادفت الفترة توترا آخر في منطقة كانت للمغرب معها علاقات خاصة، ونعني بها منطقة الشرق العربي، فمعلوم أن هذه العلاقات قد شهدت أوجها في عهد سيدي محمد ابن عبد الله، غير أن عهد المولى سليمان تزامن مع حدوث تطورات أثرت بشكل أو بآخر في هذه العلاقات، وتتمثل في تعاظم نفوذ الحركة الوهابية بالجزيرة العربية والاضطرابات التي صاحبتها، خاصة مع تشدد هذه الحركة وتدخلها العنيف في منطقة الحجاز حيث الاماكن المقدسة مما أثر على ركب الحجيج الذي ظل على مر العصور عاملا أساسيا في العلاقات بين المغرب والمشرق، وقد أدت هذه التطورات بعد تضافرها مع المتغيرات التي حدثت في مصر بعد الحملة الفرنسية وصعود نجم محمد علي - إلى اندلاع الحروب في هذه المنطقة بين الوهابيين السعوديين والدولة العثمانية ممثلة في والي مصر الباشا محمد علي.

إلى جانب هذه الاحداث، فان العلاقات مع ولاة الجزائر عرفت توترا

---

(1) - El Mansour, M., op, cit. pp 108-109

(2) - تورد المصادر أن سفينة قرصانية مغربية أسرت مركبا امريكيا سنة 1803، وكان رد الفعل الامريكي سريعا وحاسما، إذ قامت البحرية الامريكية بأسر الرايس لوباريز وطاقم مركبه قبل وصولهم لميناء سلا، وفرض الامريكيون على السلطان أن ينتقل إلى طنجة للتوقيع شخصيا على معاهدة سلام وتجارة مقابل إطلاق سراح البحارة ومركبهم، أنظر الضعيف، المصدر السابق، ص. 326-328.

في هذا العهد بعد مساندة المولى سليمان للدرقاويين ضد سلطة الداي، مما زاد من إحكام الطوق على المغرب.

هذه في عجالة بعض العوامل التي نرى أنها لعبت دورها في توجيه الاحداث في عهد السلطان مولاي سليمان وأثرت في نهجه الذي فرضته الظرفية التاريخية العامة : ظرفية متسمة بالتأزم داخليا والتهديد خارجيا. مما يدفعنا إلى إعادة النظر في طبيعة سياسة هذا السلطان، وتدقيق الأوصاف التي تطلق عليها كالانعزال وكشف العوامل الحقيقية الكامنة وراءها، فالعزلة فرضتها الظرفية التاريخية ولم تكن اختيارا حرا لأبي الربيع، فالوقت كان وقت حروب واضطرابات « عالمية » كنا من البديهي أن تخف معها العلاقات بين المغرب والخارج على جميع الأصعدة.

محاولة إصلاح الفكر الصوفي في عهد المولى سليمان - ابن عجيبة كنموذج -

حسن عزوزي
كلية اللغة العربية بمراكش

لقد عرف الفكر الصوفي في شمال المغرب على عهد السلطان المولى سليمان تنوعا خصبا وتباينا واضحا بين مختلف الحركات الصوفية الطرقية التي تتفاوت شعبية وتأثيرا كما تتفاوت درجات مصداقيتها لدى السلطان وعامة أفراد المجتمع، وبين طرق شعبية كالعيساوية وأخرى تفتخر بنسبها الشريف كالريسونية تقف في وسط الطريق أبرزالطرق الصوفية إثارة للإشكال في القرن الثاني عشر والثالث عشر إلى جانب الطريقة التجانية، وهي الطريقة الدرقاوية التي عرف تاريخها منعطفا حاسما على عهد السلطان مولاي سليمان مع الشيخ أحمد بن عجيبة التطواني الذي كان له أكبر الأثر في تأصيل أصول الدرقاوية وتقعيد قواعدها الصوفية.

يعتبر أحمد بن عجيبة (1160 - 1223 هـ) أبرز ممثل للتصوف الطرقي السني في عهد المولى سليمان، وقد اتخذنا هذه الشخصية العلمية الفذة التي لا تزال بحاجة إلى مزيد من البحث والدراسة بعد دراسات كل من جون لوي ميشون J.L. Michon ود. عبد المجيد الصغير نموذجا لإلقاء بعض الأضواء على حالة الفكر الصوفي في بداية القرن الثاني عشر الهجري.

ينتمي ابن عجيبة إلى الطريقة الدرقاوية التي أسسها شيخه العربي الدرقاوي وهي طريقة متفرعة عن الطريقة الشاذلية السنية الشهيرة ذات الفروع المتعددة، وليس بخاف على أحد الدور الفعال الذي لعبته الطرق الصوفية بالمغرب والمشرق على السواء، سواء في نشر الإسلام بإفريقيا على الخصوص أو في محاولات متعددة من أجل الإصلاح الإجتماعي، وقد بينها دراغ Drague في كتابه.

وقبل الحديث عن الفكر الصوفي الذي تمثله ابن عجيبة لابد من استحضار الدور الكبير الذي لعبه التصوف الشاذلي قبل ذلك وانتشاره السريع في المغرب، ومعلوم أن الشاذلي كان له موقف معاد من التصوف الفلسفي الذي عرف أوجه في عصره أي في القرن السادس مع ابن سبعين وابن عربي الحاتمي وغيرهما، وهكذا أبرز سلوكا قويما وتصوفا معتدلا عقائديا وأخلاقيا حريصا في كل ذلك على التقيد بالكتاب والسنة، وقد نتج عن تجاوز الشاذلي للتصوف الفلسفي السلبي ضرورة البحث في إنشاء وإنضاج نوع من التصوف الشعبي الذي يلائم جميع الشرائح الإجتماعية [1].

ومادام ابن عجيبة قد أخذ بمبدأ خرق العوائد وعدم الأخذ بالأسباب كما سوف نرى، فإنه من المناسب أن نلقي نظرة على موقف الشاذلي الذي يعتبر المؤسس الأول للطريقة التي تفرعت عنها الدرقاوية إزاء التصوف الإسلامي الذي كان منتشرا على نطاق واسع في كثير من المجتمعات الصوفية ألا وهو مبدأ "التخلية" و"التحلية" بمعنى تطهير القلب من كل الشهوات والملذات، وتحليتها بالمقابل بكل مقامات الزهد.

لقد وجد الشاذلي التصوف في وقته عبارة عن مجرد قشور ومظاهر، فحاول جاهدا ان يؤسس نوعا من التصوف يراه قائما على أساس من

---

(1) - J. L. Michon : op cit p 25.
وقد عقد مبحثا للحديث عن الطريقة الصوفية الشاذلية - الدرقاوية.

"التخلية والتحلية" لكن ليس وفق المنظور السائد آنئذ، بل حاول أن يعطي لذلك التصوف بعدا نظريا وأخلاقيا يقوم على أساس من الحرية الفكرية المنضبطة وغير المتحررة من حدود الشرع مع التقيد بمبادئ القرآن والسنة.

وهذا مايخلص في كلمته المشهورة "إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك : إن الله قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في الكشف" [2].

والذي نود التأكيد عليه هو أن دعوة الشاذلي كانت مؤسسة بوجه خاص، على فكرة تعارض "التصوف الحقيقي" الذي يجب الأخذ به مع مبدإ "الحلية والتخلية". الذي كان سائدا، وهو ما يعرف بمفهوم خرق العوائد، ذلك أن التصوف والحياة صنوان لا تعارض بينهما، إذ ليس التصوف كما يقول أبو الحسن الشاذلي : "بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة وإنما هو الصبر على الأوامر واليقين في الهداية".

وإذا كان مؤسس الشاذلية قد حقق بعض ما أراد من إصلاح جذري للمجتمع الصوفي بشقية الطرقي القديم والفلسفي، فإن القرون التي تلت دعوته لم تلبث أن شهدت مجددا بعض الجهود والإنحراف والخروج عن مبادئ الشاذلية وتعاليمها، لكن لم يخل عصر من العصور من مجددين من كبار الصوفية المغاربة الذين ساءتهم أحوال الناس الإجتماعية فما فتئوا يوجهون انتقاداتهم المتكررة لكل الذين مالت بهم الأهواء والإنحرافات إن على مستوى العقيدة وأن على مستوى الأخلاق. ولعل أبرز من مثل هذا الإتجاه النقدي الموجه للصوفية في وسط الطريق الفاصلة بين عصر الشاذلي وعصر ابن عجيبة، الصوفي الكبير الشيخ أحمد زروق (ت 899 هـ) المعروف بمحتسب الصوفية والذي طبعت جميع كتبه بطابع الإنتقاد ومحاولة التقويم والتسديد لبعض تصرفات وسلوكات الصوفية الذين انحرفوا عن مبادئ

(2) - أحمد بن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، 122/2.

الشاذلية التي يدعون الإنتساب إليها، ويعتبر كتابه "النصح الأنفع والجنة للمعتصم بالسنة من البدع" الذي لايزال مخطوطا[1] أبرز كتاب له في الموضوع إلى جانب كتابه الكلاسيكي "قواعد التصوف" [2].

في القرن الثاني عشر الهجري ظهر الشيخ العربي الدرقاوي (1159 - 1239) الذي لم تغب عنه الحالة المتردية التي بلغها صوفية وقته من الإنحلال والفساد والخروج عن الطريقة المثلى في التصوف لكنه لم يسلم هو بدوره من الوقوع فيما ثار عليه الإمام أبو الحسن الشاذلي قديما وهو الأخذ بمبدأ "خرق العوائد" والتجرد المطلق وإسقاط التدبير والإختيار [3].

ولابد من التنبيه في هذا السياق إلى أن الدرقاوي لم يتمكن من الرجوع والعودة إلى الأخذ من منابع أصول الشاذلية وتعاليمها إلا في أواخر حياته مع تجربة تلميذه محمد الحراق [4] (1188 - 1261) وذلك بعد فشل تجربة ابن عجيبة في الأخذ بخرق العوائد، وعلى أية حال فقد تميز التصوف الدرقاوي سواء عند الشيخ أو الأتباع أنه كان صوفيا عمليا شعبيا ذا أبعاد اجتماعية وسياسية، وهذا مايوضحه مشاركة الشيخ الدرقاوي في دفع الأتراك عن الجزائر التي شهدت ثورة تلميذه عبد القادر الفليتي عام 1220هـ [5].

عاش الشيخ أحمد بن عجيبة في ظل السلطان المولى سليمان الثمانية عشرة سنة الأخيرة من حياته (1206 - 1224). كان خلالها الناطق الرسمي باسم الدرقاوية، وقد عرفت تجربة ابن عجيبة الصوفية أزمة على المستويين

---

(1) - يقوم بتحقيقه السيد الوالد الأستاذ ادريس عزوزي المدرس بكلية الشريعة بفاس.

(2) - انظر عن هذا الصوفي الكبير كتاب د. علي فهمي خشيم (أحمد زروق والزروقية).

(3) - الكتاني، سلوة الأنفاس 177/1.

(4) - انظر عن هذا الصوفي الكبير كتاب د الصغير السابق ص 251.

(5) - محمد البشير الفاسي : قبيلة بني زروال، مطبوعات كلية آداب الرباط 1962 ص 44 وراجع الاستقصا للناصري 110/8.

السياسي والاجتماعي من جراء ثورة الفقهاء وبعض الصوفية من الأشراف الريسونيين، الذين كان لهم نفوذ واسع على المستوى الشعبي ضد الطريقة الدرقاوية، وقد حكى ابن عجيبة بعض تلك المواقف في فهرسه [1] كما سنرى ذلك.

أخذ ابن عجيبة الطريقة على شيخه محمد البوزيدي العماري الذي كان من المتشبعين بطريقة الدرقاوي في مرحلتها الأولى والقائمة على مبدإ خرق العوائد، هذا المبدأ الذي كان يؤكد عليه في رسائله الموجهة إلى تلميذه ابن عجيبة - ويحثه على الأخذ به وترك الأسباب، وهكذا نجده يقول له في إحدى خطاباته إليه : "إن من علامات الذكر الصوفي الصحيح ترك الدنيا بالكلية ظاهرا وباطنا وثانيهما السكون في الذل اختيارا وثالثها احتمال إذاية المخلوقات كلها عن طيب نفس، فإن هذا الحمل ثقيل على من هو بنفسه ولا يحمله إلا من غاب عنها غيبة أبدية" [2]، ويقول له في رسالة أخرى : "وإن أردتم مسكنتها (أي النفس) فاسلخوها من أوصافها الذميمة وألبسوها الأوصاف الحميدة سيما عند ظهور وصفها ظاهرا فذلك الوقت أسرع لقتلها من لمحة البصر وأسرع لحياتها كذلك" [3].

وإلى جانب الدعوة إلى العمل على نشر تعاليم الشيخ دأب ابن عجيبة على إصلاح المجتمع الصوفي قائم آنذاك والذي كان خليطا من الصوفية الشعبيين والارستقراطيين خاصة العيساويين والحمدوشيين والريسونيين، وقد اعترضت ابن عجيبة عقبات كثيرة أثناء مواجهته ومناقشته لشتى الفئات الصوفية التي كان يطبعها كثير من مظاهر الدجل والشعوذة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الفقهاء والعلماء هم أيضا

(1) - لايزال مخطوطا، وقد نشره مترجما إلى الفرنسية المستشرق جون لوي ميشون في مجلة أرابيكا Arabica في حلقات عامي 1968 و1969 ثم جمعها في كتاب صدر بليدن بهولندة.

(2) - تاريخ تطوان لمحمد داود245/6.

(3) - د. عبد المجيد الصغير : مرجع سابق ص 50.

قاموا ضده وضد دعوته الإصلاحية، ولم يجدوا مايبررون به عداوتهم للدعوة العجيبية سوى اتهام الشيخ بأنه قد أتى بأمور غريبة تفسد عقول الشباب وتنحرف بها إلى متاهات التصوف الفلسفي القائم على أفكار بعيدة عن المنبع الأصيل للشرع الإسلامي.

"ولما كان شعار المبدإ يدل على مدلوله فقد عملت السلطة أولا على القضاء على جميع أنواع شعارات الدرقاوية، فما إن قبض عليهم حتى أمر القائد الحاكم بتجريد كل درقاوي من تسبحته" و"مرقعته" وعكازه قبل أن يأمر بإلقائهم جميعا في زنزانة المجرمين [1].

دخل ابن عجيبة رسميا في الطريقة الدرقاوية عام 1208 أي بعد سنتين من تولي السلطان مولاي سليمان زمام الحكم، وقبلها بسنوات عدة كان الشيخ يكثر من مطالعة كتب الصوفية في الزهد والأخلاق، ولعل أهم كتاب تأثر به في الموضوع هو كتاب "الحكم العطائية" لابن عطاء الله السكندري والذي كان يدرسه أستاذه الجنوي مع بعض كتب التصوف الأخرى. ويعتبر فهرس الشيخ أهم مصدر للتعرف على فترات حياته التي تأثر بها سلوكا وأخلاقا، وفيه يحدثنا عن التأثير العميق الذي أحدثته الحكم العطائية في مسار فكره وحياته الصوفية، يقول : "وسبب انتقالنا من العلم إلى العمل إني وجدت نسخة من الحكم لابن عطاء الله فنسختها، ثم طالعت شرح ابن عباد الرندي، فلما طالعته زهدت في العلم الظاهر وانتقلت إلى العبادة والتبتل بذكر الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم حببت إلى الخلوة وأبغضت الدنيا وأهلها، فكنت إذا أقبل علي أحد فررت منه ..." [2].

هكذا إذن يكون قد انتاب ابن عجيبة قلق ديني وتوتر نفسي طالما

(1) - إشكالية إصلاح الفكر الصوفي ص 194.

(2) - J. L. Michon: L'autobiographie du Soufi marocain Ahmed Ibn Ajibe. Leyde 1969 p 63

طال كثيرا من السادة الصوفية، ويبدو أنه قد ندم على فترة العمر التي أضاعها في تعلم واكتساب علوم الظاهر دون الإنتباه إلى علوم الباطن، لقد عاش فعلا مرحلة أزمة فكرية شبيهة لما يحدث غالبا لبعض كبار المفكرين والفلاسفة، لقد احتار في كيفية الإختيار بين المعرفة العلمية والمعرفة الصوفية، وهكذا استمر به الحال كذلك وبقي مدة طويلة حائرا لا يدري الحكم الفصل إلى أن اهتدى إلى أن علم الشريعة وحده لا يكي كما أن علم الحقيقة مجردا لايكفي إيضا، فالكمال في الجمع بينهما وهو الجمع بين الإسلام والإحسان، وهذا ما كرس له حياته ونبه عليه في كثير من كتبه وخاصة في تفسيره الإشاري "البحر المديد".

كما نجد ابن عجيبة قد لمح إلى هذا قبل دخوله في الطريقة، وذلك مايتبين من خلال بعض كتبه التي ألفها على طريقة أهل الظاهر [1].

لقد اعتبرت هاته الفترة الحاسمة من حياته (قرابة العقدين) منعطفا بين فترتين اتسمت أخراهما بالإنضمام رسميا إلى الطريقة والدفاع عن تعاليمها ومبادئها، ولم يكن هذا الإنضمام مجردا عن سلوك طريق التربية والتلقين فكان لابد من اتخاذ شيخ مرب "فمن لاشيخ له فشيخه الشيطان" كما يقول [2].

وكما بحث ابن عجيبة عن شيخ مرب كان كل من الشيخ الدرقاوي ومحمد البوزيدي يبحثان أيضا عمن يقوم بمهمة نشر التصوف الشعبي الذي طالما دعيا إليه[3]، وقد وجدا بغيتهما في ابن عجيبة العالم الزاهد الذي

---

(1) - Michon : op cit p 7.

(2) - ونجده يقول أيضا في شرحه على الحكم : "وأما من لم يصل إليه (أي الشيخ) فلا يطمع في السير أبدا، ولو جمع العلوم كلها وصحب الطرائف كلها فقد صلينا كثيرا وصمنا كثيرا واعتز لنا كثيرا، والله ماعرفنا قلوبنا ولا ذقنا حلاوة المعاني حتى صحبنا الرجال أهل المعاني"، إيقاظ الهمم 165/2 وانظر الفهرس ص 72.

(3) - وقد حاول الدرقاوي مرار التلميح إلى تلميذه بأنه المرشح لذلك والمؤهل للقيام بمهمة العالم المدافع عن سنية التصوف الدرقاوي.

جمع بين علم الظاهر وعلم الباطن، وإذا كان ابن عجيبة قد تعرف على شيخه الدرقاوي قبل ذلك، بحوالي ثلاثين سنة فإن لقاءه بالبوزيدي لايعدو أن يكون حديثا جدا (1205 – 1208)، وبفضل هذا الأخير تمكن ابن عجيبة من الخروج من أزمة الإختيار التي أرهقته طويلا حيث عبر ابن عجيبة عن اتباعه لشيخه بقوله : "ثم صحبت شيخنا العارف الرباني سيدي محمد البوزيدي الحسني سنة ثمان من القرن الثاني عشر فتجردت واشتغلت بالمجاهدة حتى لاحت علينا أنوار المشاهدة ..." [1].

هكذا إذن أمكن القول بأن عام 1208 كان يمثل بالنسبة لابن عجيبة بداية حياة جديدة قد تمكن بعدها وإلى سنة وفاته أي لمدة ستة عشر عاما أن يؤصل فكرا صوفيا خلاقا وظفه في تجربة صوفية كان لها كبير الأثر في مسار إصلاح الفكر الصوفي على عهد السلطان المولى سليمان، وهي تجربة وإن لم تكلل بالنجاح التام نتيجة اعتماده في تجربته تلك على أساس خرق العوائد كما سلف أن بينا، وقد سجل لنا في فهرسه (حسب الترجمة الفرنسية ص 81) تجربته في التطهير والتخلية والتحلية، حيث أكد على أن سلوك طريق القوم يفترض العمل بالذكر الجهري والعلني بوجه أخص ولباس المرقعة الصوفي ثم الأخذ بمفهوم خرق العوائد، مستأنسا في ذلك بأقوال ابن عطاء الله[2]، الذي يعتبر أشهر من نظر وأسس مبدأ اسقاط التدبير [3] وذلك في كتابه (التنوير في اسقاط التدبير) يقول ابن عجيبة مثلا في تفسير قوله تعالى : "ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين" الآية [4].

(1) – تاريخ تطوان 243/6.

(2) – انظر على سبيل المثال قولته في الحكم : "كيف تخرق تلك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد" وراجع تفسيره (البحر المديد) مخطوط الخزانة الحسنية رقم 3329. ج 1 ص 59.

(3) – Cf : Paul Nwiya : Ibn Ata' Allah et la naissance de la confrérie Šādilite, Beyrouth 1972.

وراجع دايو الوفا التفتازاني : لفي عطاء الله السكندري وتصوفه، القاهرة 1969، وكذا مادة أبن عطاء الله في E 12.

(4) – البقرة 153.

"ياأيها الذين آمنوا بطريق الخصوص (استعينوا على طريق حضرتنا ومشاهدة أنوار قدسنا بالصبر على ماتكره النفوس من ترك الحظوظ والشهوات والميل إلى العادات والمألوفات وبالصلاة الدائمة وهي صلاة القلوب بالعكوف في حضرة الغيوب... ولا تقولوا لمن ترونه قتل نفسه بالذل والاحتقار بخرق العوائد وخلع العذار إنه قد مات بل هو حي لا يموت، قال تعالى : "لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى"، فإذا ماتت نفس المريد واستوى عنده الذل والعزة والمدح والذم والغنى والفقر والموت والحياة فقد حييت روحه ..." [1].

وفي تجربته في خرق العوائد هانت على ابن عجيبة كل الأسباب المؤدية لذلك فعرف عنه أنه كان يتسول الناس وينظف الأسواق ويحمل الأزبال ويطرق البيوتات بل بلغ به الأمر أن باع بعض كتب "علم الظاهر"، ولم يعد يأبه بالأشتغال بها ولا الرجوع إليها، وكان يرى في كل ذلك قتلا للنفس وتخلصا من القيود والعادات والأسباب التي لا تفيد الإنسان في معرفة مركزه في الوجود وتأمل واقعه ومصيره ومسؤوليته.

لم تجد دعوة ابن عجيبة آذانا صاغية ولا حتى تجاوبا أو تعاطفا بل على عكس ذلك فقد آثار حفيظة جميع أعيان تطوان وأشرافها وعلمائها[2]، كما أن الطوائف الصوفية الأخرى قد وجدت في ثورة عامة الناس على الشيخ فرصة اهتبلتها للتشنيع عليه ومواجهته وذلك بتحريض الحكام عليه على اعتبار أن دعوته انقلابية من حيث أنها تدعو إلى التغيير وتعارض الحالة التي عليها المجتمع المغربي وماتقتضيه الأوضاع الأخلاقية المتعارف عليها.

(1) - البحر المديد "الجزء الأول ص 35.

(2) - ذكر ميشون أن مسألة خرق العوائد التي عرف بها ابن عجينة قد انتقلت إلى أحد تلامذة عبد القادر بن عجيبة والذي خلفه في منصبه خلافة الطريقة وهو الشيخ أبو عبد الله محمد المفضل بن الحسن الزيات الخرشفي وقد ترك لنا كتابا مطبوعا (1966)، انظر : Michon : Le sonfi Marocain

وهذا ماحدث فعلا في المواجهة التي كانت بين الدرقاوية والريسونية والتي تجلت بشكل واضح في دعوة الأولى إلى شرف التقوى وتزكية النفس في حين كانت الثانية تفتخر بشرف النسب الثابت لهم، فكان بينهما تناقض فكري من جهة وتناقض اجتماعي من جهة أخرى فالدرقاوية وعلى رأسها ابن عجيبة قد أنكرت على الريسونية إدعاءها التوجيه الصوفي والديني دون باقي الناس واستغلالها للنسب الشريف في الاستقلال بحق التربية السلوكية دون غيرها من الطرق، كما أخذت عليها عدم اعتراضها ضد مظاهر الإنحلال الفكري والخلقي والاستهتار بمبادئ الدين مما كانت تأتيه علنا الطريقة العيساوية وغيرها، وهذا ماجعل الريسونيين يدركون واعين أن دعوة ابن عجيبة الجديدة القائمة على أساس التخلية وخرق العوائد لن تكون حتما في صالحهم وهم الذين طالما استفادوا من وراء ذلك الشرف المثبت لهم مراكز اجتماعية مهمة ونفوذا معنويا كبيرا وصداقة السلطان لهم، ومن هنا نعلم سر عداوة الحركة الريسونية لابن عجيبة ومساندتها للعلماء والحكام في تألبهم ضده، وهذا مايشير إليه ابن عجيبة في فهرسه حينما يتهم بعض الأشراف بوقوفهم ضد الدرقاوية.

ولهذا وفي هذه الظروف المجتمعية قام ابن عجيبة بدعوته لإصلاح الفكر الصوفي على واجهتين، فكانت الأولى ضد مراسم الطرقية الزائفة التي هي عبارة عن مجرد طقوس تافهة لا تتجلى فيها أدنى مبادئ التوحيد الخالص الذي جاء به الإسلام، أما الواجهة الثانية فكانت ضد زيف تلك الطبقة المستعلية بنسبها وجاهها والتي لم تع حقيقة التصوف ولم تقدرها حق التقدير بل قضت على روح التصوف ولبه، إذ التصوف ثورة روحية لايتفاخر فيها بالمال والنسب بل بالتقوى وتطهير النفس [1]. كما أنكر عليهم كونهم يسكتون عن المنكر والظلم المتفشي، بل تعدوا للتسلية والتفرج على مظاهر الإنحلال الصوفي المنتشر.

(1) - د عبد المجيد الصغير : مرجع سابق ص 226.

ثارت حفيظة الريسونيين وبعض العلماء فكانوا يتحينون أية فرصة للإيقاع بابن عجيبة واتباعه إلى أن جاءت التهمة ضد أخيه الهاشمي ابن عجيبة فزج به السجن وأبى أخوه الشيخ أحمد بن عجيبة إلا أن يرافقه في سجنه، فسجن معه كثير من الدرقاويين، واجتمعت هيئة المحكمة التي كانت تتكون من العلماء والأعيان فاتهم ابن عجيبة بأنه يفسد الناس وأبلغ أمره إلى السلطان المولى سليمان، فأرسل إلى قائده بتطوان يقول له[1]: "إن لم يرجع الفقيه ابن عجيبة عن ذلك فقيده بالسلاسل واسجنه ثم أرسله إلي". فلم ير ابن عجيبة أمام هذا التهديد سوى الإذعان أمام المحكمة والإحتماء بالتقية فكتب لهم شهادة بذلك وقلبه كما يقول (مطمئن بالإيمان)، ثم أخرج من السجن هو وأخوه، لكن دون أن يسلم من المتابعة والمطاردة [2].

وقد أورد الأستاذ محمد داود رحمه الله في تاريخه [3] سبب مطاردة الدرقاويين ثم محاكمتهم فأرجع ذلك إلى احتمالين :

1 - أما أن العلماء خشوا أن تتسرب عدوى ابن عجيبة إلى خرق العوائد إلى غيره فيضيع العلم الظاهر الذي يقوم به العلماء.

2 - وإما أن الكلام في "الحقائق" على اصطلاح الصوفية لم يكن معروفا ومنتشرا في تطوان حتى جاء ابن عجيبة الذي أصبح يقارن بين العلم الظاهر والعلم الباطن، الشيء الذي أغضب العلماء فقاموا باضطهاد الدرقاوية.

هكذا إذن تكون الدعوة العجيبية قد قوبلت بالطرد والتضييق مما نتج عنه اعتبار الدرقاوية في شمال المغرب طريقة محظورة، ولم يسمح لها

(1) - Michon : L'autobiographie p 87.

(2) - عبد المجيد الصغير : مرجع سابق ص ص 156-158.

(3) - تاريخ تطوان 211/3.

بالاستقرار بتطوان لممارسة التعاليم والأوراد، فتم خروج جميع الدرقاويين منها وتفرقوا في المدن المغربية الأخرى حتى بلغوا بعض المدن الجزائرية.

وهكذا وعلى عكس ماعرف في تاريخ التصوف من سجن الصوفية لزندقة أو خروج عن مبادئ الدين فإن ابن عجيبة لم يسجن لشيء من ذلك وإنما لأحداثه للإضطراب في المجتمع التطواني [1].

ويبدو من خلال الفهرس أن معاناة ابن عجيبة والمحنة التي اعترضت سبيل دعوته قد انتهت في حدود سنة 1214، فتبين أنه قضى ولاشك السنوات العشر الأخيرة من حياته في هدوء واستقرار. فبعد أن فقد معظم أبنائه من جراء الطاعون الذي اجتاح البلاد في تلك السنة لم يجد مايشغله عن التفرغ للكتابة والتأليف [2] ثم الدعوة إلى الله بعيدا عن مدينة تطوان.

انتهت محنة ابن عجيبة وانقضت محاكمة الدرقاوية نسبيا فتبين للشيخ العربي الدرقاوي - وقد بقي حيا بعد وفاة ابن عجيبة - أن التجربة التي انتدب لها تلميذه لم تؤد إلى الغاية المرجوة في نشر وبث تعاليم التصوف الشعبي والأخلاق الصوفية في المجتمع التطواني، ويبدو أن الشيخ العربي الدرقاوي وقد وعى جيدا بهذا الفشل حاول إصلاح ذلك بإعادة التجربة مرة ثانية لكن مع عالم آخر، وبمبادئ وتعاليم أخرى تفاديا للوقوع في أخطاء التجربة الأولى التي لاشك أن من أبرزها الأخذ بخرق العوائد وعدم الأخذ بالأسباب والعادات.

وهكذا رشح العربي الدرقاوي لهذه المهمة عالما من علماء تطوان هو محمد الحراق.

---

(1) - J.L. Michon : Le Soufi Marocain Ibn Ajiba p 56.

(2) - لقد ألف ابن عجيبة في السنوات العشر الأخيرة من حياته كثيرا من الكتب الصوفية. ونذكر على سبيل المثال تفسيره للقرآن الكريم الذي قدمه للشيخ محمد الحراق عام 1223.

خاتمة

إذا كانت طريقة ابن عجيبة في الدعوة إلى إصلاح الفكر الصوفي في عهد المولى سليمان قد اتسمت بشيء من المبالغة وعدم المرونة لتفادي الإصطدام مع السلطة والمجتمع فإن الناس الذين ناصبوه العداء وقاوموا دعوته قد بالغوا بدورهم في ذلك ولم يحاولوا فهم حقيقة الإصلاح العجيبي الذي حاول الشيخ المكودي في كتابه (الإرشاد والتبيان في رد ماأنكره الرؤساء والأعيان من أهل تطوان) والذي ألفه عام 1210 أن يوضحه للناس، فدافع فيه عن موقف الدرقاوية من الخروج عن الأعراف المجتمعية وبين المقصود من التجريد والتطهير جملة أي من لبس المرقعة والتجرد من المال، وسؤال الناس مؤقتا، بل ان ابن عجيبة نفسه كان يوضح في كثير من المناسبات بطريقة غير مباشرة أن مبدأ التخلية والتحلية لها دلالات تربوية صوفية، وليست مطلوبة لذاتها، ومن ثم كانت هذه الأخلاق أخلاقا مؤقتة[1].

أما موقف السلطان مولاي سليمان من ابن عجيبة فكان واضحا جدا حيث كان يحاول جاهدا المحافظة على الأمن والاستقرار بين فئات المجتمع المغربي، ولهذا لما كانت دعوة ابن عجيبة خارجة عن المألوف والعادة وتبين أن عدة شرائح في المجتمع قد ناهضت تلك الدعوة مما أصبح يشكل خطرا كبيرا، اضطر السلطان إلى اتخاذ موقف حازم إزاء الطائفة الدرقاوية بصفة عامة ضمانا للهدوء والاستقرار السياسي والاجتماعي.

(1) - الإرشاد والتبيين للمكودي ص 233.

الندوة الثالثة

الانجازات الثقافية والعمرانية
على عهد السلطان مولاي سليمان

عهد السلطان مولاي سليمان
إشعاعات داخلية ... وخارجية ...

عبد القادر زمامة
كلية الآداب/فاس

استقبل المغرب حكومة وشعبا بعد عهد السلطان المرحوم سيدي محمد بن عبد الله الذي أرسى قواعد الدولة ورسم لها خطوط مسيرتها ... عهدا جديدا تسابقت فيه الأحداث داخليا وخارجيا، إلى مكان الصدارة ومركز الإهتمام ... وتشابكت فيه المستجدات والمصالح والأطماع ... ترفعها رافعة ... وتخفضها خافضة ... وكأن التاريخ كان على موعد مع العهد السليماني في المغرب، ليفجر طاقاته .. وينشر مخبآته ... ولاسيما في الأقطار الأروبية، ودول البحر الأبيض المتوسط المجاورة والظاهرة الفذة التي تواجه الباحثين والدارسين الذين يضعون العهد السليماني في إطاره الحقيقي من التاريخ العام ... وزاويته الخاصة من تاريخ المغرب .. هي : أنهم لايشكون من قلة المصادر ... ! ولا من إشكالية غموض الأحداث والمواقف ... ! ولا من ضياع الوثائق والمستندات ... ! ولكنهم على العكس من ذلك. يشكون من أشياء أخرى هي : هذا الخليط من المؤلفات والمؤلفين والأقوال. والتفسيرات والاهتمامات المتنوعة عند مؤرخي هذا العهد السليماني. لافرق في ذلك بين المؤرخين التقليديين الذين عاصروا الأحداث في المغرب، أو نقلوا عمن عاصرها ... وبين الباحثين والدارسين الجدد المعتمدين في تحليلاتهم على السجلات والوثائق والمستندات المتوفرة في دور المحفوظات .. مغربية، وغير مغربية ...

لهذا الاعتبار المنهاجي والموضوعي في نفس الوقت ... ينبغي أن نتخطى هذه الظاهرة، وأن نحمد للمؤرخين التقليديين مجهوداتهم. وأن نقدر للمؤرخين الجدد اهتماماتهم وتفسيراتهم. وأن نستعرض هنا بعض الإشعاعات الداخلية والخارجية التي واكبت العهد السليماني بالمغرب وكان لها طابع خاص ...

كانت القضية الشائكة الأولى التي واجهت السلطان مولاي سليمان. هي قضية التفرقة والتمزق والصراع على الوصول إلى الحكم بعد نهاية حكم مولاي اليزيد... وكان ينظر إليها نظرة الحكيم، المتبصر المتعمق في فهم الأحداث وخلفياتها ... ويعلم بحدسه أن القضية إذا لم تحسم بالتغاضي والصبر واليقظة والتدبير السياسي، فإنها لا تلبث أن تصير ورقة في يد الخصوم والأعداء يحركون بها إعصار الفتنة تمهيدا لفرض مخططاتهم وتحقيق أطماعهم المعروفة .. ! في هذه البلاد .. !

فاستعمل التدبير السياسي قبل التدبير العسكري ... وانطلق يرسل إشعاعاته في طول البلاد وعرضها يجادل ويناقش ويحاور ويخاطب النيات الصالحة. والإرادات الحسنة معتمدا على وضوح مقاصده ونصاعة حجته محذرا من الخيوط السرية والعلنية التي أخذت الأطماع الأجنبية تحرك بها بعض الجهات ... وكانت النتائج في الجانب الذي تحدث عنه المؤرخون والدارسون بتقدير وإكبار .. !

ويأخذ الكلمة منا هنا المؤرخ أبو العباس الناصري ليتحدث في فقرة ذهبية حقا، رسم في مرآتها صورة ناصعة لهذا الملك الذي سبقت إشعاعاته الشخصية تدبيراته العسكرية، والذي حسم هذه القضية حسما دخلت به أحداثها في ضباب النسيان ...

وكانت القضية الثانية الشائكة التي واجهت مولاي سليمان بعد سنوات الخصب والعطاء الفلاحي الأولى هي سلسة التمردات التي عمت

البلاد ونشرت القلق والخوف. حيث كان هذا التمرد يأخذ أساليب شتى في أسواق البادية. وأحواز المدن الداخلية، والمراسي البحرية، وكان محركو هذه التمردات ينتمون إلى عناصر من المشبوهين والمشعوذين ويستعملون عامة الناس وخاصتهم لتحقيق أهدافهم ومطامعهم الشخصية في الوصول إلى السلطة والنفوذ .. !

فكان من المتعين إذ ذاك أن يقرن إشعاعاته وتدبيراته السياسية بالمواجهة العسكرية حفظا لكرامة الدولة ... وإبقاء على وحدتها وهيبتها ...

وهنا يأخذ الكلمة منا عدد من المؤرخين المعاصرين للأحداث وفي مقدمتهم :

- أبو القاسم الزياني
- وأبو عبد الله أكنسوس
- والمؤرخ الضعيف
- وأبو الربيع الحوات

وكلهم يتحدث في المؤلفات والرسائل التي رأينا عن هذه التمردات بدأ ونهاية وزمانا ومكانا وأسبابا ونتائج فيظهر جليا للدارس الباحث ماكان هناك من إشعاعات سليمانية في الحكم والعدل والرحمة ... فعلت ما لم تفعله القوات العسكرية في تهدئة الأعاصير وإطفاء نار الفتن ..! والمحافظة على وحدة البلاد ...

ويأخذ الكلمة منا هنا عدد من الشعراء الذين صوروا المواقف، وسجلوا التحركات والحركات وفي مقدمتهم :

- حمدون ابن الحاج
- وسليمان الحوات
- والزياني
- وأكنسوس
- وابرهيم الرياحي التونسي ... وغيرهم ...

لنجد في قصائدهم أصداء الإشعاعات السليمانية التي كانت سمة السياسة وعنوان التدبير ونهاية المطاف ...

ومعلوم أن العهد السليماني في المغرب استمر أكثر من ثلاثين سنة وأن هذه المدة شاهدت تقلبات سياسية ... كما شاهدت تقلبات طبيعية ... خصبا وجدبا ... وكل ذلك له انعكاس على الحياة العامة في المغرب ... وكان السلطان مولاي سليمان حاضرا بشخصه وإشعاعه في كل موقف ليتخذ التدبير المناسب في الوقت المناسب .. وليخرج من الأزمات بالحل المناسب ...

ويأخذ الكلمة منا هنا المؤرخون المعاصرون ليفصلوا الحديث عن القضية المعروفة بقضية تلمسان والمهاجرين من التلمسانيين ... وكيف طوى مولاي سليمان صفحتها بذكاء، وشهامة ونبل وسياسة ... كانت منقبة من المناقب ومفخرة من المفاخر ...

كما يفصلون الحديث عن المساعدات التي قدمها مولاي سليمان لأقطار المغرب العربي الثلاثة التي كانت معرضة لهجمات وحصارات بحرية بسبب مافجرته حروب نابليون في أروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط ... وكانت هذه المساعدات تشمل الأقوات ... والسفن ... والدعم السياسي والدبلوماسي ... ووثائق ذلك متوفرة لمن زار قسم السجلات والمستندات في مكاتب مغربية ... وغير مغربية ...

ويزخر العهد السليماني بخصب علمي وأدبي صار فيه العلم سمة متجلية في المجتمع المغربي في المدن والقرى ومرافق الدولة ووظائفها ... كما صار الأدب شعرا ونثرا سمة متجلية في المناسبات والمراسلات والمؤلفات والمجالس المنعقدة لدراسة الموضوعات المتعددة ...

وكثيرا ماتكون هذه المجالس منعقدة تحت رئاسة مولاي سليمان نفسه ... وهو الذي أظهر كفاءته العلمية قبل الجلوس على عرش المغرب ... وبعد جلوسه ... وقد شهد له بذلك أعلام مشهورون ... كما شهد بذلك له ماكان

يقدم من إجابات وإرشادات وإنتقادات موضوعية في المجالس العلمية التي يترأسها في مراكش وفاس ومكناس وغيرها من مدن المغرب ...

ولا ننسى أن العهد السليماني في الناحيتين العلمية والأدبية والملامح الفكرية. كان استمرارا طبيعيا لعهد سيدي محمد بن عبد الله. وأن هذه الثمار من تلك البذور...

كما لاننسى أن قضية الإصلاح والتفكير السلفي المنبعثة من الحجاز قد أخذت حيزا ملحوظا في المغرب وشغلت الأفكار والأقلام، والشعر، والنثر في حين كانت لها تلك المواقف السلبية في كثير من الأقطار الشرقية الخاضعة لحكم وسياسة العثمانيين كما هو معلوم ...

ومن المصادفات التاريخية التي حدثنا عنها شيخ الحركة السنوسية أبو عبد الله محمد بن علي السنوسي دفين جغبوب أنه انتقل إلى فاس وكان من طلبة القرويين في العهد السليماني واستمر طلبه للعلم هناك سنوات طويلة لازم فيها دروس :

- حمدون ابن الحاج
- والطيب ابن كيران
- وادريس العراقي
- ومحمد اليازغي

وغيرهم من أعلام ذلك العهد الخصب بالأساتذة والمدرسين والمؤلفين ...

كما أن الشيخ أبا العباس التجاني إلتجأ إلى السلطان مولاي سليمان بفاس فأحاطه بهالة من الإكرام والتقدير فصل المؤرخون جوانب منها ... كما فصلوا خطوات مسيرة الطريقة التجانية في غرب افريقيا ...

فإشعاعات مولاي سليمان كانت تحركها سياسة امتنع بجدواها لمد الجسور ... افريقيا ... وعربيا ... وإسلاميا ...

أما الجوانب الأخرى من السياسة الخارجية المتعلقة بدول أوربا والبحر الأبيض المتوسط ... فإن الزوابع التي أحدثتها حروب نابليون ... والصراعات المتعددة الجوانب التي خاض غمراتها من مسكو إلى مدريد ... ومن القاهرة إلى عكا ... جعلت مولاي سليمان محط أنظار المتصارعين الأقوياء منهم والضعفاء ... يطلبون التحالف ... والمعونة والدعم ... ولا سيما مايرجع للأقوات والسفن ... وتجهيزاتها ... والمعدات المعدنية والنباتية ...

فكان ملك المغرب يدرك أن هذه الحروب التي امتدت رقعتها من أوربا إلى آسيا وافريقيا ... لا ناقة له فيها ولا جمل ... لاسيما وقد بدأت تسفر عن وجهها ... وتصيب بلهيبها أقطارا إسلامية ... وتحاصر أخرى ...

لهذا تملص من التحالفات ... ولكنه راسل وأجاب ... واستقبل المندوبين ... والمبعوثين في حدود اللياقة السياسية ... واللباقة الدبلوماسية ... شارحا وجهة نظر المغرب في إلتزام الحياد الإيجابي بمعناه في ذلك العهد الشيء الذي آثار حفيظة المؤرخين الأجانب حين كتبوا عن العهد السليماني ماكتوبا ...

فسموا الحياد تزمتا ... والابتعاد عن الخصومات تعصبا ... لأنهم كانوا ينظرون على عادتهم بمنظار غير المنظار الذي ينظر به المعنيون بالأمر إلى الأحداث الجارية.

وظلت إشعاعات السلطان مولاي سليمان في الأحوال الداخلية ... والأحداث الخارجية إشعاعات ملهمة ... تدل على أداء رسالته بصدق وأمانة وذكاء ... كما تدل على قدر وافر من الابتكار والاجتهاد ... لمجابهة الأحداث ... أكثر من ثلاثين سنة...

مراجع ومصادر

اعتمدنا في تحرير هذا التدخل على مايأتي :

1) - مخطوطة ابن الربيع الحوات في محاسن دولة مولاي سليمان

2) - مخطوطة الزياني : المسماة الروضة السليمانية

3) - مخطوطة المجموعة الشعرية التي مدح بها حمدون ابن الحاج مولاي سلميان

4) - الجيش العرموم لاكنسوس طبعة حجرية.

5) - العز والصولة ... : عبد الرحمن بن زيدان

6) - الاستقصا: أبو العباس الناصري.

7) - أزمة المغرب الأقصى لروم لاندو.

8) - كشف الحجاب لأحمد سكيرج

9) - إيقاظ الوسنان لمحمد علي السنوسي ....

10) - التيارات السياسية المعاصرة لعبد الحميد البطريق.

العمارة الدينية في عهد السلطان المولى سليمان دراسة مقارنة لجامعي الرصيف بفاس وابن يوسف بمراكش

أمينة المغاري
كلية الآداب / الرباط

مقدمة عامة :

يتناول موضوع مداخلتنا هذه الدراسة الأثرية لكل من جامعي الرصيف بفاس وابن يوسف بمراكش. ليس هدفنا هنا القيام بمونوغرافيات مدققة ومفصلة لكل جامع على حدة بل نطمح من خلال دراسة مقارنة للبنايتين إلى القيام بحصيلة مختصرة للعمارة الدينية في عهد المولى سليمان من خلال أهم نماذجها المدروسة (الرصيف بفاس كأول جامع للسلطان وابن يوسف كنموذج للبنايات المتأخرة على عهده).

استطاع المولى سليمان، رغم الظروف غير الملائمة التي تتمثل في مجموعة من الاضطرابات الداخلية [1] والخارجية، تشييد مجموعة مهمة من العمارات الدينية والمدنية في مختلف المدن المغربية.

(1) - عرفت هذه الفترة مجموعة من الانتفاضات الداخلية والأهوال الطبيعية نذكر على سبيل المثال: وباء 1799 - 1800 ثم وباء 1815 - 1817 تلتها سنوات المجاعة مابين 1817 - 1818. عن نتائج الوباء الأول أنظر
El Bezzaz (Med Amine), "la peste de 1798-1800 au Maroc" in HESPERIS-TAMUDA-Vol XXIII, 1985, pp 57-81.

وقد نالت المساجد والجوامع الحظ الأوفر من اهتماماته إذ خلف، حسب المصادر التاريخية، على الأقل ثلاثة وعشرين مسجدا وجامعا [2].

ينطلق بحثنا هذا من دراسات ميدانية أخذت بعين الاعتبار كلا من التوزيع الهندسي للجوامع وشكلها العام سواء المعماري أو الزخرفي. فما هي إذن الملامح الرئيسية لكل نموذج على حدة ؟ وماهو الطابع المميز لكل بناية ؟ فمما لاشك فيه أن لكل فترة طابع فني خاص تتحكم فيه عوامل تاريخية وجغرافية واقتصادية واجتماعية...

- I - جامع الرصيف (بطاقة تعريف).

1 - الموقع والتاريخ :

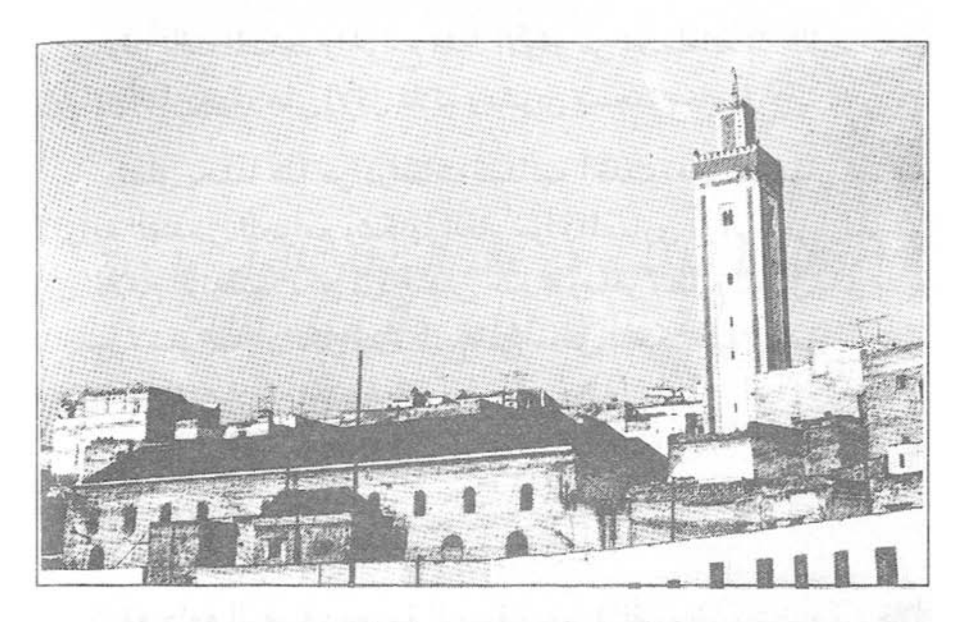
يقع جامع الرصيف بحومة الرصيف بعدوة القرويين. ويتضح من خلال النصوص التاريخية أنه أول جامع بناه المولى سليمان. فقد وضعت الأسس الأولى للجامع على يد السلطان المولى يزيد الذي لم يتمكن من إتمامه نظرا لقصر مدة حكمه (1790-1792). وقام المولى سليمان من بعده بإنهاء العمل به - يتوفر الجامع على مجموعة من النقائش الخطية وهي :

- نقائش على باب الرصيف (المؤدية لزنقة الرصيف) وهي عبارة عن قطعة من المرمر كتب عليها : "مسجد الرصيف أسسه المولى سليمان العلوي بتاريخ 1206 هـ" وتوافق 1791 - 92. وهي السنة التي بويع فيها المولى سليمان.

- نقوش أخرى بأحد جدران الصحن تشير إلى تاريخ آخر هو 1210 هـ/1795 - 96م.

---

(2) - انظر أطروحة :
Mina El Mghari-Baïda, les mosquées à Khotba de Moulay Sliman. thèse inédite - tableau d'inventaire, pp. 30-33.



جامع الرصيف : منظر عام



جامع الرصيف : الباب الرئيسي (تفاصيل الزخارف)

- على السقاية الملحقة للجامع تاريخ آخر 1208 هـ/ 1793 - 94 م.

إن التواريخ المحصية إذن تقع مابين سنتي 1792 - 1796. هل هذا يعني أن أعمال البناء دامت على الأقل أربع سنوات ؟ لقد مكنتنا الدراسة التفصيلية لهذه النقوش (شكل الخطوط - تركيب الجمل) من إثبات عدم إنتماء هذه الخطوط لفترة المولى سليمان ويتضح أنها وضعت مؤخرا إثر عمليات الترميم التي شهدها الجامع[1]. وتثبت المعلومات المستقاة من كتاب الضعيف الرباطي أن أعمال البناء ابتدأت يوم 2 جمادى 1210 هـ/ 14 نونبر 1795 م، وقد مكنتنا هذه المعلومات من وضع هذا الجدول :

(1) - لقد عرف الجامع مجموعة من الترميمات في الستينات حسب وثائق أحباس مدينة فاس.

جدول كرونولوجي لأعمال البناء بالرصيف انطلاقا من كتاب الضعيف [2]

التاريخ	البناء
2 جمادى I 1210 14 نونبر 1795	بداية بناء باب جامع الرصيف بالحجر المنجور بحضور المعلم الحسن السوداني. ص - 264.
22 ذو الحجة 1210 28 يونيو1796	تعليق ثريا من البلار. بجامع الرصيف، وقد اشتراها الحاج محمد بن جلون القعود من ماله الخاص من بلاد الروم ب 50 مثقالا. ص 272
9 ربيع I 1211 13شتنبر1796 م	اتمام تسقيف الرصيف وبداية بناء الصومعة 100 شبر بشبر السلطان ارتفاعا و22 شبرا عرضا. ص 276
السبت 8 رجب1211 7يناير1797	بداية تزليج الجامع الدائر بالرخام ص 280
الثلاثاء 15 رمضان 1211 14 مارس1797	نهاية أعمال التزليج ص 282
17 ذو الحجة 1211 13 يونيو1797	إتمام صومعة الرصيف. ص 290
26 ذو الحجة 1211 22 يونيو1797	إرسال خصة رخامية إلى الجامع من طرف السلطان. ص 290
28 ذو الحجة1211 24 يونيو1797	إرسال خصة أخرى من فاس الجديد من طرف السلطان كذلك. ص 290
الخميس 28 محرم 211 24 يونيو1797	تنصيب الخصتين من طرف عبد القادر عياد والحسن السوداني بعد صلاة الظهر ص 291

(2) - الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف. تحقيق محمد العماري، الرباط، 1986.

إذن فأعمال البناء حسب الجدول ابتدأت يوم 2 جمادى 1210 هـ وانتهت يوم الخميس 14 محرم 1212 هـ. غير أننا نرى أن أعمال البناء قد تكون بدأت قبل 1210 هـ/ 1795 بقليل نظرا لكون الضعيف إنما يعطي تاريخ تشييد باب الجامع، ومن المنطقي ألا تتم البداية بالباب.

طرأت على البناية عدة تغييرات وعرفت مجموعة من الترميمات نذكر منها :

- إصلاحات عامة مست بالخصوص المظهر الخارجي للمبنى وذلك من طرف مصلحة الأحباس سنة 1962 ومن هذه الأعمال :

- تبليط الصحن بالزليج وإزالة الخصتين الرخاميتين مع إضافة ظلة مقببة على الصهريج المركزي.

- ترميمات خاصة بملاط الجدران

- إغلاق الميضاءة الأصلية من جهة باب الرصيف

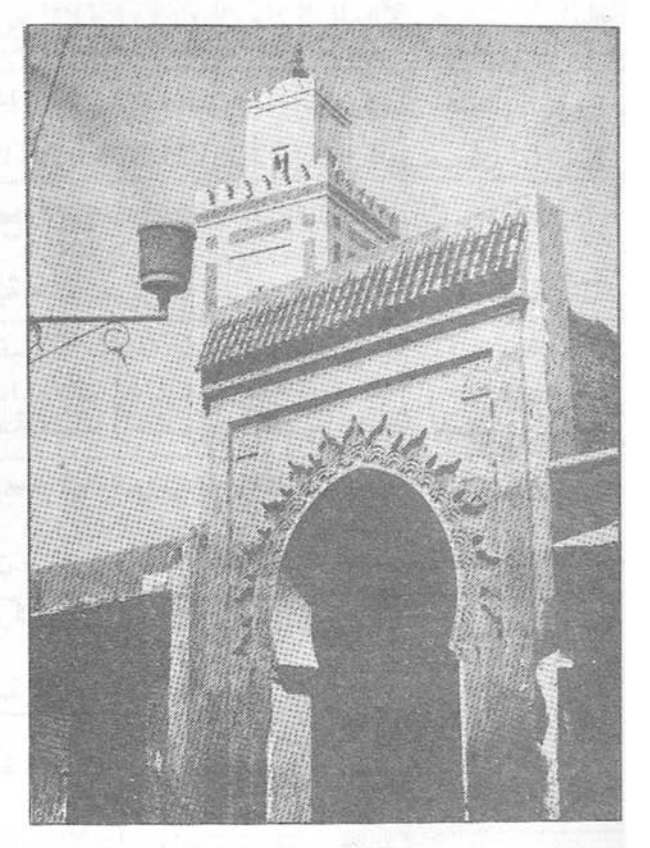
- إغلاق باب المدارج الأصلي وتعويضه بباب جديد.

2) - الوصف للمرافق العامة للجامع :

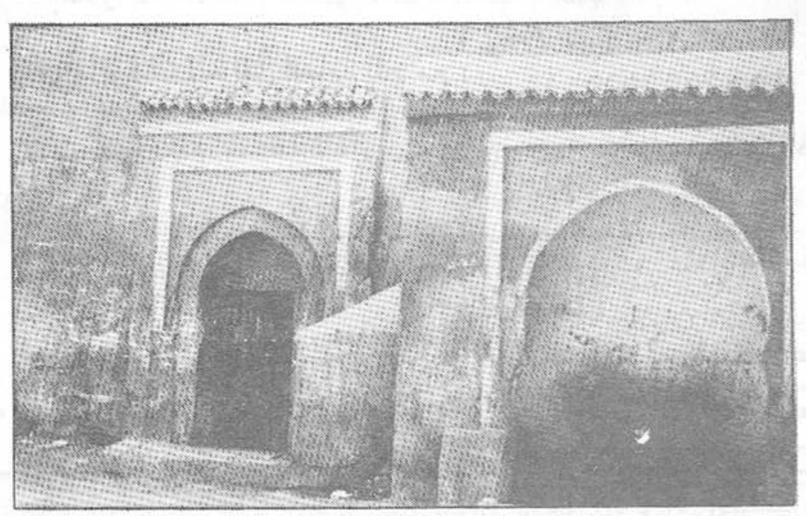
- يتميز الجامع بمساحة لابأس بها وهي قريبة من المربع (39.50مX 37.20م).

- له أربعة أبواب رئيسية، بالإضافة إلى باب الإمام.

- المدخل الرئيسي مفتوح في الركن الشمالي للجامع ويعطي على رحبة الزبيب. بابه ضخمة عالية يصل ارتفاعها إلى حدود الشواف (سبعة) 7 أمتار ونصف وهيكله من الحجارة المنجدة. تكون صنجاته قوسا نصف دائري قليل الإنكسار عرضه 3.20 م ويزدوج العقد بقوس آخر مماثل متعدد



جامع ابن يوسف :
الباب الرئيسي



جامع ابن يوسف : السقاية المائية بجانب الميضاة

الفصوص. (يذكر هذا الشكل بباب جامع الأندلس بفاس).وبوسطه وبجانبيه خاتم يربطها بالإطار المستطيل.

لقد حظي هذا الباب باهتمام بالغ من الناحية الزخرفية. ففي أركان الإطار المستطيل وداخل الفصوص زخارف من الزليج المنقوش. وفي نفس الواجهة فتحت باب درب الحمام وهي بسيطة في شكلها. يليها باب المستودع وهو أصغر حجما وأكثر بساطة.

نظرا لانحدار الموقع، فهذه الأبواب تؤدي إلى الصحن عن طريق درج.

- أما باب الرصيف وباب المدارج أو البابان الثانويان فقد فتحا في تماثل في الجدارين الشمالي الشرقي والجنوبي الغربي وهما عبارة عن قوسين منكسرين يحيط بهما الإطار المستطيل المعتاد. وقد زخرف باب الرصيف بنقوش خطية وهي عبارة عن آية قرآنية.

- تؤدي هذه الأبواب إلى صحن متواضع المقاييس مستطيل الشكل (21.10م X 13.10م) وهو مبلط بالزليج في مركزه ظلة مقببة تغطي صهريجا من الرخام - وضعت هذه الظلة إثر أعمال الترميم وفي نفس الوقت أزيلت الفسقيتان الرخاميتان[1] اللتان سهر المولى سليمان على تنصيبهما - وقد كانتا خلال فترة عملنا الميداني 1982 بقاعة صغرى في حالة إهمال [2].

- تحيط بالصحن أروقة جانبية تعلوها أقواس نصف دائرية منكسرة.

- لجامع الرصيف بيت صلاة فسيحة مقسمة إلى ثلاثة بلاطات موازية لجدار القبلة.

- تعلو هذه البلاطات سقوف من البرشلة المزخرفة، على الطريقة

(1) - الضعيف، تاريخ ... ص 290 - 291.

(2) - أزيلت الفسقيتان خلال عملية الترميم التي تعرض إليها الجامع في الستينات.

المعتـادة في الجـوامع العـلوية [1]. وتزداد أناقـة فـي البـلاطة المحـادية لجـدار القبلة [2].

- حظي جدار القبلة بأهمية كبرى بحيث نلاحظ مايلي :

تحـتل فـيـه حنيـة المحراب وسط جـدار القـبلة ويرتكز القـوس النصف الدائري المنكسر على سواري رشيـقة من المرمر المنقـوش. إن هذه السـواري الرخامـيـة لتـثير انتباهنا بزخارفـها النباتيـة وبالخصـوص مضـمون الخطوط المنقوشة عليها وهي :

"النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا الإمام أبي العباس أحمد المنصور بالله أمير المؤمنين الشريف الحسني".

يتضـح من الشـكل الزخـرفي ومن الدراسـة العـامـة لهـذه الأعـمـدة أنـهـا تنتمي للفترة السـعدية [3].

ونتسـاءل : ماهو سر وجود أعمدة سعدية في بناية للمولى سليمان ؟

لقـد تعرضت البنايات السـعدية بمراكش للنهب والتـخريب مـرة أخرى وذلك على يد المولى هشـام خـلال شـهـر ربيع الأول 1210 هـ أي السنة التي كانت فيـها أعـمال البنـاء جارية بجامـع الرصيف - لايسـتعـد أن يكون المولى سليـمـان قـد اشـتـرى تلك السـواري لعلمنا أن المولى هشـام كـان يبـيع المواد المكونة لدار البديع بعد أن قام بهدمه :

(1) - أنظر على سبيل المثال جامع للاعودة بمكناس في :
Barrucand (M) - l'architecture de la Qasba de Moulay Ismaîl à Meknés. E. T. A. M, 1978. pp. 66 - 68.

(2) - هذا التميز برز بالخصوص في جوامع سيدي محمد بن عبد الله.

(3) - لقد قمنا بدراسة مقارنة لأعـمدة رخامـيـة أخرى ويتضح أنها مـشابهة إلى أعمدة جامع المواسين بمراكش انظر
Terrasse (H) et Basset (H) sanctuaires et forteresses olmahades. Coll Hesperis. fig 175 - 174.

فقد جاء في كتاب الضعيف مايلي :

"وفي ربيع 1210 I ... [...] ...

وباع الأنقاض وهدم المنارة التي بعرسة رضوان وأجنان العافية وغير ذلك. فطلع أهل مراكش مع مولاي الحسين يشفعون له في عدم الهدم، فقبضهم وسجنهم وذعرهم وقال إن الملوك هكذا تفعل : واحد يبني والآخر يهدم ..." [1].

- يحيط بالمحراب إطار مستطيل يضم مجموعة من الزخارف المختلفة العناصر والألوان (عناصر نباتية، هندسية وخطية) وعلى جانبيه في هيأة مماثلة، فتحت باب المنبر وباب الإمام وهي من الخشب المزخرف ويحيط بها إطار من الجبس المنقوش - وفي أقصى اليمين واليسار نوافد من المشربية الجميلة - وكل هذه الزخارف مكللة بشماسيات مزخرفة بالزجاج الملون، مما يزيد الجدار بهاء ورونقا.

- تحتل المنارة المربعة الشكل، الركن الشمالي من الجامع وتصل إلى ثمانية وعشرين مترا ارتفاعا و6 أمتار عرضا.

قوام زخارفها أشرطة من الزليج الأخضر ومجموعة من الفتحات رست بشكل هندسي لايخلو من الجمالية الفنية. وهذا الشكل الزخرفي متداول بالصوامع العلوية السابقة في كل من فاس ومكناس. تلك هي أهم أوصاف جامع الرصيف فماذا عن جامع ابن يوسف ؟

II - جامع ابن يوسف بمراكش :

الموقع والتاريخ :

يقع هذا الجامع وسط المدينة القديمة بمراكش وقد بني فوق أنقاض

---

(1) - الضعيف، تاريخ ... ص. 263.

الجامع المرابطي الذي كان يحمل اسم مؤسسه علي بن يوسف المرابطي والذي لم يبق منه الآن سوى إحدى ملحقاته، القبة المرابطية أو قبة الباروديين التي كشفت عنها التنقيبات الأثرية[1].

كان الخليفة الموحدي عبد المومن قد أمر بهدم الجامع نظرا لاتجاهه غير الصحيح[2] والظاهر أنه لم يهدم بأكمله [3] وإنما أصبح مهملا بسبب تخريبه الجزئي لمدة زمنية طويلة - وقد حاول السلطان السعدي عبد الله الغالب أن يعيد بناء عدة جوانب منه ثم جاء المولى سليمان ليعيد البناء كليا من جديد. وأصبح الجامع مربع الشكل 64م x 64 م وهو أصغر بكثير من الجامع المرابطي الذي كان يحتل مساحة مستطيلة 120 مx 80 م [4].

لم نكشف في هذا الجامع كما هو الشأن بجامع الرصيف على نقائش تساعدنا علي تأريخه لكن بعض النصوص التاريخية تدلنا على معلومات تساهم في عملية التأريخ.

- فحسب الرحالة علي باي العباسي بني قسم كبير من الجامع إبان رحلته بمراكش سنة 1804 م [5].

- أما المؤرخ الضعيف الرباطي فيحدثنا عن عملية نقل سقف جامع

---

(1)- MEUNIE (J). - Nouvelles recherches archéologiques à Marrakech, Paris, 1957.

(2) - عندما دخل عبد المومن إلى مراكش بعد حصار دام 7 أشهر قام أول الأمر بتلبية وصية المهدي بن تومرت الذي أوصى بتطهير المدينة من المساجد المرابطية وهدمها وتعويضها بأخرى ذات الاتجاه الصحيح.

(3) - التريكي حامد "المساجد ووظائفها بمراكش زمن المرابطين والموحدين - " أعمال ندوة مراكش - الملتقى الأول 1980 - ص 157.

(4) - عن تصميم الجامع المرابطي أنظر :

DEVERDUN (G) et ALLAIN (ch). - "Le mineret Almoravide de la mosquée Ben youssef. "in HESPERIS, 1961. vol III. pp. 129 - 135. fig. 3.

(5) - ALIBEY AL ABBASSI, voyages de Ali Bey el Abbassi en Afrique et en Asie pendant les année 1803. 1804, 1805, et 1807. Paris, 1814. p. 266.

السنة بالرباط إلى جامع بن يوسف وذلك في شهر صفر عام 1221 هـ الموافق ابريل - ماي 1806 م، بحيث يقول :

"وفي صفر عام 1221 أمر مولانا سليمان نصره الله على هدم سقف جامع السنة الذي بناه أبوه السلطان سيدي محمد بن عبد الله بن مولانا اسماعيل رحمهم الله برباط الفتح بأگدال على أن تزال منه الجوائز مع قناطر السقف المذكور، فنقض (هدم) ورقد في سفينة وخرجت به من مرسى الرباط وسارت به للمهدومة ومن المهدومة رفع لمراكش وسقف به جامع علي بن يوسف اللمثوني، وكان هناك المعلم عبد الله السوداني، حالما سقف على الجامع المذكور بمراكش، وحين كمل السقف سقط في الأرض وتكسر والأمر لله من قبل ومن بعد ..." [1].

الوصف :

يتضح لزائر الجامع لأول وهلة، أن المبنى قد تعرض لعدة تعديلات وترميمات خاصة في مظهره الخارجي.

- للجامع ثلاثة أبواب : باب رئيسي في محور البناية وهو مقابل لحنية المحراب وبابان ثانويان في الجدارين الجانبيين وكلها أبواب جد بسيطة لا تحتوي على زخارف في الأصل.

- تؤدي هذه الأبواب إلى صحن شاسع 42 م x 32،95 م تحيط به أروقة جانبية تستند من جهة على المنارة ومن جهة أخرى على قاعة مقببة مربعة الشكل .

- بيت الصلاة فسيح واسع ينقسم إلى ثلاثة بلاطات موازية لجدار القبلة (64 م x6م). أما ركائزها المربعة فتحمل أقواس نصف دائرية منكسرة كأقواس الرصيف. ويبدو أن هذا النوع هو الأكثر استعمالا في العمارات العلوية (لسهولة بنائه وقلة تكلفته).

(1) - الضعيف، تاريخ ... ص 331 - 340.

- تحتل المنارة الركن الشمالي، وهي ضخمة وبارزة عرضها 8.29 م وارتفاعها 31.70 م - بنواتها المركزية خمسة غرف مقببة تقليدا للمنارات الموحدية - وتذكرنا الفتحات المزدوجة على واجهاتها بفتحات الكتبية، إلا أنها أقل جمالا - زخارف المنارة بسيطة تتمثل في أشرطة من الزليج الأخضر - يمتاز جامع ابن يوسف بوضوح تصميمه واتساع مساحته وتماثل أجزائه - كما ينفرد ضمن بنايات المولى سليمان بصحنه الشاسع الذي يذكر بصحون جوامع سيدي محمد بن عبد الله بالسويرة، وبالخصوص بجامع السنة بالرباط [1] قبل الترميمات التي طرأت عليه مؤخرا. وقد لاحظنا أن هناك اقتباس لعدة عناصر من هذا المسجد كالأقواس العمياء في أركان الصحن وتموضع المنارة والقاعة المقببة وحتى في بعض المقاييس. هل تأثر المعلم البناي بتصميم جامع السنة عند عملية إزالة السقوف ؟ مهما يكن من أمر فجامع ابن يوسف ينفرد بصحنه الواسع ضمن جوامع المولى سليمان ويذكر كثيرا بصحن جامع السنة.

استنتاجات :

بعد هذا العرض الذي مكن من التعرف على الملامح الرئيسية لكل بناية على حدة نستنتج مايلي :

من الناحية التاريخية، لقد بني جامع الرصيف بفاس خلال السنوات الأولى من حكم السلطان المولى سليمان مابين 1794 - 1797 (حسب الضعيف)، ويعتبر أول جامع بناه السلطان وذلك بمدينة فاس. نلاحظ أن هذا الجامع قد حظي باهتمام بالغ إذا قورن بجامع بن يوسف بمراكش. فإذا كان يشترك مع هذا الأخير في التوزيع الهندسي (تصميم يقترب من المربع ومربع ثلاثة بلاطات موازية لجدار القبلة) وذلك تقليدا للنموذج المديني نسبة إلى

(1) - Caille (J), - La ville de Rabat des origines jusqu'au Protectorat, 3 vol. Paris 1949. T. II fig 135 et 138.

شكل جامع الرسول (صلعم) بالمدينة [1]. فهو يختلف في عدة عناصر نذكر منها مايلي :

- رغم المقاييس المتواضعة للرصيف (37.20 م X 39.50) عوض (64x م 64 م) فإنه يتوفر على خمسة أبواب عوض ثلاثة في ابن يوسف. وقد حظي الباب الرئيسي بزخارف مكثفة ومتنوعة واستعملت فيه مواد غنية من حجر منجور وزليج وخشب منقوش ... وهي باب مهمة في مقاييسها، وهيأتها العامة متداولة في فاس (جامع الأندلس مثلا).

- الصحن متواضع المقاييس، مزين في شكل هندسي محكم بالزليج والرخام أولا وبفسقيتان رخاميتان وصهريج مستطيل وقد سهر المولى سليمان بنفسه على تنصيبهما بالجامع [2].

وقد يكون السلطان قد سهر أيضا على تزويد الجامع بالأعمدة الرخامية. أما صحن جامع ابن يوسف، قبل الترميم، فكان عاريا دون زليج (عبارة عن دس).

هذه الأهمية التي حظي بها جامع الرصيف تبرز لنا حتى من خلال كتاب الضعيف الذي خص للجامع (عكس الجوامع الأخرى) عدة سطور ويتبين من خلالها أنه كان شاهد عيان على عملية التشييد.

- إن جدار القبلة يمتاز بزخارف مختلفة متناسقة ومتماثلة لانجد لها مثيلا في الجوامع الأخرى للمولى سليمان.

- لملحقات الجامع كذلك قسطها من الزخارف فببيت الإمام مثلا نقوش خطية تحيط بالحاشية العليا من الجدران (أبيات من البردى).

---

(1) - تتميز الجوامع الإسلامية الأولى بتخطيطها المربع وبلاطتها الموازية لجدار القبلة وهي لاتتعدى أبوابا قليلة العدد (3) وتخلو من الزخارف.

(2) - أنظر الجدول.

- كما أن للسقاية المائية الملحقة بالجامع زخارف نباتية وهندسية من الزليج المنقوش ومجموعة من الأبيات الشعرية.

فنحن إذن، في حديثنا عن مميزات هذا الجامع، أمام تحفة فنية بنيت تحت إمرة سلطان اشتهر ببساطته وميوله التقشفية - وتنطبق صبغة التقشف أكثر على جامع مراكش.

فالجمالية الفنية في ابن يوسف تتمثل بالخصوص في تناسق أجزائه وتماثلها - إلا أن الطابع العام للجامع هو البساطة والخلو من كل تزويق وتنميق. ويذكر تصميمه العام بالجوامع الإسلامية الأولى (شكل مربع - 3 أبواب - 3 بلاطات موازية لجدار القبلة).إن الطابع الطاغي على جوامع المولى سليمان لهو طابع البساطة والتقشف ويشكل جامع الرصيف بذلك حالة استثنائية .

ومن حقنا أن نتساءل عن سر هذا التغيير المفاجئ ؟ هل عرفت العمارة مرحلتين، خصوصا أننا نعلم أن الرصيف بني في السنوات الأولى من حكم المولى سليمان بينما بني ابن يوسف في مرحلة متأخرة من حكم السلطان. إن هذه الظاهرة (التقشف) التي تطبع الجوامع التي بناها المولى سليمان ليست إلا نتيجة عوامل مختلفة نذكرها فيما يلي :

1) شخصية المولى سليمان الذي كان يميل إلى حياة متقشفة منذ حداثة سنه جعلته يعتنق بسهولة بعض الأفكار الوهابية. لقد سجلت كتب التاريخ الكثير من تقشف المولى سليمان سواء في ملبسه أو مأكله [1]. ونلاحظ من خلال دراستنا للعمارة على عهده أن الجوامع التي بنيت بعد سنة 1803 م [2] (وهي السنة التي وصلت فيها رسالة الوهابيين إلى المغرب) قد اجتنب فيها

(1) - يشهد مؤقت المسجد الأعظم بسلا أنه رأى السلطان يصلي وسراويله مرقعة وأن مجدول ساعته من الصوف أنظر: الناصري، الاستقصا ... ج 8 - ص 171.

(2) - المولى سليمان، خطبة المواسيم. بدون تاريخ.

التزويق. وقد أتى على لسان المولى سليمان في رسالته مايلي : "[...] ثم أنشدكم الله هل خرمت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم المساجد، أم زوقت أضرحة الصحابة التابعين الأماجد...".

2) الأوضاع الداخلية بالمغرب، شهدت البلاد ثورات قبلية عنيفة، كما عرفت أهوالا طبيعية مختلفة، فقد كانت لعواقب الطاعون وماتلاها من مجاعة نتائج وخيمة على النتاج العمراني فقد توفي، حسب الدراسات في هذا الصدد، الآلاف من سكان المغرب، ومما لاشك فيه أن منهم فنانون وبناؤون إلى غير ذلك. وقد صرح قنصل انجليزي زار مدينة فاس سنة 1801 أن المولى سليمان لم يجد أحدا لانجاز زخارف رسالة كتبها لملك بريطانيا (وقد كان بالمدينة أكثر من سبعين مزخرفا ماتوا كلهم بالوباء [1].

ومما لاشك في أن العمارة كانت تشكو من نفس النقص في اليد العاملة المتخصصة. فمن نتائج هذه الوضعية استمرار عملية البناء لمدة طويلة. فمثلا قد دام البناء بجامع المولى سليمان بالرباط. وهو أصغر بكثير من جامع ابن يوسف بمراكش أكثر من ثمان سنوات (1803 م - 1812).

ومن المنطقي أن تكون كل هذه العوامل تظافرت لتجعل الفن المعماري يقف وقفة، وصفها دارسوا الفن الإسلامي المغربي بالتدهور والتحجر متجاهلين بذلك الظرفية التي فرضت على هذا الفن هذه الوقفة ؛ فاكتفى ببعض العناصر الرئيسية المستلهمة من المدرسة المحلية التقليدية في انتظار ظروف ملائمة لفن أكثر جمالية ورونقا.

(1) - El MANSOUR (M), Poletical and social developements in Marroco under the region of My sliman 1792 - 1822. thése inédite p. 104.

صورة التعليم وتصورات المربين في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي

د. ميلود حبيبي
كلية علوم التربية/الرباط

1 - مدخل :

نود في صدارة هذه الدراسة الإشارة إلى بعض الملاحظات الأولية، التي سبق أن أشرنا إلى بعضها في بحث سابق [1]، وتتعلق هذه الملاحظات بعنوان هذه الدراسة وبالإشكالات المعرفية والمنهجية التي يثيرها البحث في النظام التعليمي بالمغرب في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر الميلاديين، ومنها :

1.1 - ان العنوان الذي كان مقترحا لهذه الدراسة هو "الغايات والأهداف التربوية العامة في عهد مولاي سليمان" تم تغييره بعنوان جديد وهو "صورة التعليم وتصورات المربين في نهاية القرن الثامن عشر، وذلك لاعتقادنا بأن نفس النتائج التي يمكن أن تنتهي إليها الدراسة سبق رصدها في بحث سابق عن فترة سيدي محمد بن عبد الله.

2.1 - أن نوع الخطاب الذي ستوظفه هذه الدراسة لن يكون تأريخ المرحلة، بقدر ماهو محاولة للمقارنة بين ماهو سائد وماهو

(1) - أنظر : الغايات والأهداف التربوية العامة في عهد سيدي محمد بن عبد الله - ميلود حبيبي وعبد اللطيف حسني - (أعمال جامعة مولاي علي الشريف - الريصاني 6 -15 دجنبر 1991).

مرغوب فيه، بين التحقق والإمكان... بين الصورة الحقيقية والتصور المثالي ... ولذلك سنتجاوز الكثير من التفاصيل لنبحث في البنيات والوظائف من جهة، وفي القيم الاجتماعية والمعرفية المرغوب فيها من جهة ثانية.

3.1 - أن أي خطاب علمي دارس للنظام التعليمي في هذه الفترة يجب أن يتحلى بكثير من المرونة والاحتياط، سواء في استعمال المفاهيم أو المصطلحات والأدوات الدارسة، أم في استخلاص النتائج وتعميمها ... فنحن نبحث في فترة تاريخية متقدمة، لم تؤسس فيها دعائم النظريات التربوية المتكاملة، ولم تشيد فيها الأنساق التعليمية، التي تمكن الباحث من تحديد مضامين المفاهيم والمصطلحات الموظفة ... ورسم الحدود التي تمكنه من تسييج حقل تطبيقاته المنهجية ... ولذلك فكل دراسة ممكنة لهذا الموضوع تبقى مجرد مقدمات تمهيدية تحاول مقاربة الصورة العامة للأوضاع التعليمية ...

4.1 - بهذا المعنى إذن، تستهدف هذه الدراسة رصد معالم الصورة العامة للأوضاع التعليمية في هذه الفترة، وذلك بالتعرف على:

- بنية النظام التعليمي وعلى وظائف ومضامين هذه البنية.
- نوع القيم الاجتماعية والمعرفية التي يروم أي نظام تعليمي توصيلها إلى المتعلم عبر ممارسة تربوية قائمة على مجموعة من المعارف والقيم والسلوكات.

ولذلك تقوم هذه الدراسة على استثمار جانبين نعتبرهما متكاملين :

الجانب التربوي :

على أساس البحث في علاقات التعليم من حيث هو بنية بمجموعة القيم التي تسود في مجتمع معين خلال فترة محددة ... أي البحث عن صورة الأوضاع التعليمية السائدة ..

الجانب البيداغوجي :

المرتبط بعلاقات التعليم كممارسة تدريسية بخصوصيات المتلقي، وهذا يفترض وجود تصور لدى المربي لوظيفته كمدرس، ولموضوع التدريس، وللمتعلم المستهدف .. هذا التصور يتم استحضاره بكيفية واعية أو لا واعية في توصيل المعارف وفي انتقاء أشكال التعامل مع موضوع المعرفة من جهة. ومع المتعلم قصد التأثير عليه من جهة ثانية.

إذن فهناك : - صورة للأوضاع التعليمية

- وتصورات معينة للمربي

وهذا ماستحاول هذه الدراسة البحث فيه.

2 - صورة التعليم :

كان النظام التعليمي بالمغرب موسوما بنوع من الضعف، تشترك في ذلك البنيات والوظائف والمضامين التعليمية، وقد أدى ذلك إلى ظهور محاولات إصلاحية كانت أبرزها محاولة سيدي محمد ب عبد الله [2].

1.2 - وهكذا كانت بنية هذا التعليم تتكون من ثلاثة مستويات :

مستوى أولي :

ويظهر في الكتاتيب القرآنية التي كانت تستقبل المتعلمين في مرحلة

(2) - يراجع : الفتوحات الإلهية في أحاديث خير البرية - سيدي محمد بن عبد الله المطبعة المحمدية: الرباط.

الطفولة، وقد تمتد أحيانا إلى مرحلة المراهقة، لتعليمهم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم.

مستوى متوسط :

وقد كان موجها إلى عموم المواطنين، ويمارس في عدد من المؤسسات، منها : دور الفقهاء والزوايا والمدارس والمساجد.

مستوى عالي :

تمثله جامعة القرويين.

2.2 - ومن الناحية التربوية، كانت وظائف هذا التعليم تتسم بمايلي :

- بخصوص الكتاتيب القرآنية، ولطبيعة الدور الذي كان يضطلع به المدرر، كانت العملية التربوية تتميز بالطابع التقليدي المحافظ، الذي يخاطب الذاكرة وينشد الحفظ ويستهدف الاستظهار. .

- أما في المستوى المتوسط، فقد كانت دور الفقهاء تلقن مجموعة من المعارف المرتبطة بتكوين الفقيه والمدرر، ونفس الوظيفة كانت تقوم بها الزوايا، مع إضافة الأوراد والأذكار الخاصة لتمرير القيم الروحية والاجتماعية والوجدانية التي لها علاقة بالتربية الروحية للمريد وبالمرجع الفكري والمذهبي الذي تتكئ عليه هذه الزاوية أو تلك.

أما المساجد فإن دورها يبرز في توعية الموطنين بتنظيم حلقات ودروس للإرشاد والتوجيه، مع تلقين روادها شروح بعض المتون في الفقه والنحو...

وفي المستوى العالي : كان التلقين يجمع بين شتات من المعارف والعلوم تمتد من أصول الفقه إلى النحو والأدب والبلاغة والتاريخ والتفسير...

3.2 - أما من الناحية البيداغوجية فيلاحظ أن مضامين التعليم وتدريسها عرفت :

- شيوع ظاهرة الاختزال بحيث يلقن المتعلم أشتاتا من المعارف بالتركيز على متون شارحة للمصادر بطريقة مختزلة ... يشترك في ذلك التعليم المتوسط والعالي ... بحيث كانت بعض العناوين تمثل سلطة معرفية يخضع لها المعلم والمتعلم على السواء، ويكفي هنا أن نذكر مختصرات ابن حاجب والشيخ خليل وابن مالك وابن عرفة...

- ترسخ هذه الظاهرة، بحيث أصبحت وسيلة تعليمية لايكاد يحيد عنها المدرسون ... رغم المآخذ التي كانت تتسم بها، ورغم ردود الفعل القوية التي ووجهت بها من طرف بعض بعض المصلحين وعلى رأسهم سيدي محمد بن عبد الله فإن عناوين المختصرات السابقة بقيت تمثل تلك السلطة المعرفية :

يقول الناصري في الاستقصا (جـ 8 ص 67)[3] :

"عجيب سيرته رحمه الله (يقصد سيدي محمد بن عبد الله) أنه كان يرى اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات في فن الفقه وغيره، وإعراضهم عن الأمهات المبسوطة الواضحة، تضييع للأعمار في غير طائل، وكان ينهى عن ذلك غاية، ولايترك من يقرأ مختصر خليل ومختصر ابن عرفة وأمثالهما، ويبالغ في التشنيع على من اشتغل بشيء من ذلك، حتى كاد الناس يتركون قراءة مختصر خليل، وإنما كان يحض على كتاب الرسالة والتهذيب وأمثالهما، حتى وضع في ذلك كتابا مبسوطا، أعانه عليه أبو عبد الله الغربي، وأبو عبد الله المير وغيرهما من أهل مجلسه.

ولما أفضى الأمر إلى السلطان العادل المولى سليمان رحمه الله، صار

(3) - أنظر الاستقصا - أحمد بن خالد الناصري (جـ 8 ص 67) الدار البيضاء دار الكتاب، 1956.

يحض على التمسك بالمختصر، ويبذل على حفظه وتعاطيه الأموال الطائلة والكل مأجور على نيته وقصده، غير أنا نقول : الرأي مارأى السلطان سيدي محمد رحمه الله".

3 - تصورات المربين :

في ضوء الملاحظات السابقة، تتبين الملامح العامة للصورة التي كان عليها الوضع التعليمي بالمغرب في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.

غير أن هذه الملامح لن تكتمل في نظرنا إلا بالتعرف على تصور العلماء والمدرسين أنفسهم لما ينبغي أن يكون عليه التعليم، ولذلك، وحتى نقترب أكثر من بعض عناصر هذا التصور، نقترح في هذا العرض تقديم قراءة تحليلية وتركيبية في نفس الآن، لأحد المصنفات المنتمية لهذه الفترة، وهو في شكل رسالة مخطوطة تحمل اسم [4].

"بلوغ أقصى المرام في شرف العلم ومايتعلق به من أحكام" وتوجد نسخة من هذه الرسالة بالمكتبة العامة بتطوان في حجم متوسط (= 62 صفحة) وهي لصاحبها أبي عبد الله بن مسعود بن أحمد الطرنباطي، وهو فقيه من فاس تقلد مناصب في القضاء والتدريس بكل من سجلماسة والصويرة في نهاية القرن الثامن عشر (توفي بفاس سنة 1214 هـ الموافق لـ 1795 م) كما أنه أحد الموقعين على نص بيعة أهل فاس للسلطان المولى سليمان ..

تتكون هذه الرسالة من الأبواب التالية :

الباب الأول : في فضل العلم

---

(4) - تمثلات الطفل في الفكر التربوي التراثي المغاربي - أحمد أحدوثن (رسالة مرقونة دبلوم الدراسات العليا في علم النفس التربوي، كلية علوم التربية 1991).

الباب الثاني : في فضل العلماء

الباب الثالث : في التحذير من قراءة العلم لغير وجه الله

الباب الرابع : في آداب المعلمين

الباب الخامس : في آداب المتعلمين

ويظهر من هذا التبويب، أنه يتشابه مع المصنفات التربوية العربية القديمة، مثل : رسالة آداب المعلمين والمتعلمين لابن سحنون (القرن الثالث الهجري)، والرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين للقابسي (القرن الرابع الهجري) ومختصر آداب معاشرة الأزواج ورياضة الولدان لابن عرضون (القرن العاشر الهجري)... ومعنى ذلك أنه كان يوجد مايشبه النموذج في الكتابة التربوية العربية، وبالتالي أشكال من التقاطع في الموضوعات المدروسة ... مما يدفع بالباحث إلى الافتراض بأن القضايا تكاد تكون هي نفسها رغم اختلاف الأزمنة والأمكنة ...

أما قراءتنا لهذه الرسالة المخطوطة فتنحصر في الباب الرابع، وذلك لكونه يقدم لنا تصورا متكاملا لنوع العلاقة التي يجب أن تكون متصلة بين المتعلم وموضوع التعلم، وبين المعلم والمتعلم من جهة ثانية.

تتخذ هذه العلاقة شكل صفات، ومكونات، وحدود وإجراءت.

- تتحدد الصفات فيما يجب أن يتسم به المدرس أخلاقيا وجسمانيا ومعرفيا.

- وتبرز المكونات في مجموع العناصر الواجب توفرها لجعل التدريس ممارسة قادرة على توصيل المعارف إلى المتلقي بما يتناسب واستعدادته النفسية والمعرفية.

- وتظهر الحدود في طرائق اكتساب المعرفة "التحصيل" وفي قصديتها "التلقين".

- وتتبلور الإجراءات فيما يجب مراعاته تجاه المدرس وتجاه التدريس...

1.3 - الصفات :

تتوزع صفات المدرس النموذج بين ماهو أخلاقي وجسماني ومعرفي.

- في الجانب الأخلاقي :

نلاحظ بناء هذه الصفات على ثنائية سلوكية قائمة على الالتزام والاجتناب، فهناك مايجب الالتزام به من صفات حميدة، ومايجب تجنبه للحفاظ على هذه الصفات.

- يجب أن يلتزم المدرس النية الخالصة في احتراف التدريس وأن يقصد "بعلمه وجه الله تعالى".

- وعليه أن يلتزم في ذلك بالأخلاق الحسنة مثل "الزهد والسخاء"

- و"ملازمة الورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع والخضوع لأهل الديانة من العلماء ...".

- و"ملازمة الآداب الشرعية الظاهرة والخفية".

وبكيفية موازية عليه تجنب مامن شأنه أن يؤثر في سلامة هذه الصفات الحسنة، فعلى المدرس :

- "مجانبة العوام ماأقل إلا لمنفعة دينية أو مرجوة من تعليم مسألة أو إرشاد إلى فعل خير ونحو ذلك".

- ومجانبة الرياء والحسد والإعجاب، واحتقار الناس، وإن كانوا دونه درجات، وهذه أمراض يبتلى بها أصحاب الأنفس الخسيسة والقلوب الميتة.

في الجانب الجسماني :

تتراوح الصفات المرغوب فيها بين النظافة والهيأة الحسنة.

فعلى المدرس "الاتصاف بإزالة الأوساخ، وإزالة الروائح الكريهة.

. وعليه كذلك أن يسرح لحيته

. وأن يكون بشوشا من "غير خروج إلى حد الخلاعة".

في الجانب المعرفي :

وتظهر هذه الصفات في تقويم المكتسبات، وفي استخدامها للحصول على مكتسبات جديدة.

- يتبين التقويم في دوام مراقبة المدرس للمحفوظ في سره وعلانيته،

- وفي محافظته على قراءة القرآن ونوافل الصلاة والصيام ..

- ويتبين التحصيل في كون المتعلم "لايستنكف عن التعلم عمن دونه في سن أو نسب أو شهرة، فلا يزال الرجل عالما ماتعلم، فإذا ترك التعلم، وظن أنه قد استغنى فهو أجهل مايكون".

2.3 - المكونات :

وهي مجموع العناصر الواجب توفرها لتحقيق الدرس - النموذج، وتجمع بين الوضوح والتكرار وإثارة الانتباه وتجنب الحشو والاهتمام بالمتلقي واستثمار الأسئلة في بناء الدرس ...

- يظهر الوضوح في مبادرة المدرس إلى تزيين عبارته وإلى تجنب "الألفاظ الغريبة التي لا يفهمها الحاضرون، بل تكون عبارته على قدر أضعافهم فهما ليكثر الانتفاع به".

- ويبرز التكرار في إعادة المدرس للكلام "إذا لم يفهمه الحاضرون أو يكون صعبا".

- ويتبلور التحفيز بإثارة الاهتمام ودعوة المستمعين إلى الإنصات ووسيلته في ذلك "استحضار عقولهم ليقبلوا عليه بكليته ويستشعروا عظم مايخبرهم به".

-ويتجلى تجنب الحشو في عدم الإكثار من "حكاية الأقوال والتقول الغريبة إن لم يكن في السامعين من يحكي ذلك، وتتعب نفسه من غير فائدة، فقد قيل رب كلام كاليواقيت كسم في بعض المواقيت".

- أما الاهتمام بالمتلقي فيظهر عند الطرنباطي في ضرورة التمييز بين نوعين من المتخاطبين : الأكابر، والأطفال.

- بالنسبة للنوع الأول على المدرس أن يحرص على "أن يخرج تعليمه للأكابر مخرج المذاكرة".

- وللنوع الثاني "أن يكون شافقا على المتعلم، وأن ينزله منزلة ابنه، وأن يزجره عن أخلاق السوء بطريق التعريض لا بطريق التصريح، وبطريق الرحمة لابطريق التوبيخ".

- ويرتبط هذا الاهتمام بالمتلقي باستثمار الأسئلة الاستكشافية في بناء الدرس وتوصيل المعلومات وذلك بـ "أن يطرح على المتعلمين مسألة ليختبر مقدار علمهم بها".

وواضح من إلحاح الطرنباطي على أهمية هذه المكونات في بناء الدرس- النموذج مدى التفاعلات المتبادلة بين المتعلم واستعداداته النفسية والفكرية ومبادرات المعلم في توصيل المعارف ... إلا أن هذه المكونات لاتتطرق إلى موضوع التعلم نفسه كمواد تدريسية.

3.3 - الحدود :

إذا كانت وظيفة المدرس تكمن في توصيل المعارف، فإنه مطالب في

كل وقت وحين بتجديد المعلومات وعدم التواني في تحصيلها، فهو عالم مادام قادرا على اكتساب الجديد منها، ولكنه يصبح غير ذلك إذا ماتوقف عن التحصيل أو أصابه الغرور.

كما أنه مسؤول عن مصير هذه المعارف، وبالتالي عن اختيار الجمهور الذي تستهدفه هذه المعارف ...

إن وظيفة المدرس تحتم عليه الإجابة عن سؤالين :

كيف يكتسب المعرفة ...

ولمن يوصل هذه المعرفة ...

إن الإجابة عن السؤال الأول كيف ؟ تأخذ التجليات الآتية :

المذاكرة - واللاأدرية - والتواضع

- تكون المذاكرة مع "العلماء ومع من يقصد التعلم والتفهم، فمن يتذاكر مع العلماء لاينسى ماعلم واستفاد مالم يعلم".

- وتظهر اللاأدرية في "التأني والإكثار من قول لاأدري، لأن لاأدري وسيلة إلى العلم، وأدري وسيلة للجهل".

- ويظهر التواضع : "في ترك الدعوى في العلم، ففيه وعيد أيضا".

أما الإجابة عن السؤال الثاني لمن ؟ فيبرز في :

التزام المدرس وتخلقه "بالوفاء بأمانة العلم فلايعطه لغير أهله ولايمنعه، فإن العلم يزيد النفس الشريرة شرا والخيرة خيرا".

وحين يغيب هذا التخلق وهذا الوفاء والشعور بالمسؤولية فإن مصير المعارف تحفه المخاطر.

4.3 - الإجراءات :

كما هو ملحوظ، اقتصر الحديث في الفقرات السابقة على الجوانب

المعنوية في سلوك المدرسين، مما قد يوحي بأن التدريس أقرب إلى التطوع منه إلى المهنة، وأن المدرس صاحب رسالة أكثر منه صاحب وظيفة ...

وهذا ربما يفسر التردد الذي طبع الرسالة في الاعتراف بالممارسة التدريسية كحرفة يخصص لها راتب معين ...

يظهر هذا التردد في عدم الحسم بين التكريه والمنع والإباحة ... حيث نجد الطرنباطي يعرض المسألة كما تصدى لها السلف، إذ يقول : "كره مالك في المدونة الإجارة على تعليم العلم، وقيل بالمنع، وقيل بالإباحة، لئلا يضيع العلم لضعف أرزاق العلماء. فإن منعوا الإجارة شغلهم طلب المعيشة عن التعليم ...

لكن هذا التردد يزول حينما يبادر المعلم بنفسه إلى احتراف مهنة التدريس شريطة اتقانه للعلم ...

"وأما توقف التعليم على كتب الإجازة فلم يقله أحد، وإنما هو كالفتيا لاتتوقف على أجازة، بل من عرف عنه العلم والدين جاز أن يعلم ويفتي".

بل يصبح التدريس ضروريا وفرض عين حينما يتعلق الأمر بالمجتمع، يتحمله "العلماء كافة والسلاطين خاصة، أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم، فإن الخلق لايولدون إلا جهالا، فلابد من تبليغ الدعوة".

4 - هذه بعض عناصر التصور الذي كان العلماء يؤمنون به في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وهو بدون شك تصور متصل أسهمت في تشكيله آراء عند كل من ابن سحنون وابن عرضون والقابسي، وكذلك عند أبي حامد الغزالي في "الإحياء".

كما أنه تصور نابع من العلاقة العضوية بين مكونين :

- التعليم كتوصيل للمعارف

- والدعوة لنشر التعاليم الإسلامية.

فالعلم يكاد يكون مراد فاللدين، وبالتالي فالمدرس هو الوجه الآخر للعالم حينما يجعل من الدين مادة تدريسية، والعالم هو بالضرورة مدرس حينما ينقل علمه إلى الجمهور ... إن العلاقة بين الاثنين هي نوع من الترابط بين الكفاية (العلم) والإنجاز (= التدريس).

ولهذا، فالصورة التي يتمثلها المؤلف مثالية، إنها مايجب أن يكون، فهو يتحدث عن المدرس - النموذج وعن الدرس - المثال، ولذلك يلاحظ استعمال أفعال أمرية : تجنب، التزم، عليه أن ... أي ماقد يتحقق في عالم ممكن ... أما ماهو متحقق في الواقع فهو شيء آخر، فالمجتمع مريض، والمجتمع المريض لاينتج إلا عالما مريضا، وكما يقول الطرنباطي عن علماء فترته :

"وقد مرضوا في هذه الأعصار بالداء المهلك وهو حب الدنيا فلم يأت منهم نصح وليتهم إذا لم ينصحوا لم يغشوا، وإذا لم يصلحوا لم يفسدوا، وليتهم سكتوا ولم ينطقوا ...".

جوانب من السياسة الدينية والثقافية للسلطان مولاي سليمان

محمد الفلاح العلوي
كلية الآداب/البيضاء

مدخل :

لا يجادل أحد في عدم وجود أي فصل بين ماهو ديني وماهو دنيوي في تقاليد الأحكام السلطانية التي تحدد مهمة الإمام عموما، ولا في التقاليد المخزنية المغربية التي تبني على تلك الأحكام وتحدد بالتالي مهمة ولي الأمر في المغرب، كما يظهر ذلك جليا في نصوص مختلف البيعات التي عقدها المغاربة لسلاطينهم.

وإذا كانت سياسة السلطان سيدي محمد بن عبد الله واضحة المعالم في هذا الصدد كما بينا ذلك من قبل [1] فإن مسلك ولده السلطان مولاي سليمان في نفس الاتجاه يحتاج إلى رفع بعض اللبس والغموض الذي يحيط بسياسته في نفس الموضوع، ولايمكن الوصول إلى هذه الغاية إلا بجرد مختلف الأسباب التي ساهمت في تشكيل هذه السياسة وعرض مختلف مظاهرها ثم الوصول إلى النتائج والخلاصات التي تمخضت عن ذلك مما سيؤدي إليه تحليل تلك العناصر.

(1) - محمد الفلاح العلوي : البعد السلفي في السياسة الدينية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله وهو العرض الذي ألقي ضمن أعمال الدورة الثالثة لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية 6-15 دجنبر 1991.

أولا : الأسباب الموضحة لاتجاه سياسة السلطان الدينية والثقافية :

يجمع الذين ترجمو للسلطان مولاي سليمان على التربية العلمية التي حظي بها من طرف والده، فبعد حفظه القرآن الكريم حفظ وأتقن مختلف العلوم الشرعية ومايجاورها من علوم مساعدة على التبحر في الفقه بالخصوص، وفي هذا الصدد أخذ السلطان الفقه على يد أكبر عالمين في عهد والده وهما الشيخ التاودي بن سودة شيخ الجماعة بفاس [1] والشيخ عبد القادر بن شقرون [2] أحد كبار الشيوخ البارزين في الفقه والذي يرجع إليه في حل المشكلات ودفع الشبهات لما عرف به من ضبط وإتقان [3] وقد مكن هذا التكوين السلطان مولاي سليمان منذ صغره من اكتساب ملكة فقهية جيدة حسب مناهج الدراسة وأسلوب التعلم في زمنه مما جعله يتشبع بهذه الروح العلمية الفقهية، وإلى جانب ذلك وعلى غرار غيره من العلماء والفقهاء إلتزم السلطان مولاي سليمان باتباع الطريقة الناصرية كاتجاه في التصوف[4] وجد عليه والده السلطان سيدي محمد والذي تلقى عنه الورد الناصري كما تلقاه عن شيخيه التاودي بن سودة وعبد القادر بن شقرون والمرابط سيدي علي بن يوسف الدرعي[5] وهذا مالا يترك مجالا للشك في الطريقة التي التزم بها السلطان مولاي سليمان ودحض أي تفسير آخر غير ذلك.

---

(1) – التاودي بنسودة أبو العباس أحمد شيخ الجماعة بفاس ترجمته في عدة كتب منها شجرة النور الزكية ص 380 الفكر السامي ج 4 ص190، السلوة ج 1 ص ص 115 – 116 توفي حوالي 1820.

(2) – عبد القادر بن شقرون أبو محمد بن أحمد بن العربي من العلماء الفطاحل في فاس من جملة تلاميذته السلطان مولاي سليمان، توفي في 1806/1219 توجد ترجمته متكررة في عدة كتب منها الترجمانة الكبرى للزياني ص67.

(3) – محمد الضعيف الرباطي تاريخ الدولة السعدية، تح : أحمد العماري دار المأثورات 1986 – ص 245.

(4) – عبد الحفيظ الفاسي، الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث المسلسلات – الرباط 1934 ص 300.

(5) – ت الضعيف – م س ص 310.

إضافة إلى ماسبق نجد أن السلطان كون شخصيته العلمية كذلك من خلال المجالس العلمية التي كان يشرف عليها سواء إبان ملكه أو قبل ذلك كما هو الشأن بالنسبة لمجالسه العلمية بتافلالت جينما كان خليفة لأبيه عليها، بالإضافة إلى حبه للعلماء وتمييزه لهم في العطاء [1] وخلاصة القول في هذا الصدد أن السلطان مولاي سليمان قد حكمت عليه الظروف السياسية أن يهتم بالسياسة ولولا ذلك لما خاض غمارها، فهو يقول عن نفسه" ... وهذا الأمر الذي أولانا الله تعالى والله ماطلبناه ولا سعينا فيه، وحيث كلفنا الله به وجب علينا القيام به والرضى والتسليم، إذ نحن عبيد لله نرضى بما قدره علينا وقضاه ..." [2].

ثانيا : مظاهر سياسته الدينية والثقافية

من المعروف أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله قام بمحاولة لإصلاح نظام التدريس بتدخله في تحديد نوعية الكتب المدرسة بالتشجيع على التحصيل من بعض الكتب ومنع النظر في كتب أخرى وذلك تمشيا مع اتجاهه الإصلاحي كما هو معروف [3] إلاأن ذلك آثار حفيظة العلماء المتشبعين بروح التقليد والمحافظة على ماهو رائج بالطبع فإن السلطان مولاي سليمان وهو العالم الفقيه كما رأينا ظل متشبثا بوجهة ونظر الفقهاء، فألغى توصيات أبيه في هذا الصدد معيدا الأمور إلى ماكانت عليه، وهكذا يصف لنا الضعيف عودة العمل بكتب المختصرات وعلى رأسها مختصر خليل بقوله : "وفي الغد افتتح ابن أويس قراءة خليل،

(1) - ت الضعيف - م س ص 245.

(2) - من جواب السلطان مولاي سليمان على رسالة بعثها إليه علي بن أحمد الوزاني ينظر ت الضعيف - ص 259.

(3) - يمكن الرجوع إلى : الحسن بن أحمد العبادي : الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله العلوي، البيضاء، 1987.

وفي يوم الأربعاء أول من ربيع الثاني افتتح ابن سودة المختصر من أوله ..." [1].

وقد بلور السلطان رأيه هذا بشكل عملي حينما قام بتشجيع حفظة المختصر وترتيبهم في زمام خاص بهم مع صلتهم بالمال والجرايات :

"وفي يوم الأحد 29 صفر ختم ابن سودة خليل وفيه عوشرنا على ابن شقرون وفي متم صفر بعث السلطان كتابا للمحتسب الحاج محمد بن زاكور وأمره أن يعين الطلبة حفاظ مختصر خليل سواء كانوا من الحضر أو من البدو وفي فاتح ربيع الأول وهو يوم الثلاثاء بعث الفقيه السيد محمد بن زاكور وراء الطلبة وعرضهم المختصر وهم أهل المدارس، وعرض عليه الفقيه السيد محمد الحمياني وغيره ممن يحفظ المختصر، ثم وجههم للسلطان ورتبهم في زمامه، وأعطى لكل طالب مائة ريال، ولما وجد من يحفظ حمزة والمختصر أعطاه مائتي ريال ومنهم من أعطاه خمسين ريالا ومنهم من أعطاه المال وقفطانا من الملف، وكل من صبيان فاس وطلبتهم الذين يحفظون خليل كأولاد الفقيه ابن سودة وغيرهم قبض صلة السلطان ..." [2]، وهذا الاهتمام بإعادة الأمور إلى ماكانت عليه تطلب كذلك من السلطان إدخال التغييرات اللازمة على كراسي التدريس بالقرويين :

"... وفي يوم السبت 26 من ربيع الأول نصب كرسي الطيب بن كيران أمام صومعة القرويين في الموضع الذي كان فيه كرسي الفقيه سيدي عبد الكريم اليازغي رحمه الله. بعد أن حول من جامع الرصيف بإذن السلطان وأمره بقراءة التفسير عن مهل ربيع الثاني، وفي هذا اليوم ابتدأ خليل من باب الإجازة ..." [3].

---

(1) – ت الضعيف، م س، ص 309.

(2) – نفس المصدر ص 309.

(3) – نفس المصدر ص 309.

إلا أن هذه التغييرات التي ألحقها السلطان بميدان تدريس الفقه لم تمنعه من تشجيع دراسة الحديث ولو بالمنهجية المعروفة والمعتمدة على بعض الشروح "... ثم إن السطان فرق على علماء أهل فاس الأربعين حديثا يشرحونها، وهي للنووي فشرح الربع منها ابن كيران والربع للقاضي السيد أحمد بن سودة والربع لابن شقرون والربع للفقيه بنيس، وأجلهم عشرة أيام، فشرع في شرحها الطيب بن كيران يوم الأربعاء 16 رجب..." [1].

أما من الناحية الاجتماعية فقد واصل السلطان مولاي سليمان نسبيا سياسة أبيه في الإصلاح الاجتماعي وإن قصر هذا الإصلاح في ميدان البدع والمواسم حيث عمم رسالته الشهيرة ضد المواسم والبدع على مجموع المغرب منكرا فيها على أهل الطرق مايقومون به من أعمال تخالف السنة وتعطي الفرصة للجهلة للقيام بما يفسد المجتمع، ويشتت صفوف المسلمين :

"واتركو عنكم بدع المواسم التي أنتم بها ملتبسون والبدع التي يزينها أهل الأهواء ويلبسون وافترقوا أذراعا، وانتزعوا الأديان والأموال انتزاعا بما هو كتابا وسنة وإجماعا، وتسموا فقراء وأحدثوا في دين لله مااستوجبوا به صقرا ..." إلى أن يقول : "وكل ذلك بدعة شنيعة وفعلة فظيعة وشيمة وضيعة وسنة مخالفة لأحكام الشريعة ..."[2].

وتستطرد الرسالة المنوه بها في نقد أعمال الطرقيين فيما يعرف بالحضرة من رقص وغناء فيقول :

" فليس في دين لله ولا في شرع نبي لله أن يتقرب لله بغناء وشطح، والذكر الذي أمر الله به وحث عليه ومدح الذاكرين به هو على الوجه الذي كان يفعله عليه السلام، ولم يكن على طريق الجمع ورفع الأصوات على

(1) - نفس المصدر ص 266.

(2) - رسالة مولاي سليمان عن المواسم والبدع ضمن : أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى .... ص 446 - 470

لسان واحد، فهذه سنة السلف وطريقة صالحي الخلف، فمن قال بغير طريقتهم فلا يستمع، ومن سلك غير سبيلهم فلا يتبع ... " [1].

وفي ختام هذه الرسالة يظهر السلطان رغبته الأكيدة في الاصلاح بإظهار الحزم اللازم تجاه المخالفين وترهيبهم من العقاب المخزني قبل العقاب الالهي إذ يقول : " وها نحن عباد لله، أرشدناكم وحذرناكم وأنذرناكم، فمن ذهب بعد لهذه المواسم، أو أحدث بدعة في شريعة نبيه أبي القاسم فقد سعى في هلاك نفسه، وجر الوباء عليه وعلى أبناء جنسه ... وتله الشيطان للجبين وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ... الآية" [2].

وسياسة السلطان في هذا الاتجاه لم تقتصر على بدع المواسم والطرق بل حارب كل أنواع الشعوذة كالاشتغال بالرقى والسحر ومايرتبط به فمن الأوامر التي أعطيت لتعمم في خطب الجمعة الأمر بتوجيه من تبث عليه الأشتغال بالرقى من أهل فاس ونهيهم عن ذلك :

وفي يوم السبت 24 رمضان، قرأ الفقيه السيد أحمد الزعري كتاب السلطان بجامع القرويين لما صعد على المنبر قبل ابتداء الخطبة، وحين فرغ من الخطبة قرأ كتاب آخر أتى لأحمد اليموري على أن ينهي أهل فاس من اشتغالهم بالرقى وأن يوجه إلى السلطان كل من ظهر فيه من الرجال أو النساء ... [3].

لقد أثارت جملة الإصلاحات الإجتماعية المذكورة حفيظة أهل الطرق والزوايا الدينية ضد السلطان مما يفسر القلاقل والاضطرابات التي واجهها السلطان إبان مرحلة حكمه إلا أن هذا التفسير ليس وحده يبرز ماحصل بين

(1) - نفس المصدر

(2) - نفس المصدر

(3) - الضعيف - مصدر سابق - ص 314.

السلطان وبعض الزوايا من خصومات بل إن علاقة الزوايا الدينية بالمخزن تبررها اعتبارات سياسية واقتصادية ومحلية قبلية ليس من شأننا التطرق إليها في هذا الصدد إلا أنه يمكن الإشارة إلى أن بعض الزوايا والطرق الصوفية قد ساندت السلطان عند مبايعته في محاولة منها لكسب النفوذ وحماية المخزن وحتى بالنسبة لبعض المناطق الحدودية التي كانت تأمل أن يساهم المخزن السليماني بتدعيمها في بعض المناطق كما يستفاد ذلك مثلا من مراسلات مولاي سليمان مع مولاي العربي الدرقاوي [1] إلا أن ملابسات السياسة الخارجية للسلطان مولاي سليمان جعلته يقبل بيعة الدرقاوي ويتأخر في دعم بيعة الثوار بتلمسان مساعدا العثمانيين في تهدئة الأوضاع بنواحي تلمسان [2].

كيف يمكننا إذن أن نفسر هذه المقارنة المتمثلة في اتجاه السلطان مولاي سليمان في نفس نهج أبيه - ببعض الخصوصيات طبعا - فيما يتعلق بالإصلاح الإجتماعي وتراجعه عن الإصلاحات التعليمية التي تبناها السلطان سيدي محمد بن عبد الله ؟ لاشك أن خصوصية مشكل التعليم والتربية وارتباطه بالنخبة من العلماء مما كان يشكل عامل ضغط على السلطان هو مادفعه إلى تبني هذه السياسة التعليمية بالإضافة إلى ميوله الشخصية المتعلقة بما وصفناه آنفا من كونه عالما فقيها متأثرا بالوسط الثقافي الذي عاش فيه بين علماء عصره بما له وما عليه. إضافة إلى أن التعليم يشكل هما من هموم السلطان التي عاش لها وبها رغم مشاغله السياسية.

أما بالنسبة للإصلاح الإجتماعي الديني والذي واصل فيه سياسة أبيه فمن المرجح أن عمومية مشكل الطرق وارتباطها بالمجتمع وبقاعدة عريضة

(1) - قبيلة بني زروال - ص ص 44 - 45.

(2) - محمد الفلاح العلوي، العلاقات التركية المغربية خلال العصور الحديثة مقال مخطوط.

منه مما يشكل مايسمى بالتصوف الشعبي هو الذي دفعه إلى مواصلة سياسة نقذ الطرق الدينية المتطرفة بابطاله للبدع داخل المجتمع. هذا بالإضافة إلى ارتباط ذلك بالسياسة الداخلية العامة للسلطان إزاء الزوايا وأرباب الطرق الشيء الذي ترتب عنه جملة الإضطرابات والصعوبات التي واجهها السلطان داخليا [1] وطبعا كل هذا لا يجب أن ينسينا تأثير التربية الصوفية للسلطان في توجيه سياسته الدينية هذه التربية المتشبعة بروح السنة والكتاب ونبد مادون ذلك. فقد خاطب أحد الفقهاء وهو لايزال واليا على تافيلالت بقوله :

" - عافاك الله ياإبن الفقيه أتل كتاب الله ودع عنك هذا لامراتب إلا ماقال رسول الله (ص) وتبث في السنة الصحيحة، ثم إن المسلمين كلهم أولياء الله تعالى وبنص القرآن العظيم "ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون" الشرك والكبائر ..." [2].

إضافة إلى أن السلطان كان له رأيه الخاص في المهام التي يجب أن تناط بالزوايا حيث يمكن أن نفهم من قوله أنه يريدها أن تبقى مبتعدة عن المشاكل السياسية أو على الأقل متعاونة مع المخزن من أجل دعم الإستقرار بالبلاد حيث يقول :

"أعلم أني إنما أردت لمن يكون بزاوية وزان واقف مع الشرع المطاع ويكون كالشهاب يحميها من الشياطين لأنها بلد بالمغرب، ومن كان بها كأنما يكون ببلده ... لا فارا بخربة أو محدثا يأوي لتلك البقعة الطاهرة ...

---

(1) - يمكن إجمال الصعوبات الكبرى التي واجهها مولاي سليمان من طرف الزوايا والطرقيين كالتالي:

- 1810 هزيمة أمام أبو بكر مهاوش في موقعة ظيان
- 1818 سجنه من طرف نفس المرابط قرب القباب
- 1819 محاصرته في مكناس من طرف نفس الشخص
- 1820 ثورة أهل فاس لمساندة مهاوش ومولاي العربي الدرقاوي وسيدي الحاج الوزاني ومطالبته بالتنازل عن السلطة وعدم تمكنه من التغلب على ذلك إلا بصعوبة.

(2) - عبد الكريم الفيلالي : التاريخ المفترى عليه في المغرب - مطابع الصومعة - الرباط 1969 - ص 123-124.

وأنت بمعزل عن القوم الذين يريدون مجرد الجاه الدنيوي ويجعلون أمكنتهم خيرا من مكة والمدينة يجهلهم لانهم يجيرون عاصيا ويتعرضون الى لعنة الله ورسوله والملائكة والناس أجمعين والخراب ولو بعد حين بإيوائهم المحدثين وحقيقة الزاوية أن يلجأ إليها كل من هرب إلى الله من ظالم وليست مهربا للظالمين" (1).

III - نتائج وخلاصات :

يجدر بنا الآن أن نتسائل عن إمكانية وجود تأثيرات خارجية بعد أن حللنا ما أحاط بسياسة السلطان الدينية من ملابسات شخصية وداخلية. وبغض النظر عن ظروف وصول الفكر الوهابي إلى المغرب الأمر الذي خاض فيه غيرنا ووضحه بما فيه الكفاية (2) فإنه يمكن القول كذلك أن السياسة الدينية للسلطان مولاي سليمان بخصوصياتها المذكورة سلفا وريثة التقاليد المخزنية العلوية وثقافة أهل الحل والعقد ومنهم العلماء الفقهاء ويتجلى هذا في ردود السلطان سعود بن عبد العزيز التي أبدى فيها رأيه بخصوص الحركة الوهابية إذ يقول :

".... ومذهبنا معشر المالكية مبني على ماأنتم عليه من سد الذرائع وإبطال البدع والمحدثات ولا نكفر مع ذلك أحد لذنب من أهل القبلة ولا من أهل الأهواء في المعتقدات إلا من خرج ببدعته عما علم من الدين ضرورة كمنكري علم الله تعالى بالجزئيات، وعلى هذا إمام أهل السنة أبي الحسن الأشعري والأئمة الأربعة وهو المراد بالقطعيات ...." (3).

(1) - من رسالة مولاي سليمان لعلي بن أحمد الوزاني في ذي الحجة عام 1210 هـ ضمن : الضعيف: مصدر سابق .

(2) - محمد المنصور، الحركة الوهابية ... ندوة الاصلاح والمجتمع في القرن 19 م - ص ص 177-191.

(3) - رسالة السلطان مولاي سليمان إلى سعود بن عبد العزيز بتاريخ 1811 عن محمد المنصور - السلطان مولاي سليمان. الوثائق : ص 80 - 81 التي ذكرنا احالتها كالتالي :
M.S 4629 RL FOl 1 - 5

ويتابع السلطان كلامه بتوضيح مسألة تكفير عوام المسلمين فيقول :

"ولعل ما ينقل عنكم من تكفير جفاة الأعراب إنما هو فيمن استحق ذلك منهم باعتقاد ما يخالف ماعلم من الدين ضرورة، إذ الظن بكم التثبت في الأمور لاسيما في هذا المقام الصعب، فلا يخفى عليكم ماورد في تكفير عوام المسلمين من التشديد وغاية الوعيد الشديد بحديث مسلم وجامع الترميذي عن ابن عمر "أيما امرئ قال لأخيه كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه ..."[1].

وفي نهاية رسالته هذه يوضح السلطان عدم معارضته للمذهب الوهابي جملة بعد أن وضح مجمل مايختلف فيه مع الوهابيين تفصيلا رابطا بذلك علاقته مع المشرق العربي بالسماح مجددا لركب الحج المغربي باستئناف رحلاته التي دشنها ولده مولاي إبراهيم على رأس وفد رسمي للحج.

".... وهذا القدر كاف في هذه الرسالة المبنية على الإختصار دفعنا بها أن تظنوا بنا أنا ممن نحوا منحى الإعتراض عليكم والإنكار. ولما اتضح لدينا قصدكم وخلوص طويتكم في الذب عن الدين ولحقنا احتياطكم وحياطتكم للمسلمين، ومنكم الجار وإن جار فكان بكم من اللائذين ومحافظتكم على الشيم العربية والمكارم الشرعية مقتنعين بذلك منكم مبتهجين، وإنكم لاتعرضون للمغاربة الحجاج والعمار والزائرين، لم يبق وجه في احتباسهم عن أداء الفريضة والسنة وجهناهم وأحللنا ولدنا وسطهم في هذه السنة ملتمسين أجر تلك الخطى ..." [2].

وهكذا يتبين لنا أن السياسة الدينية والثقافية للسلطان مولاي سليمان تحكمت فيها جملة عوامل داخلية بالدرجة الأولى لعبت فيها ثقافة السلطان وميوله الفكرية الدور الكبير ووجهتها الظروف التي تولى فيها الأمر

(1) – نفس المصدر السابق الذكر.

(2) – نفس المصدر السالف الذكر.

وما ارتبط بها من أحداث واضطرابات دون أن ننسى أن تأثير والده السلطان سيدي محمد بن عبد الله يبقى واردا في كل الأحوال بدليل نهج خطاه في مايتعلق بالإصلاحات الإجتماعية بالخصوص، وعلى هذا فإن هذه السياسة بدورها لاتخلوا من أبعاد سلفية على الطريقة المغربية. وإن كانت لاترقى إلى ماكانت عليه سياسة والده السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

جوانب من النشاط العلمي على عهد السلطان المولى سليمان 1206 = 1238 هـ

عبد القادر العافية
كلية الآداب/الرباط

يتفق المؤرخون على أن المولى سليمان كان أعلق اخوته بقلب أبيه السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله، ويعللون ذلك بقولهم أن سبب ذلك هو اشتغاله بالعلم والعكوف على تحصيله ودراسته وكان والده رحمه الله يبعث له بأعيان الفقهاء والأدباء ليدرس عليهم ويأخذ عنهم [1]، ويتفقون كذلك على أنه كان فقيها نبيلا علامة جليلا، يجالس العلماء والفقهاء "يحوط الشريعة بأحواله ويشير إلى الوقوف عندها بأفعاله" - على حد تعبيرهم - ويقولون عنه أنه كان نادرة من نوادر البيت العلوي المجيد في الاشتغال بالعلم وايثار أهله بالاعتبار، قال القاضي ابن الحاج في الإشراف[*]" كان لا يجالس إلا الفقهاء ولا يبرم أمرا من أمور مملكته إلا بعد مشاورتهم، ولا يقبل منهم إلا النص الصريح ..." [2] وكان له اشتغال بقراءة التفسير والحديث.

لقد أخذ مولاي سليمان رحمه الله علومه بسند متصل عن كبار علماء

(1) - الاستقصا، 8 : 86 - 87.

(*) - الاشراف على بعض من حل بفاس من مشاهير الاشراف (لمحمد الطالب بالحاج) (ت: 1273هـ).

(2) - فهرس الفهارس : 2 : 983.

عصره، في طليعتهم والده العلامة الجليل سيدي محمد بن عبد الله ومنهم شيخ الجماعة العالم الفذ سيدي محمد التاودي بن سودة، وعبد الرحمن الجبيب السجلماسي وأحمد بن التاودي بن سودة، وعبد القادر بن شقرون والطيب ابن كيران، ومحمد بن الطاهر الهواري، ومحمد الطربناطي وحمدون بالحاج، ومحمد بن عبد السلام الفاسي، والعربي بن المعطي بن صالح الشرقاوي، وابن أبي القاسم الرباطي، وأبو القاسم الزياني، وغيرهم ...

ولقد أحسن الزياني صنعا عندما ألف فهرسة جمع فيها شيوخ السلطان مولاي سليمان سماها : "جمهرة التيجان، وفهرسة اللؤلؤ والياقوت والمرجان، في ذكر الملوك وأشياخ مولانا سليمان ..." [1].

قال الشيخ العباس بن ابراهيم : كنى عن الملوك بالتيجان، وعن علماء أهل البيت باليواقيت، وعن أشياخ أمير المؤمنين بالآلئ وعن تلامذته بالمرجان. ذكر فيها الزياني أربعة وعشرين شيخا من شيوخ المولى سليمان كلهم ممن عرفوا بالتضلع في العلوم وإتقانها، ذكرهم بأسمائهم، وألقابهم وكناهم. وذكر من المدبجين ثمانية وثلاثين شيخا - والتدبيج في اصطلاح المحدثين هو : رواية المتقاربين في السن والإسناد من بعضهما [2] ومعناه أن عددا من شيوخ مولاي سليمان أخذوا عنه كما أخذ عنهم، وذكر الزياني في هذه الفهرسة ستة وثلاثين تلميذا من تلامذة السلطان المولى سليمان كلهم أصبحوا من العلماء المرموقين، ومن المساهمين في النشاط العلمي على عهد السلطان المولى سليمان رحمه الله.

ومن خلال هذه الفهرسة يتجلى مقدار شغف السلطان مولاي سليمان بالعلم والمعرفة، ومقدار حرصه على أخذ علمه عن المختصين فيه، والمهرة به،

(1) - الإعلام بمن حل بمراكش واغمات من الإعلام :116/10- 117.

(2) - عن السند المديج، انظر : التقريب للنووي، ت : 676 هـ : 36 ط : مكتبة الحلبوني ويدخل في هذا الباب رواية الأكابر عن الأصاغر : سنا أو علما، كالزهري عن مالك، والعبادلة عن كعب الأحبار : أي رواية الصحابي عن التابعي، ورواية التابعين عن تابع التابعين.

وهذه الفهرسة تطلع الباحثين على الحياة الفكرية في عهد السلطان مولاي سليمان وعلى أسماء مجموعة من العلماء الذين كانت لهم مساهماتهم في ميدان الفكر والمعرفة.

ومن خلال المصادر والمراجع التي تحدثت عن المولى سليمان : كالترجمانة والاستقصا، وطلعة المشترى والاتحاف، والإعلام، والبستان، وغيرها نجد مجموعة أخرى من الشيوخ مثل : عبد الوهاب أجانا، والشيخ علي بن صانبة المكناسي، والشيخ محمد بن عبد السلام الناصري [1].

وكان المولى سليمان رحمه الله يجمع أعيان العلماء لسرد الحديث الشريف وتفهمه والمذاكرة فيه على مر الليالي والأيام، ويتأكد ذلك في رمضان، ويشارك بغزارة علمه وحسن ملكته ... [2].

وهذا القرب من العلماء جعلهم يقدرون مواهبه وملكاته ونبوغه، وكانوا يرون فيه : الأب، الأخ، والصديق، ويرونه أهلا لإمارة المؤمنين دون سواه.

ويقول الناصري في الاستقصا : "وكان في طليعة العلماء الذين تحمسوا لبيعته: الشيخ محمد التاودي بن الطالب بن سودة، وأحمد بن سودة، ومحمد بن عبد السلام الفاسي، وعبد القادر بن شقرون، ومحمد بن أحمد بنيس، ومحمد بن عبد المجيد الفاسي، ويحيى بن المهدي الشفشاوني الحسني، وعلي بن ادريس، ومحمد بن ابراهيم، ومحمد بن مسعود الطرنباطي، وسليمان بن أحمد الفشتالي [3].

ولم تصرفه مهام ملكه وأبهة السلطان عن التواضع مع العلماء

(1) – انظر الاتحاف مثلا : 407 - 408، الجزء : 5.

(2) – الاستقصا، 170/8.

(3) – المصدر نفسه، 89 – 90 بشيء من التصرف.

والعناية بهم فهو رحمه الله زار أبا زكرياء يحيى بن المهدي الشفشاوني[1] في بيته، وزار سيدي محمد بن سودة شيخ الجماعة بفاس [2]، وعاد الشيخ عبد القادر ابن شقرون الفاسي[3] وهو على فراش الموت وحضر جنازته وساعد على وضعه في قبره، ولم ينصرف إلا بعد الانتهاء من عملية الدفن[4].

وكان يحضر حفلات ختم الدروس العلمية فقد حضر ختم الشيخ الطيب ابن كيران في تفسير القرآن بزاوية بن رحمون بفاس يوم 27 شعبان : 1211هـ[5].

ويعد السلطان المولى سليمان من أهم كبار علماء عصره. ويشيد كل الذين أرخوا له بعلمه وبتضلعه في العوم الإسلامية بمختلف أنواعها.

لقد كان متمكنا من علوم القرآن عارفا بالقراءات والروايات، بارعا في علم التجويد [6] وعلم الوقف والابتداء، ذكر الزياني وهو يتحدث عن ابن حزم الظاهري، وعن انتقاده لبعض العلماء، وذكر أن الخلاف كان شديدا بين أصحاب الرأي وأصحاب الظاهر في الوقف على قوله تعالى "ومايعلم تأويله

---

(1) – هو العالم المشارك، تولى الخطابة والإمامة بالضريح الإدريسي مدة ثلاثين سنة، توفي سنة : 1229 هـ السلوة : 95/1.

(2) – العلامة الكبير شيخ الجماعة في عهد سيدي محمد عبد الله، والفترة الأولى من عهد السلطان مولاي سليمان، توفي سنة : 1209 هـ.

(3) – عبد القادر بن شقرون من كبار علماء عصره، ولد بفاس، وهو من تلامذة الشيخ عمر الفاسي وأضرابه. تولى القضاء وكان مدرسا مشهورا تتلمذ عليه السلطان مولاي سليمان. وكان يحترمه ويستشيره في حل المشكلات العلمية (ت : 1219 هـ).

(4) – انظر : الحياة الأدبية بالمغرب على عهد الدولة العلوية لمحمد الأخضر غزال : ص : 276.

(5) – زاوية ابن رحمون توجد بزقاق الحجر بفاس.

(6) – ذكر الضعيف في تاريخه أن السلطان مولاي سليمان وبخ محمد بن الطيب بوجيدة الذي صلى به الجمعة بمسجد القصبة قرب الرباط، لأنه لا يحسن التجويد : ص : 331.

إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا" (آل عمران : 7) وكذلك اختلفوا في الوقف على قوله تعالى : "قالوا انطقنا الله الذي انطق كل شيء" (فصلت/21) [1].

قال الزياني : "وقد رجح الوقف عليه إمام المحدثين والمفسرين في وقته وأمير المؤمنين في عصره، مولاي سليمان بن مولاي محمد رحمه الله، وكتب في ذلك مايؤيد عدم الوقف على شيء، فليطالع تقييده في الآية" [2].

فالسلطان مولاي سليمان يعتبره علماء عصره من كبار المحدثين والمفسرين ولقد أجاز كبار العلماء وأجازوه.

يقول الشيخ عبد الحي الكتاني في فهرس الفهارس : "وقد وقفت على نسخة إجازة مثبوتة من خط السلطان أبي الربيع المذكور كتبها لأبي العباس أحمد بن النادي الحمدوني السريفي العلمي، نصها بعد الحمدلة والصلاة : "هذا عقد أخوة وإذن لمحبنا في الله الفقيه المشارك السيد أحمد بن النادي الحمدوني الموسوى السريفي الحسني العلمي، في جميع مروياتي، وأورادى عن أشياخي كفقيه وقته وعالمه بلا دفاع، سيدي عبد الرحمن حفيد الشيخ الحبيب، والشيخ التاودي بن سودة، والفقيه العلامة سيدي محمد أبي القاسم الفلالي وغيرهم، وقد انخرط في سلك سلسلة هؤلاء الأشياخ في جميع ما أرويه عنهم من كتب حديث، ودلائل الخيرات، وورد ابن ناصر، وغير ذلك كما هو في فهرستي، وقد ناولته أيضا بما فيها إذ لم أكن للإجازة أهلا، وفقنا الله وإياه وجعلنا من الذين أنعم الله عليهم آمين، كتبه غرة شوال عام 1233 عبد ربه سليمان ابن محمد لطف الله به آمين"[3].

---

(1) – الآية بتمامها : "وقالوا لجلودهم لم شدتهم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون".

(2) – الترجمانة الكبرى للزياني، ص : 361، ط : فضالة : 1967 م.

(3) – فهرس الفهارس،983/2 – 984.

ومن خلال نص هذه الإجازة ندرك مقدار تواضعه وتقديره لشيوخه، وهو يؤكد للمجاز أنه بهذه الإجازة قد انخرط في سلك سلسلة شيوخ السلطان المولى سليمان في جميع ماورواه عنهم. ونراه يفتتح الإجازة بقوله : هذا عقد أخوة وإذن. والإخوة هنا اخوة العلم، لأن العلم في الإسلام ينبني على السند والسند يكون بالاتصال بالشيخ، والتحدث إليه، والأخذ عنه، والتعرف على أحواله ... وكل هذا يؤدي إلى تمتين الصلة بين الطالب وشيخه، وبذلك تثبت الأخوة في العلم.

وهذه الزمالة في العلم جعلت السلطان يطلب من بعض علماء حضرته أن يقوموا ببعض الأعمال العلمية، ومن ذلك مثلا ماذكره الضعيف في أحداث : 1210هـ من أن السلطان المولى سليمان : "فرق على علماء أهل فاس الأربعين حديثا يشرحونها، وهي للنووي فشرح الربع منها : ابن كيران، والربع القاضي السيد أحمد بن سودة، والربع لابن شقرون، والربع للفقيه بنيس، وأجلهم عشرة أيام فشرع في شرحها الطيب بن كيران يوم الأربعاء سادس عشر رجب". أي من سنة (12120 هـ)[1].

والملاحظ هنا أن السلطان حدد لإنجاز هذا العمل مدة زمنية معينة، وهي عشرة أيام، بمعدل شرح حديث واحد في كل يوم، وهي مدة كافية، مع العلم أن بعض الأحاديث يحتاج شرحه إلى مدة أطول، ومهما يكن من أمر، فإن مدة عشرة أيام كافية لإنجاز هذا العمل، ويمكن أن يدخل هدا الأمر السلطاني في إطار تشجيع السطان للعلماء على الكتابة والاشتغال بما يفيد، وفيه أيضا بعث للهمم والتنافس في الأعمال النافعة، وفي ذلك كله تشجيع للنشاط الفكري.

وكان السلطان المولى سليمان يعطي المثل من نفسه، حيث كان لايفتر عن القراءة، ويبحث، ويكتب، ويحرر الأبحاث العلمية الجادة المفيدة ...

(1) - تاريخ الضعيف بتحقيق : أحمد العماري، ط 1 عن معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط : 1986.

ولقد ألف رحمه الله مجموعة من الكتب العلمية تناقل ذكرها المؤرخون، وكتاب التراجم، ومؤلفوا الفهارس، وغيرهم، منها ماجاء ذكره في فهرسة شيوخه : جمهرة التيجان ... السالفة الذكر وهي :

1) - حاشية على الموطأ، تشتمل على شروح وتوضيحات، فاتت أكابر العلماء.

2) - حاشية علي الزرقاني شارح المواهب اللدنية، وفيها إضافات وتحقيقات ومعلومات قيمة.

3) - حاشية علي الخرشي في جزئين.

4) - تفسير الآية الكريمة "وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون" (الأنبياء/25) يتحدث فيها عن مسألة الغرانيق بكثير من التفصيل، والرد على المفسرين الذين أدخلوا كثيرا من الخرافات في تفسير هذه الآية [1].

5) - عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي بن الجد [2].

6) - جواب عن مسألة الكسب [3].

7) - ماهو متفق على حرمته من الغناء وماهو مختلف فيه [3].

8) - تقييد في الوقف على قوله تعالى : "قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء" الآية الواحد والعشرون من سورة فصلت [4].

---

(1) - لقد ذكر الأستاذ محمد العابد الفاسي مجموعة من مؤلفات المولى سليمان في مقدمة كتاب : عناية أولي المجد.

(2) - عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي بن الجد "نسبه بعضهم لسليمان الحوات ونسبه آخرون لمولى سليمان، منهم محمد بن جعفر الكتاني في السلوة، وعبد السلام بن سودة في الدليل، والعباس بن ابراهيم في الإعلام، ورجح ليفي بروفنسال في : مؤرخوا الشرفاء أنه للسلطان مولاي سليمان العلوي، والكتاب طبع بالمطبعة الجديدة بفاس 1928 م وله مقدمة مفيدة للأستاذ محمد العابد الفاسي.

(3) - موجود بالخزانة العامة بالرباط : رقم : 652 حرف : د.

(4) - الترجمانة الكبرى للزياني، ص : 360.

9) - رسالة في إباحة استعمال البخور في نهار رمضان [1].

10) - رسالة عن حال متفقرة الوقت [2].

11) - فهرسة ألفها باسمه أبو القاسم الزياني بعنوان :

"جمهرة التيجان وفهرسة اللؤلؤ والياقوت والمرجان، في ذكر الملوك وأشياخ مولانا سليمان".

جاء عنها في فهرس الفهارس "جزء صغير" اختصرها تلميذ الزياني المسند بن رحمون في نحو الخمس كراريس، ولعل الاختصار أفيد من الأصل وأجمع ... [3].

وللسلطان مولاي سليمان مجموعة من الخطب والرسائل، منها : خطبته التي تصدى فيها للانكار على المبتدعة، وإظهار مايأتونه من الشرك الخفي [4].

ومنها : جواب المولى سليمان إلى سعود بن عبد العزيز [5].

ومنها : رسالته البليغة إلى الفقيه المرابط السيد العربي بالمعطي، وهي رسالة دالة على غزارة علمه، وسعة إطلاعه، وقوة بيانه ... [6].

وقد أورد له الشيخ العباس بن ابراهيم في الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مجموعة من الرسائل التي كان يحبرها بمناسبات مختلفة أو يجيب فيها عن قضايا دعت الضرورة للإجابة عنها [7].

(1) - انظر : الحياة الأدبية لمحمد الأخضر، ص : 363.

(2) - المرجع نفسه.

(3) - فهرس الفهارس،98/2.

(4) - الحياة الأدبية لمحمد الأخضر غزال، ص : 363.

(5) - توجد بالخزانة الحسنية تحت رقم : 4624.

(6) - الإعلام بمن حل مراكش واغمات من الأعلام، ج 123/10.

(7) - المرجع نفسه، ص : 116.

ومن خلال كتابات المولى سليمان وخطبه ورسائله ... نجد أن أسلوبه يتميز بتضمين آيات قرآنية كريمة، وأحاديث نبوية شريفة، وفقرات من سيرة الرسول (ص) وسيرة أصحابه (ض) وسيستدل بقواعد وأصولية، ويشير إلى أحداث تاريخية، يأخذ منها الأمثلة والعبر ...

ومعنى ذلك أنه يوظف رصيده العلمي أحسن توظيف، ويتفنن في استعماله ببراعة الأدباء، وتمكن العلماء، وتجربة الحكماء، وفصاحة البلغاء، ومهارة كبار الأئمة من المفكرين الأجلاء.

فمولاي سليمان رحمه الله كان متمكنا من العلوم الإسلامية، غزير الإطلاع يستحضر معلوماته المتنوعة، ويتصرف فيها كما يشاء، يستدعيها فتجيبه، ويناديها فتسعفه، مالك لناصيتها، وذلك مما جعل من رسائله ووصاياه وخطبه - مقامات أدبية على مستوى عال من الفصاحة والبلاغة.

النشاط الفكري في عهد مولاي سليمان :

يعد هذا النشاط في الحقيقة امتدادا لما كان عليه الحال في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

ومن المعلوم أن الحياة الفكرية بالمغرب عرفت ازدهارا على عهد الدولة العلوية الشريفة، ابتداء من عهد المولى رشيد رحمه الله الذي كان له اهتمام كبير بنشر الثقافة والعلم، والذي كان من عادته أن يعقد مجالس للبحث والدرس، وعمل على تشجيع النشاط العلمي ببناء المدارس، كمدرسة الشراطين، والصفارين بفاس.

ونشطت الحياة العلمية في عهده نشاطا ملحوظا، وقد أشار الإفراني إلى ذلك في كتابه : الظل الوريف حيث قال : "حدثنا غير واحد من أشياخنا قال : كنا في زمن الشبيبة نطلب العلم ونسأل عن مسائله على صورتها ولا نلغي من تطلع به، بل كانت الأرجورة المسماة بالسلم لا يعرفها غير رجل

أو رجلين، فلما مد الله لهذه الدولة الأكناف، وأسمى قدرها وأناف، تدفقت على الناس العلوم ودانت صعاب الفنون، حتى عاد صغار الطلبة يعرفون فنونا عديدة، ويكون لهم فيها عريضة مديدة، وقد تخرج في هذه الدولة السعيدة جماعة من الأعلام لهم القدر الراسخة في العلم، واليد الطولى في الاتقان، وألفوا تآليف حسنة ..." [1].

واستمر الحال على ذلك في عهد المولى اسماعيل، وبلغ هذا النشاط العلمي أوجه في عهد سيدي محمد بن عبد الله الذي عمل من جهته على بعث نهضة علمية، ووجه العلماء للبحث والانتاج .. وأحدث تنافسا بينهم في هذا المجال، ونبههم إلى وجوب العناية بالمصادر الأساسية للثقافة الإسلامية، والابتعاد عما يحجر الفكر ويجمد القرائح ... وبذلك فتح أمامهم آفاقا جديدة، وسار في هذا السبيل خطوات موفقة .. [2].

والمولى سليمان الذي نشأ في بيئة علمية، والذي كان شغوفا بالعلم إلى أقصى الحدود وجد في علماء عصره مايلبي رغبته ويغذي طموحه، ووجد نفسه أمام عدد هائل من شيوخ العلم والمعرفة، وبذلك اعتبرت مشيخة مولاي سليمان مشيخة غنية بالعلماء المتخصصين والمتضلعين في العلوم الإسلامية بمختلف أنواعها ...

وبالرغم مما يقال من أن المولى سليمان لم ينتهج الخط الذي سار عليه والده في الحث على الإكتفاء بدراسة الأمهات دون الخوض في شروح المختصرات والمنظومات ... بالرغم من ذلك فإن المولى سليمان انتهج نهج أبيه رحمه الله في حث العلماء على الانتاج، والتأليف، وفي تشجيع طلبة العلم، وتوفير الحياة الكريمة لشيوخه ...

(1) – عبد الرحمن بن زيدان مجلة المغرب السنة، 5 – نوفمبر – دجنبر : 1936 م.

(2) – أشرت إلى ذلك في بحثي المنشور (بدعوة الحق) تحت عنوان : ملامح عن الحركة الفكرية في عهد سيدي محمد بن عبد الله، العدد : 273.

وكان المولى سليمان يعقد الجلسات العلمية لدراسة التفسير والحديث، ولدراسة المسائل الفقهية، والأحكام الشرعية، ولقد سبقت الإشارة إلى أنه طلب من أربعة من العلماء شرح الأربعين النووية في عشرة أيام.

ومن خلال تتبع الدارس ليوميات الضعيف مثلا نجد أنه يسجل بعفوية وأمانة الدروس التي كان يحضرها على عدد وافر من العلماء في عهد المولى سليمان، ويذكر الضعيف اسم الشيخ والمادة، بل يذكر اسم الكتاب والفصل والفقرة التي وقف عندها الشيخ ... سواء تعلق الأمر بالتفسير أو الحديث أو الفقه أو النحو... ويبدو من خلال مذكراته : أن جل الطلبة كانوا يحفظون مختصر خليل عن ظهر قلب، لأن الضعيف عندما يتكلم عن دراسته للمختصر يعين الفقرة التي وقف عندها الشيخ، ويذكرها كما يذكر العلماء عادة الآية من القرآن لاعتقادهم أن جل القارئين لكتبهم يعرف ذلك.

وكان السلطان مولاي سليمان رحمه الله يتتبع نشاط العلماء ويسأل عن المواد التي يدرسونها للطلبة، وعن مكانها وعن الوقت المخصص لها، وكان من حين لآخر يحضر ختم بعض المواد بنفسه. ومن ذلك مثلا ماذكره الضعيف حيث قال : "ويوم الثلاثاء 24 شعبان – أي من سنة : 1210 هـ – وقف الفقيه الشيخ الطيب بن كيران على "قل هو الله أحد" في التفسير، وفي الغد ختم القرآن بالشرح في زاوية بن رحمون، وحضر السلطان في الختم..." (1).

ومن قراءة تاريخ الضعيف عن الفترة التي عاشها من عهد مولاي سليمان نلاحظ أن الضعيف نفسه كان يحضر كثيرا من الدروس العلمية، ويجلس في مجالس كبار العلماء باعتباره طالبا رباطيا يطلب العلم بفاس، فهو ينتقل من درس إلى درس، ومن حلقة إلى حلقة، ويتحدث عن النشاط العلمي والطلابي على عهد المولى سليمان، وعن النزه التي كانت تقام على

(1) – تاريخ الضعيف، ص : 281.

ضفاف وادي الجواهر، أو على ضفاف وادي سبو قرب فاس، أو في الحدائق والمنتزهات ... ويتحدث كذلك عن الحفلات التي كانت تقام بمناسبة اختتام فن من الفنون، أو كتاب من الكتب المدروسة، كالجامع الصحيح للإمام البخاري، وصحيح مسلم، والموطأ، والشفا للقاضي عياض أو غيرها ... ومن ذلك قوله : "وفي الثاني منه - أي من رمضان عام : 1211 هـ موافق لشهر فبراير : 1847 م - قرأنا باب : المشرك إذا قال : "لا إله إلا الله" ووقفنا على كتاب الحجر من البخاري على ابن شقرون - وهو يقصد العلامة الكبير الشيخ عبد القادر بن شقرون ت: 1219 هـ وفي يوم الأحد السادس من رمضان ابتدأ بن شقرون من كتاب الإجارة ووقف على باب في رد المظالم، وفي الغد وقف على حديث الإفك من البخاري ... وفي الغد وقفنا على حديث الإسراء، وفي الغد على قتل حمزة، وفي يوم الثلاثاء 15 رمضان وقفنا على الباب الذي بعد غزوة الفتح، وفيه ابتدأ السيد عبد الواحد الفاسي ختم البخاري بجامع الرصيف، وفيه تم تزليج جامع الرصيف [1].

ويوم 17 رمضان قرأ بن شقرون كتاب تفسير القرآن، وقفنا على سورة يونس، والغد إلى حم ..." [2].

ويوم الاثنين 28 رمضان ختم سيدي عبد الواحد الفاسي البخاري بجامع الرصيف.." [3] ويلاحظ أن ختم البخاري من طرف الشيخ عبد الواحد الفاسي استمر من 15 رمضان إلى يوم 28 منه.

ثم يقول : "وفي الغد - أي يوم 29 رمضان : 1211 هـ - ختم بن شقرون" أي تفسير القرآن الكريم الذي بدأه يوم 17 رمضان، والظاهر أنه كان يقتصر على تفسير بعض السور، ويوم 4 شوال من نفس السنة صنع السلطان

(1) - تاريخ الضعيف، ص : 282 ويلاحظ : أن عملية اتمام البناء لم تعق سير الدراسة.

(2) - تاريخ الضعيف، ص : 282.

(3) - المصدر نفسه.

- مولاي سليمان - طعاما للطلبة بوادي فاس، وخرج أهل فاس بالخزائن للطلبة ... وبعث اليموري الطعام للطلبة لناحية أفراك، لأن الطلبة اتفقوا على النزهة - هناك - فطلعوا للسلطان، فأعطاهم نحو مائة ريال فرقوها على جميع الطلبة، مثقال لكل واحد"[1].

ويمزج الضعيف الحديث عن الدراسة والنشاط التعليمي بالحديث عن الأحداث الأخرى : سياسية، واجتماعية، واقتصادية ...

لكن المتتبع لسير الدراسة والنشاط العلمي على عهد المولى سليمان سيجد أن الحركة الفكرية والنشاط العلمي عرف ازدهارا في مختلف فنون المعرفة، من : قراءات، وتفسير، وحديث، وفقه، وأصول، ومنطق وحساب، وتاريخ وأدب ... ويلاحظ أن المدرس الواحد كان يدرس عدة فنون، وأن الطلبة كانوا يواظبون على الحضور، ويلاحقون المدرسين، ويطلبون منهم أن يدرسوا معهم بعض الكتب العلمية، أو المواد التي يرغبون في دراستها، ومن ذلك مايذكره الضعيف من أن جماعة من الطلبة قصدوا بيت الشيخ عبد القادر بن شقرون من أجل أن يدرس معهم مختصر الشيخ خليل، وكان الشيخ بن شقرون في حالة غضب مما بلغه من أن بعض الطلبة يتكلمون بالسوأ في (البلديين) [2] فقال لهم :

"جعلتمونا يهودا. فلم أتيتم إلينا ؟" قال الضعيف : "وسد الباب في وجوههم، ودخل الدارحتى أتى إليه السيد أبو بكر المنجرة، فرغب فيهم وأخذ

---

(1) - المصدر نفسه.

(2) - كان يطلق اسم (البلديين) على اليهود الذين أسلموا، وخاصة بعد طرد اليهود من الأندلس في أواخر العهد الوطاسي واستقر كثير منهم بفاس بحي خاص يعرف بالبليدة نسبة إلى البلديين، ولم يندمجوا في المجتمع الفاسي بسرعة، وكان منهم عدد من كبار العلماء، كالشيخ أحمد المنجور شيخ السلطان أحمد المنصور السعدي، والعلامة عبد القادر بن شقرون شيخ الضعيف وغيره من العلماء وكبار الفقهاء. وقد تحدث الزياني عن البلديين في مؤلف خاص يوجد بالخزانة العامة تحت رقم : 270 : ك ضمن مجموع.

بخاطره"[1] ونرى بعد هذا أن الشيخ بن شقرون عفا عن الطلبة، واستأنف دروسه معهم، بل كان يبالغ في إكرامهم ويدعوهم إلى منزله.

ويستفاد من المصادر التي تؤرخ لعهد مولاي سليمان (كالبستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف للزياني، وتاريخ الضعيف، والروضة المقصودة لسليمان الحوات، وغيرها)، أن مولاي سليمان عمل على تشجيع الحركة العلمية بمختلف الوسائل، يقول الضعيف : "وفي يوم الأحد 29 صفر ختم ابن سودة خليل، وفيه عوشرنا على ابن شقرون، وفي متم صفر - أي من سنة 1213 - بعث السلطان كتابا للمحتسب الحاج محمد بن زاكور، وأمره أن يعين الطلبة حفاظ مختصر خليل، سواء كانوا من الحضر أو من البدو، وفي فاتح ربيع الأول وهو يوم الثلاثاء بعث الفقيه السيد محمد بن زاكور وراء الطلبة وعرضهم المختصر، وهم أهل المدارس، وعرض عليه الفقيه السيد محمد الحمياني وغيره ممن يحفظ المختصر، ثم وجههم للسلطان، ورتبهم في زمامه، وأعطى كل طالب مائة ريال، ولما وجد من يحفظ حمزة، والمختصر، أعطاه مائتي ريال، ومنهم من أعطاه خمسين ريالا، ومنهم من أعطاه المال وقفطانا من الملف، وكل من صبيان فاس وطلبتهم الذين يحفظون خليل، كأولاد الفقيه بن سودة وغيرهم قبض صلة السلطان، وكان القاضي هو الذي طلع معهم للسلطان، وكذلك المهاجرين في طلب العلم، ومنهم من قبض 18 ريالا ..."[2].

ثم يقول بعد هذا : "وفي رابع العيد - وهو يقصد هنا عيد المولد النبوي - اجتمع طلبة المدارس وطلعوا للسلطان على أن يعطيهم شيئا يتنزهون به ... [3].

---

(1) - تاريخ الضعيف، ص : 298، مصدر سابق.

(2) - المصدر نفسه، ص : 309.

(3) - المصدر السالف.

ويتضح بجلاء من خلال هذا النص أن المولى سليمان كان يشرف بنفسه على توزيع الجوائز، حرصا منه رحمه الله على إذكاء روح التنافس بين طلبة العلم الذين كانت تجري عليهم الامتحانات وتقدم لهم الجوائز السخية فمائة ريال في هذا الوقت كانت مبلغا كبيرا، أما مائتا ريال، فكانت مبلغا يحسد عليه صاحبه، وتتجلى العناية بالطلبة كذلك في السماح لهم بإقامة مهرجانات حافلة، يشاركهم فيها الأهالي من سكان مدينة فاس والأقاليم المجاورة.

يقول الضعيف : "وفي يوم الأحد 25 شوال خرج جميع الطلبة لوادي فاس للنزهة، فخرج طلبة الجبل بسلطانهم من مدرسة الصفارين، وخرج سلطان طلبة البادية من مدرسة الشراطين،، بالمظال، وشقوا في وسط المدينة وجميع الطلبة محزمين، حاملين المكاحل - البنادق - متقلدين بالسيوف فخرجت معهم إلى وادي فاس..."[1].

فهذا الوصف من مشارك في هذه المهرجانات والاحتفالات الطلابية، يدل على مبلغ ماكان يتمتع به طلبة العلم من مكانة واحترام وأهمية في عهد السلطان المولى سليمان، وكل هذا يدخل في باب تشجيع طلاب المدارس والترفيه عنهم، وتلبية رغباتهم في التخفيف عن أنفسهم من عناء الدروس، والتحصيل، وكثرة المواد والحصص الدراسية. ومن خلال تسجيلات الضعيف يتبين أن الطلبة كانوا يرهقون أنفسهم بكثرة المواد، وحفظ المتون، والمنظومات التعليمية في مختلف الفنون التي يدرسونها ...

وزيادة على المواد الأساسية التي كان يهتم بها المدرسون والطلبة على السواء مثل : النحو، والبلاغة، والفقه، والأصول، والحديث، والتفسير، والتوحيد، واللغة والأدب ... والتي كانت تدرس بمستويات مختلفة : بداية، وتوسط، ونهاية، ويختبر فيها الطلبة من طرف مدرسيهم، أو أمام لجن من

(1) - تاريخ الضعيف، ص : 284.

أجل الحصول على الجوائز والصلات، بالإضافة إلى ذلك، كان الطلبة يدرسون الشفا للقاضي عياض، والحكم لابن عطاء الله، والأحياء للغزالي ... وغير ذلك من المواد التكميلية التي تساهم في توسيع الأفق الفكري لدى الطالب، يقول الضعيف : "وفي يوم الأحد 27 من شعبان ابتدأ بن شقرون كتاب الشفا، وقال : "لم يؤلف أحسن منه في الإسلام، وقال أيضا : كلهم عالج السقام، وما أتى بالشفاء إلا عياض، وقال : كتاب الشفا يخلص من الشدائد والكروب والغموم، وفي صبيحة يوم الثلاثاء وقف على "البراق لما تفصد عرقا حين أراد أن يركب صلى الله عليه وسلم. "وفي ابتدأ - الشيخ - الطيب بن كيران الحكم لابن عطاء الله"[1].

والشفا الذي بدأ الشيخ عبد القادر بن شقرون تدريسه يوم سابع وعشرين من شعبان، يذكر الضعيف أنه ختمه في اليوم التاسع والعشرين من رمضان أي من سنة 1213 هـ [2]. وهي فترة معقولة لدراسة هذا الكتاب الذي نوه به الشيخ ابن شقرون بالغ التنويه، حسبما نقله الضعيف عنه في التعابير السالفة الذكر.

لقد كان من نتائج النشاط العلمي على عهد المولى سليمان أن عرف المغرب في هذه الفترة عددا هاما من كبار العلماء في مختلف العلوم والفنون[3]، جاء ذكرهم في مولفات هذا العصر ومابعده، وقد ذكر جماعة

(1) - تاريخ الضعيف، 313.

(2) - المصدر نفسه.

(3) - الهيئة العلمية على عهد مولاي سليمان كانت تشكل طبقة من العلماء قل نظيرها في تاريخ المغرب، وهذه أسماء بعضهم :

- المولى سليمان نفسه، ت : 1238 هـ.
- محمد التاودي بن سودة، ت : 1209 هـ.
- محمد المنالي الزبادي، ت : 1209 هـ.
- أحمد بن محمد الفاسي، ت : 1213 هـ.
- محمد بن عبد السلام الفاسي، ت : 1214 هـ.

= =

منهم الزياني في البستان الظريف، والترجمانة الكبرى، وسليمان الحوات في الروضة المقصودة، وثمرة أنسي، ومحمد بن عد السلام الناصري في المزايا وفي رحلاته، ومحمد الطالب بن الحاج في الأشراف، والضعيف في مذكراته، وغيرهم من المعاصرين لهذه الفترة، واعتنى كتاب التراجم والفهارس بذكرهم والحديث عنهم، وعن مؤلفاتهم، وفتاويهم، وقد ترجم صاحب سلوة الأنفاس لعدد كبير منهم معرفا بآثارهم وبما كانوا يتقنونه من العلوم والفنون، ومحمد مخلوف في شجرة النور الزكية، وأحمد خالد الناصري في الاستقصا، وطلعة المشترى، وابن زيدان في الاتحاف.

وترجم ليفي برفنسال في : (مؤرخو الشرفاء) لبعض المشهورين منهم، وعبد الحي الكتاني في فهرس الفهارس، وعبد الله كنون في النبوغ، وغيرهم...

وعدد علماء هذه الفترة يستلفت نظر الباحث، وكذا عدد مؤلفاتهم وفتاويهم وفهارسهم ... وإلى جانب العلماء الكبار المتخصصين في الفقه، والحديث والأصول، وعلوم القرآن، والتوحيد، والسيرة والتاريخ وعلوم اللغة

== - زوجة المختار الكنتي، ت : 1224 هـ.
- محمد الطيب بن كيران، ت : 1227 هـ.
- أحمد بن عجيبة، ت : 1224 هـ.
- سليمان الحوات، ت : 1213 هـ.
- العربي المساري، ت : 1240 هـ.
- الشاعر بن عمر الرباطي، ت : 1243 هـ.
- محمد بن عثمان المكناسي، ت : 1213 هـ.
- حمدون بن الحاج، ت : 1232 هـ.
- محمد الرهوني، ت : 1230 هـ.
- الضعيف محمد بن عبد السلام الرباطي، ت : 1236 هـ.
- عبد القادر بن شقرون، ت : 1219 هـ.

وغيرهم، وجميع هؤلاء لهم مؤلفات وانتاج فكري جدير بالدراسة. وجلهم كان يتعاطى التدريس والافتاء والخطابة...

من نحو وبلاغة وبيان ... نجد مجموعة من الشعراء المجيدين مثل : مولاي الحسين أخ السلطان مولاي سليمان، وحمدون بن الحاج، والطيب بن صالح، وابن عمرو الرباطي، ومحمد ابن عبد السلام الناصري، والشيخ محمد الحراق، وغيرهم من الشعراء الأفذاذ ... ويأتي في طليعة علماء هذا العصر السلطان مولاي سليمان نفسه بغزارة علمه وبتآليفه المفيدة، ورسائله البليغة، وأبحاثه القيمة، وبحرصه الشديد علي نشر المعرفة وتشجيع العلم والعلماء ...

وأفرز هذا العصر مجموعة متميزة من كبار شيوخ الطرق الصوفية، مثل : الشيخ : علي الجمال، وتلميذه الشيخ العربي الدرقاوي، والعلامة الشيخ : أحمد التيجاني، والشيخ محمد بن الطيب الوزاني، والشيخ البوزيدي، والشيخ : أحمد بن عجيبة، والشيخ : محمد الحراق ...

والحقيقة أن كل جانب من جوانب النشاط الفكري في عصر المولى سليمان يحتاج إلى دراسة مستقلة، فشخصية مولاي سليمان وحدها تحتاج إلى أطروحة جامعية ودراسة مستوعبة ومتأنية، وكذا الهيئة العلمية في هذه الفترة، ومؤلفات هذا العصر، وشعراؤه ومؤرخوه .

القومات الثقافية والسلوكية في شخصية المولى سليمان

محمد بن عبد العزيز الدباغ *

تولى المولى سليمان ملك المغرب وهو في السادسة والعشرين من عمره بعد موت أخيه المولى اليزيد. وقد بايعه أهل الحل والعقد بمدينة فاس يوم السبت سابع عشر رجب عام ستة ومائتين وألف، إلا أنه صادف ظروفا صعبة جعلته يقاسي مشاق بعض الحروب الداخلية لقمع الفتن وإزالة الاضطراب ونشر الأمن. خصوصا بعد أن كان أخوه المولى هشام يستولي على جنوب المغرب، وبعد أن كانت بعض مدن الشمال قد أعلنت البيعة لأخيه المولى مسلمة.

ولكن بفضل مابذله من جهد، وماقام به من مواجهة بالقوة أحيانا وباللين والتسامح أحيانا أخرى. استطاع أن يتغلب على بعض هذه المشاكل، وأن يوقف تمرد كثير من العصاة والمنحرفين.

ولم يكن الذين يؤازرونه ويوالون حكمه يعدمون المبررات التي دفعتهم إلى إيثاره على غيره. فهم وجدوا فيه صفات حميدة صاروا يذيعونها بين الناس ويبرزون محاسنها، ويبينون عناصر تكوينها.

من هذه الصفات شعوره بالمسؤولية، وحبه للمصلحة العامة، وزهده في الملذات.

(*) - محافظ خزانة القرويين بفاس.

ومنها حبه للعلم وتقديره لأهله، وتفانيه في تحصيله.

ومنها صدقه في أقواله وأفعاله، وسلامة طويته، ومناصرته للسنة النزيهة البعيدة عن شوائب الضلال.

ولاريب أنه اكتسب هذه الصفات عن طريق التربية الهادفة التي رباه عليها والده سيدي محمد بن عبد الله من جهة، وهن طريق الاستعداد الذاتي الذي وهبه الله له فكان به خير من يحفظ العلم ويعمل به.

ونحن لو حاولنا أن نحدد المقومات الأساسية لشخصية المولى سليمان. لرأينا أنها تنبثق من مقومات الثقافة الإسلامية العربية عامة، ومن مقومات الثقافة المحلية السائدة في المغرب حسب المنهاج الذي كان يهدف إلى تحقيقه والده السلطان سيدي محمد بن عبد الله تغمده الله برحمته.

ويتجلى ذلك المنهاج في البحث على إحياء الكتب الدينية القديمة، وعلى الانكباب على دراسة القرآن والتفسير والإطلاع على كتب الفقه والحديث، وعلى الإبتعاد عن الكتب المعقدة في دراسة العقيدة، إذ ينبغي الإكتفاء بدراسة عقيدة ابن أبي زيد القيرواني دون غيرها لما فيها من البساطة وعدم الغلو الفلسفي.

وكان المغرب يتوفر على مراكز ثقافية عامة في مختلف أقاليمه، تتجلى أولا في جامع القرويين بفاس ثم في سائر أطراف المملكة داخل المساجد والمدارس والزوايا.

ولقد تلقى المولى سليمان أصول ثقافته في بعض هذه المراكز، حيث وجهه أبوه إلى سجلماسة، وإلى بلاد أحمر قرب أسفي، وإلى مدينة فاس، فاكتسب بسبب ذلك ثقافة واسعة جعلته يطلع على أصول الدين وأصول اللغة، ويتعمق في دراسة علوم القرآن وعلوم الحديث كما اكتسب أخلاقا

صوفية جعلته يرفض ترهات بعض العادات السيئة التي تتنافى مع روح التصوف الطاهر الهادف إلى خلوص النفس من أوحالها وأدرانها.

واكتملت بسبب ذلك شخصيته العلمية والعقدية، وصار يؤلف الكتب ويدلي برأيه في بعض الجزئيات، ويحرص على تسهيل التلقين العلمي، ويأمر بعض علماء عصره بذلك، ويخطط لهم بعض المناهج التي يمكنهم السير على منوالها، ويحلل الصور المثالية التي كان يراها متجلية عند بعض شيوخه حيث يصفهم بالصفات التي يراها صالحة لتوجيه الآخرين. ولا أدل على ذلك من الأوصاف التي رسم بها شخصية أستاذ محمد بن عبد السلام الفاسي أثناء التحدث عنه في كتابه "عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي ابن الجد. فقد قال عنه بعد أن تحدث عن مواقفه العلمية وعن تنقلاته المفيدة لنشر العلم وتلقينه مايأتي :

"ولما وصل إلى حضرة فاس، انحشر إليه في طلب العلم الناس، فعقد مجالس يدرس فيها القرآن، وأخرى يدرس فيها العلوم كل آن، وكان ممن استوجب التصدير، بين أولي التحقيق والتحرير، مشاركا لأشياخه في أكثر تلامذتهم، مزاحما لآعيانهم في مضائق معارضتهم، قوي العارضة، نافذا البصيرة، كثير التحصيل، بحاثا نظارا، يعرف الرجال بالحق، ويعترف بالفضل لمن له السبق، قادرا على الاستنباط، بصيرا في كل فن بمواقع الأغلاط، إذا بحث أو تحدث لاينفصل إلا عن تحقيق، ولا ينبو صارمه عن ضريبه في تصور أو تصديق".

فنحن نرى أنه حين كان يصف أستاذه إنما كان يهدف إلى ذكر المحاسن التي رأى أنها حقيقة محاسن، بحيث يمكننا أن نستخلص من هذه الأوصاف ماكان يرجو المولى سليمان تحقيقه في المجال العلمي من حيث قيمة التحصيل، ووجوب النظر، والدعوة إلى الاستنباط، والجد في البلوغ إلى الحقيقة دون أي اعتبار شخصي. وهي سمات تدل على أنه لم يكن سلبي

الثقافة، ولا جامد التفكير. فهو كان يرى أن المتلقي الواعي ينبغي أن يتصف بهذه الأوصاف، لأن العلم ليس ترداداً لما هو كائن وإنما هو استنباط وتدرج من الموجود إلى الممكن. وهذا لا يتأتى إلا بالاجتهاد والمواظبة والحرص على المقارنة لتنمو المعرفة وتشحذ العقول.

وقد أشار المولى سليمان إلى أن أستاذه هذا كان يتردد عليه أربعة أصناف من المتعلمين.

الصنف الأول أخذ عنه قراءة القرآن بالروايات إفرادا وجمعا مع تحقيق أحكامها في مجالس الدرس.

الصنف الثاني أخذ عنه قراءة القرآن كذلك، لكن لامع تحقيق الأحكام بل لمجرد المدارسة والاستماع فقط.

الصنف الثالث أخذ عنه ماسوى القراءة وأحكامها من فنون العلم فقط.

الصنف الرابع أخذ عنه كلا من القراءة بأحكامها وغير ذلك من سائر الفنون.

وقال بعد ذلك : "وإني والحمد لله من هذا القبيل، فقد قرأت عليه ختمات شتى من كتاب الله برواية ورش عن نافع قراءة تثبت وتجويد، واستفدت من علومه بالمذاكرة في غالب الفنون من وجدت بركة الانتفاع به في ديني ودنياي وسمعت من حكمه ومواعظه ووصاياه ونصائحه ماتتأثر به القلوب القاتمة، وتنقاد له النفوس الأبية جعلنا الله ممن عمل بما علم فنجا في الدار الآخرة وسلم.

وأشار إليه المولى سليمان أيضا في أرجوزته التي خصها لذكر شيوخه مبينا أنه كان سنده في الضبط والروايات.

وعلى كل حال فإن المولى سليمان قد استفاد من بيئته العلمية،

وحرص على الاهتمام بالعلوم الدينية واللغوية اعتبارا منه بأن التعمق في الدرسات اللغوية يساعد على فهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن أبرز اهتماماته تشجيعه للدروس الفقهية المالكية ورعايته لمختصر خليل الذي كان المغاربة مولعين بحفظه وشرحه وتأويله، فهم قد خصصوا له أوقاتا معينة لسرده واستظهاره داخل جامع القرويين بفاس. ونال الفقهاء الذين يستظهرونه احتراما وتقديرا من لدن السلطان مولاي سليمان رحمه الله.

إن تقدير المولى سليمان لهذا المختصر الفقهي لا يخالف به سياسة والده الذي كان يحذر من الانسياق إلى دراسة المختصرات ذلك أن السياسة التعليمية لسيدي محمد بن عبد الله كانت تهيب بالمتعلمين وبالفقهاء أن تتسع مداركهم وتقوى استنتاجاتهم وهي نفس خطة المولى سليمان. فقد جاء في المنشور الذي وجهه سيدي محمد بن عبد الله إلى الشيخ التاودي ابن سودة ليبين له مايجب على المدرسين تدريسه مايأتي : وأما في الفقه فإنه يجب عليهم أن يدرسوه في المدونه، والبيان والتحصيل، ومقدمة ابن رشد، والجواهر لابن شاس، والنوادر والرسالة لابن أبي زيد القيرواني وغير ذلك من كتب الأقدمين. ومن أراد تدريس مختصر خليل فإنما يدرسه بشرح بهرام الكبير والمواق، والحطاب والشيخ علي الأجهوري، والخيرشي الكبير لاغير، فهذه الشروح الخمسة بها يدرس خليل مقصورا عليها وفيها كفاية وماعداها من الشروح كله ينبذ ولا يدرس به.

ونظرة في هذا النص تؤكد لنا أن سيدي محمد بن عبد الله لم ينكر على العلماء تدريس هذا المختصر وإنما أنكر عليهم الشروح المعقدة والمطولة الخارجة عن الشروح المذكورة سابقا وهذا يخالف ما جاء به أبو جعفر الناصري في كتابه الاستقصا. فقد نسب في هذا الكتاب إلى سيدي محمد

أنه كان يأمر بنبذ المختصر مطلقا في حين أن النبذ لم يكن إلا للشروح التي لم يشر إليها. قال الناصري رحمه الله متحدثا عن السلطان سيدي محمد بن عبد الله مايأتي : "ومن عجيب سيرته رحمه الله أنه كان يرى أن اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات في فن الفقه وغيره، وإعراضهم عن الأمهات المبسوطة الواضحة، تضييع للأعمار في غير طائل، وكان ينهى عن ذلك غاية، ولا يترك من يقرأ مختصر خليل ومختصر ابن عرفة وأمثالهما ويبالغ في التشنيع على من اشتغل بشيء من ذلك، حتى كاد الناس يتركون قراءة مختصر خليل".

ثم قال بعد ذلك :

"ولما أفضي الأمر إلى السلطان العادل مولاي سليمان رحمه الله صار يحض الناس على التمسك بالمختصر ويبذل على حفظه وتعاطيه الأموال الطائلة، والكل مأجور على نيته وقصده".

وما ذكره الناصري هنا يوحي بأن هناك خلافا جذريا في مفهوم التلقين الفقهي بين مولاي سليمان ووالده سيدي محمد عن طريق هذا المختصر في حين أننا لاحظنا أن سيدي محمد بن عبد الله لم يحذر من قراءة المختصر وإنما حذر من عدم اختيار الشروح الملائمة خوفا من أن يتيه الطالب في متاهات الخلافات اللفظية والتأويلات العقيمة ولم يثبت أن المولى سليمان قد عارض خطة والده في هذا المجال، فهو إذا كان يشجع دراسة المختصر فإنما كان يشجعه على أساس عدم مخالفة تلك الخطة التي سار عليه والده رحمه الله.

وأما في القراءات فإن المولى سليمان كان يعنى بالقراءات العشر ولكنه رغم ذلك كان حريصا على نشر قراءة نافع برواية ورش وقد ذكر الفقيه أبو العلاء ادريس بن عبد الله الودغيري الشهير بالبدراوي أن المولى

سليمان رسم له خطة ينهجها في تأليف كتابه التوضيح والبيان، في مقرإ نافع المدني ابن عبد الرحمن...[1] المبني على حروف المعجم وأمره أن يتحدث فيه عن كل حرف من أوجه ثلاثة : الوجه الأول في أحكامه باعتبار نفسه والثاني في أحكامه باعتبار ماقبله. والثالث في أحكامه باعتبار مابعده. وقال في مقدمته مايأتي : "وقد أمرنا بوضعه من تجب طاعته، وطلعت في أفق العلا سعادته، وهو إمامنا الذي ابيض بسببه وجه الزمان، الشريف أبو الربيع سليمان، واقترح علينا أن نضعه على ترتيب حروف المعجم، ليكون سهل التناول على من أراد منه أخذ الحكم".

ولاريب أن التفكير في تسهيل طرق التلقين لايكون إلا نتيجة المعرفة الدقيقة مع التمكن من أصول التفكير المنظم. ولم يكن المولى سليمان فاقدا لهذين العنصرين الأساسين فهو واثق من تحصيله للمادة العلمية المتعلقة بذلك، وواثق من نفسه بالقدرة على إيضاحها وتبيانها واختيار أحسن الطرق لتبليغها وإيصالها.

ولم يكتف المولى سليمان بتحصيل العلوم الإسلامية والاطلاع على الدراسات القرآنية ولكنه كان حريصا على الالتزام بتطبيق أصولها والاتصاف بأحكامها وربطها بالمعاملات العامة. فليست قيمة العلم عنده باستظهار قواعده وحفظ كتبه وإنما قيمته الحقيقية في الاستجابة إلى أهدافه المثلى وإلى جعله سبيلا من سبل التربية الذاتية والاجتماعية خصوصا بالنسبة لعالم أصبح مسؤولا عن تسيير البلاد ومكلفا بقيادتها.

فالمولى سليمان حينما أصبح ملكا للبلاد المغربية لم تعد التربية بالنسبة إليه وقفا على الالتزام الذاتي، ولكنه صار يعلم أنه مسؤول عنها في الإطارالعام.لذلك صار يدعو إلى تنزيه العقيدة من كل الشوائب التي قد

(1) - طبع عام 1931 بالمطبعة الحجرية وتوجد نسخة من هذه الطبعة بالخزانة العامة مسجلة تحت رقم A 2916

تحرفها عن وجهتها السليمة، وصادف الحال أن الحركة الوهابية التي انتشرت في الحجاز كانت هي نفسها تدعو إلى عدم الغلو في تقديس الأموات وتقديم الذبائح للأضرحة والتمسح بها إلا أن المولى سليمان كان أقل تشددا من أولئك فإذا كان الوهابيون قد أمروا بتحطيم الأضرحة وتسويتها بالأرض العادية فإن المولى سليمان كان يرى أن توعية الناس خير من استعمال العنف المطلق لأن التوعية تربية والأخذ بالعنف زجر. ومعلوم أن مفعول التربية أقوى من مفعول الزجر لأنها تنبثق عن الأعماق في حين أن التخلي عن طريق الردع الزاجر لايستمر دوامه إلا بدوام وجوده وذلك لايفيد إلا قليلا.

وموقفه هذا يدل على استيعابه لحقيقة النفس البشرية وعلمه بأنها في حاجة إلى تقويم داخلي يدوم بدوام الإنسان ويرتبط بسلوكه سواء كانت الرقابة من حوله موجودة أو غير موجودة.

هذا وأن الاهتمامات العلمية لم تشغل المولى سليمان عن تسيير شؤون الدولة، فهو كان حريصا على نشر الأمن وتوحيد البلاد، إلا أن الشيء الذي كان يقلق باله هو تآمر الدول الغربية على سلامة المغرب وعلى سلامة الدول الإسلامية سواء من حيث التضييق الاقتصادي أو من حيث العمل على استغلال البحار والاستبداد بها ولم يجد المولى سليمان سبيلا إلى التغلب على هؤلاء، ولكنه حاول ماأمكنه أن يبتعد عن المواجهة الحربية معهم لأنه كان يرى عدم وجود تكافؤ عسكري يرجح انتصار المغرب إذا وقعت المواجهة.

وخشي أن يكون مسؤولا عن سياسة هاته فانتقى لولاية العهد المولى عبد الرحمن بن أخيه هشام ونصبه خليفة له لما رأى فيه من همة متطلعة إلى تحقيق العزة للمغرب، وإلى تحوير بعض نظمه الداخلية، سواء في الميدان العسكري أو في الميدان الثقافي.

وبالفعل فإن المولى عبد الرحمن قد حمل الأمانة بالقوة، وأسهم إسهاما كبيرا في تطوير شؤون التعليم حيث جمع بين الاتجاه التقليدي الأصيل، والاتجاه العصري المتطور، واجتهد في حمل المغاربة على تعليم بعض العلوم الهندسية والعسكرية. وكانت خطته بداية الانطلاق نحو المسيرة التثقيفية التي مازالت إلى الآن تعطي ثمرتها، حيث أصبحنا نرى الثقافة المغربية تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتحرص على حماية المغرب من الجمود والتطرف. وهي خطة إذا واكبتها التربية الروحية فإنها ستحمينا من الغزو الفكري المنحرف، وسيكون لها الأثر الفعال في استمرار حضارتنا وضمان مستقبلنا وعلى الله الكمال والسلام.

السلطان مولاي سليمان الخطيب المصلح

إدريس العلوي البلغيثي
المدرسة العليا للأساتذة/مكناس

مدخل :

استمرت الحياة الأدبية مزدهرة في عهد السلطان العالم مولاي سليمان - تغمده الله برحمته الواسعة - الذي كان خير خلف لوالده المنعم السلطان الصالح سيدي محمد بن عبد الله في العلم والصلاح، ولا غرو في ذلك فقد تتلمذ عليه، وتخرج في مدرسته المثالية الحازمة التي كانت تتفرد بتلقين العلوم كلها، ولا سيما علوم الدين أصولا وفروعا.

وقد نمت في هذا العهد فنون الأدب بكثرة بواعثها ودواعيها، وتلونت بضروب الحياة الجديدة، وأخص بالذكر منها فن الخطابة الذي اشتد عضده، وقويت أسبابه، وصار حظه في النثر الفني موفورا.

وبلغت الخطابة الدينية أوج ازدهارها بفضل عناية السلطان مولاي سليمان بها وبأعلامها ؛ حيث كان يتولى بنفسه اختيار بعض الخطباء للجوامع الكبرى وتعيينهم للخطبة فيها، وأذكر منهم، على سبيل المثال لا الحصر، الفقيه مولاي أحمد بن عبد الملك [1]، قاضي الجماعة بالحضرتين

(1) - حلاه أحد تلاميذه : قاضي الجماعة بالحضرتين الإدريسية والمولوية شيخنا أبو العباس مولانا أحمد بن عبد المالك، له مشاركة في الفقه والتصريف واللغة مع المعرفة التامة بصناعة القضاء والوثائق واستحضار نصوص المختصر، وقضايا التاريخ والأدب.
وتوفي بمكناسة الزيتون في 10 رجب عام 1241 هـ.
(ابن زيدان : الاتحاف ج .350/1).

فاس ومكناس، الذي اختاره لخطبة جامع قصبته في عام 1237 والفقيه محمد أبا عبد الله ابن علي بن حرزهم المكناسي، خطيب جامع مكناسة الكبير، وكان يخطب بالسطان نفسه ؛ والخطيب محمد بن أبي سالم عبد الله الطاهر الشريف الأمراني، وهو صهر السلطان أبي الربيع سليمان، وكان يخطب بجامع مكناس العتيق ؛ ويعتبر من مشاهير أعلام هذا الفن، ومن المبدعين فيه، وقد شهد له بذلك المؤرخ العلامة ابن زيدان بقوله [2] : "وكان لا يخطب بخطب غيره، ينشئ كل جمعة خطبة بحسب مقتضيات الأحوال".

وامتازت الخطابة في هذا العهد بجودة المعاني ووضوحها، ونصاعة الأساليب، وجزالة الألفاظ، فضلا عما يطبعها من البيان الساحر، والبديع الجذاب الخالي مت التكلف والإسفاف، المترجمان عن تأثرها بمعاني القرآن الكريم وألفاظه، ونهلها من معين الحديث النبوي الشريف.

وخير دليل على فنية الخطابة في هذا العهد الزاهر، هذه المختارات من خطب الأديب أبي العباس أحمد العلوي التي جادت بها قريحته ؛ قال في إحداها [3] :

"الحمد لله الجزيل الفضل، العظيم البذل، الحكم العدل، الذي لا يسأل عما يفعل، ومن سواه عن أفعاله يسأل.

نحمده تعالى على ما أولانا من النعم، ونشكره جل وعز على مازوى عنا من النقم، ونستعينه ونستغفره من جميع الذنوب التي أورثتنا الأحزان والكروب.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده بالهدى ودين الحق أرسله، صلى الله عليه وعلى جميع الصحابة والآل، ومن لهم بإحسان تال، صلاة تقينا جميع البلايا، وتكفر عنا جميع الخطايا.

---

(2) - الإتحاف، مج : 239/3.

(3) - الإتحاف، مج : 1352/1.

من يطع الله ورسوله فقد سعد وفاز، ومن يعص الله ورسله فماله في عرصات القيامة من مفاز".

فقد آثر الخطيب الاستهلال بالحمدلة والتصلية، حتى لاتكون الخطبة بتراء ؛ معتمدا على طريقة الإيجاز الموفية بالمقصود، وتجعل الصدر متصلا بالعجز اتصال الروح بالجسد في وحدة موضوعية.

وتفنن في أسلوبها ؛ إذ التزم السجع في جميع فقراتها، عامدا فيه إلى التنوع، والجنوح إلى المتوازن منه، مما له رنين موسيقي في الأذن، واختار ألفاظا ملائمة لطبيعة الموضوع تتسم بالجزالة والفخامة.

وقال في خطبة أخرى (4).

« الحمد لله المجيب من دعاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن احتمى به حماه، ومن التجأ إليه أواه.

نحمده حمدا من غير عد ولا تناه، ونشهد ان لا إله إلا الله ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ومصطفاه، صلى الله عليه وعلى آله وصحابته ذوى الثناء والجاه، وعلى كل منيب أواه، صلاة تملأ ارجاء العرش وما حواه، وتحول بيننا وبين الشر ومن نواه.

من يطع الله ورسوله فياسعداه، ومن يعص الله ورسوله فيا ويلاه نسأله تعالى أن يجعلنا ممن لطاعته اجتباه».

حافظ الخطيب في هذا الصدر من الخطبة على عنصري : الحمدلة والتصلية، مرتكزا على الوعد بالسعادة لمطيعي الله ورسوله، والوعيد بالويل لعاصيهما، وذلك بإيجاز، وبأسلوب خبرى يفيد الإرشاد والنصح، ويلائم روح دعوة الحق، مستعملا السجع في جميع الفقرات ملتزما فيه

(4) - نفس المصدر، ص/ 352.

بوحدة الروى الذي اختار له حرف «الهاء»، مبديا تفننه في هذا النوع من محسنات البديع اللفظية.

وله من صدر خطبة أخرى [5].

"الحمد لله الملك المعبود، المقر بوحدانيته أهل الإيمان والجحود. نحمده تعالى ونثني عليه بما أثنى عليه أحب خلقه إليه اللهم لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ونشكره شكرا نستوجب من فضله المزيد، ونستعينه ونستغفره من كل ذنب به الكاتب عليها شهيد. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الفعال لما يريد. ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الحميد المجيد، صلى الله عليه وعلى من تبعه فيما أوحى إليه صلاة نستوجب بها من الله تعالى رضاه، ويلطف بنا بها فيما قدره وقضاه.

من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما، ومن يعص الله ورسوله فقد ساق إلى نفسه عذابا أليما".

أجاد الخطيب أبو العباس ابن عبد الملك في هذه الفاتحة التي أتى فيها بالحمدلة والتصلية، مرددا الشهادة بوحدانية الله سبحانه، وبرسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد تأنق فيها بديعيا، مستعيرا ألفاظ القرآن، ومقتبسا من معانيه، وهو مايؤكد لنا بوضوح تأثره ببلاغته وإعجازه.

وصدر في منهجها عن تأثر بخطب الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم الذي يعد الرائد الأول لمدرسة هذا الفن في الإسلام.

وإن مظاهر إزدهار الخطابة في هذا العهد الزاهر لعديدة وتحتاج إلى وقفة طويلة ورصينة، تفسح المجال واسعا للدراسة الموضوعية والفنية لهذا الفن.

---

(5) – نفس المصدر، ص/ 352 - 353

السلطان مولاي سليمان خطيبا :

نبغ في هذا العهد خطيب مصقع أدلى بدلوه في مجال الخطابة، وصال فيه وجال، واقترن اسمه بها، وهو السلطان العالم الأديب مولاي سليمان رمز النهضة العلمية، ورائد الحركة الأدبية بالمغرب.

وإثباتا لهذه المقولة وتوكيدا لها، سأحاول - بمشيئة الله وعونه - عرض وتحليل الخطبة العصماء التي أنشأها بمناسبة طلب أولاد الشيخ الكامل محمد بن عيسى إقامة موسمهم السنوي، وقد افتتحها بقوله [6] :

"الحمد لله الذي تعبدناه بالسمع والطاعة، وأمرنا بالمحافظة على السنة والجماعة، وحفظ ملة نبيه الكريم ، وصفيه الرؤف الرحيم ، من الإضاعة إلى قيام الساعة، وجعل التأسي به أنفع الوسائل النفاعة.

أحمده حمدا ينتج اعتماد العبد علئ ربه و انقطاعه ، واشكره شكرا يقصرعنه لسان البراعة واستمد معونته بلسان المذلة والضراعة.

وأصلي على مولانا محمد ورسوله المخصوص بمقام الشفاعة، على العموم والإشاعة.

والرضى عن آله وصحبه الذين اقتدوا بهديه بحسب الاستطاعة".

حرص الخطيب في هذه المقدمة، الموجزة والموفية بالمقصود، على العناصر الأساسية للخطبة الإسلامية، وهي : الحمدلة والتصلية على رسول الهدى محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، والترضية عن آله وصحبه، مذكرا فيها بواجب السمع والطاعة لكل ماأمر به الله سبحانه وتعالى، والأخذ بما أتى به الرسول الأكرم صلوات الله عليه وسلامه ؛ وهو مايمثل التمسك بالكتاب والسنة.

---

(6) - الترجمانة الكبرى، لأبي القاسم الزياني، ص : 466 - 470، الإتحاف لعبد الرحمان بن زيدان، المجلد : 3/465-470.

وتتبدى من خلالها، ومنذ البداية، عنايته بالناحية البلاغية، مراعيا مطابقة الكلام لمقتضى الحال، موظفا البديع في أخص خصائصه اللفظية وهو السجع، بالإضافة إلى الأسلوب البياني المساعد على إيضاح المعاني.

ويتخلص من المقدمة بالبعدية "أما بعد"، لولوج الموضوع الرئيس، بقوله [7] : "أيها الناس شرح الله لقبول النصيحة صدوركم، وأصلح بعنايته أموركم، وأعمل فيما يرضيه آمركم ومأموركم ؛ فإن الله قد استرعانا جماعتكم، وأوجب لنا طاعتكم، وحذرنا إضاعتكم "ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وأولي الأمر منكم" [8]. سيما فيما أمر الله به ورسوله أو هو محرم بالكتاب والسنة النبوية، وإجماع الأمة المحمدية "والذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر" [9].

يتوجه بالخطاب إلى الطوائف الضالة المضلة بصيغة : "ياأيها الناس"، داعيا لهم - بادئ ذي بدء - بالاستعداد النفسي لقبول ما سيسديه إليهم من نصح، وبصلاح أحوالهم كلها ، مع تذكيرهم بماعليه من حق رعايتهم، والحفاظ على مصالحهم، ومالهم من واجب الطاعة له، والامتثال لأوامره، مستدلا على ذلك بكتاب الله الحكيم.

ويتابع مخاطبتهم بقوله : "ولهذا نرثى لغفلتكم وعدم إحسانكم، ونغار من إستيلاء الشيطان بالبدع على أنواعكم وأجناسكم، فألقوا لامر الله آذانكم وأيقظوا من نوم الغفلة أجفانكم، وطهورا من دنس البدع إيمانكم، وأخلصوا لله إسراركم وإعلانكم، واعلموا أن الله بمحض فضله أوضح لكم طرق السنة لتسلكوها، وصرح بذم اللهو والشهوة لتتركوها،

---

(7) - ص/446.

(8) - سورة النساء : 59.

(9) - سورة الحج : 41.

وكلفكم لينظر عملكم، فاسمعوا في ذلك وأطيعوه، واعرفوا فضله عليكم ووعوه".

يبدي الخطيب مولاي سليمان تحسره الشديد على هؤلاء الضالين الذين استحوذ عليهم الشيطان، فانساقوا له، وانصرفوا عن أوضح السبل التي خطها الله لهم، وحادوا عن السنن التي سنها لهم، منغمسين في بحر الملذات والشهوات، ناسين ماعليهم من حق السمع والطاعة لله رب العالمين، ومعرفة ماتكرم به عليهم سبحانه من نعم لاتحصى.

ويتلون الأسلوب بلوني البيان والبديع، ويخضع لسلطان السجع الذي تفنن فيه الخطيب والتزم مالا يلزم في أنواعه، مع استعمال الطباق، نحو : "إسراركم وإعلانكم"، و"لتسلكوها، لتتركوها"، والإكثار من الجمل الإنشائية الطلبية التي تفيد الأمر، وتمثل الغاية المنشودة وهي النصح والإرشاد.

ويواصل نصحه لهم بقوله : "واتركوا عنكم بدع المواسم التي أنتم بها متلبسون، والبدع التي يزينها أهل الأهواء ويلبسون، وافترقوا أوزاعا، وانتزعوا الأديان والأموال انتزاعا، بما هو حرام كتابا وسنة وإجماعا، وتسموا فقرا، وأحدثوا في دين الله ما استوجبوا به سقرا "قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا" [10]. وكل ذلك بدعة شنيعة ، فعلة فظيعة و وحمة وضيعة، وسنة مخالفة لأحكام الشريعة، وتلبيس وضلال، وتدليس شيطاني وخبال، زينة الشيطان لأوليائه فوقتوا له أوقاتا، وأنفقوا في سبيل الطاغوت في ذلك دراهم وأقواتا، وتصدي له أهل البدع من عيساوة وجيلالة ، و غيرهم من ذوي البدع والضلالة، والحماقة والجهالة، وصاروا يرتقبون للهوهم الساعات، وتتزاحم على حبال الشيطان، وعصيه منهم الجماعات ؛ وكل ذلك حرام ممنوع، والإنفاق فيه إنفاق غير مشروع".

(10) - سورة الكهف : 103 - 104.

يرفع الخطيب صوته بالدعوة إلى ترك بدع المواسم، التي ينتهك بها أصحابها حرمات الدين، مخالفين بذلك مانص عليه الكتاب والسنة والإجماع من تحريم لهذه المظاهر المخزية، راكبين متن البدع التي زينها لأنفسهم الشيطان اللعين، منفقين في سبيلها أوقاتا طويلة، ومبذرين من أجلها أموالا طائلة، تضيع هباء منثورا.

ويحرم السطان مولاي سليمان هذه الأفعال الشنيعة، ويمنع إتيانها أو ممارستها بوسيلة أو بأخرى، مبينا لهم سوء العاقبة لكل عاص متعنت.

ويجمع في هذا الجزء بين الوعد والوعيد، مستندا إلى الكتاب والسنة والإجماع، متوخيا السهولة في التعبير لغاية الفهم والإفهام، معتمدا في ذلك على الجمل الخبرية، والأساليب البيانية، والمحسنات البديعية وبالأخص السجع الذي أمعن في استعماله، وأتى بثلاث أسجاع متوازنة من نوع واحد، مثل : "شنيعة، فظيعة، وضيعة"، ملتزما في بعضها مالا يلزم، مثل: "أوزاعا، انتزاعا" و"ضلال، خبال".

ويستمر في مخاطبتهم واعظا مرشدا بقوله : "فأنشدكم الله عباد الله هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لحمزة عمه سيد الشهداء موسما ؟ وهل فعل سيد هذه الأمة أبو بكر لسيد الارسال صلوات الله عليه وعلى جميع الآل والأصحاب موسما ؟ وهل فعل عمر لأبي بكر موسما ؟ وهل تصدى لذلك أحد من التابعين رضي الله عنهم أجمعين ؟.

ثم أنشدكم الله هل زخرفت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم المساجد أم زوقت أضرحة الصحابة والتابعين الأماجد ؟ وكأني بكم تقولون في نحو المواسم وزخرفة أضرحة الصالحين وغير ذلك من أنواع الابتداع، حسبنا الاقتداء والاتباع "إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون" [11]. وهذه المقالة قالها الجاحدون، "هيهات هيهات لما

(11) - سورة الزخرف : 23.

توعدون"[12]. وقد رد الله مقالهم، ووربخهم وما أقالهم، فالعاقل من اقتدى بآبائه المهتدين، وأهل الصلاح والدين، خير القرون قرني الحديث، وبالضرورة إنه لم يأت آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها، فقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقد الدين قد سجل، ووعد الله بإكماله قد عجل "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا"[13]، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "أيها الناس قد سنت لكم السنن وفرضت لكم الفرائض وتركتم على الجادة، فلا تميلوا بالناس يمينا ولا شمالا".

فليس في دين الله، ولا فيما شرع نبي الله أن يتقرب إلى الله بغناء ولا شطح، والذكر الذي أمر به وحث عليه ومدح الذاكرين به هو على الوجه الذي كان يفعله صلى الله عليه وسلم ولم يكن على طريق الجمع ورفع الأصوات على لسان واحد، فهذه سنة السلف، وطريقة صالحي الخلف. فمن قال بغير طريقهم فلا يستمع، ومن سلك غير سبيلهم فلا يتبع "ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا" [14]، "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين" [15].

يعمد الخطيب في هذا الجزء إلى مجادلة أصحاب هذه المواسم المنكرة، مستندا في ذلك إلى أدلة نقلية وعقلية، ومعتمدا على سيرة رسول العالمين عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وسيرة صحابته الأجلاء كأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، داعيا إياهم إلى العزوف عن هذه الظاهرة المخزنية التي لم يأت بها كتاب ولا سنة، ولم يتبع سبيلها الصحابة والتابعون.

(12) - سورة المومنون : 36.

(13) - سورة المائدة : 3.

(14) - سورة النساء : 115.

(15) - سورة يوسف : 108.

وقد وظف في جدله أسلوب الاستفهام الذي خرج في جميع الجمل الإنشائية الطلبية التي أتى بها إلى الغرض الأسمى وهو الوعظ والإرشاد، مع الحرص على استعمال المحسنات البديعية اللفظية والمعنوية.

ويتابع مخاطبتهم قائلا : "فمالكم ياعباد الله ولهذه البدع ؟ أأمنا من مكر الله أم تلبيسا على عباد الله أم منابذة لمن النواصي في يديه، أم غرورا بمن الرجوع بعد إليه ؟ فتوبوا واعتبروا، وغيروا المناكر واستغفروا، فقد أخذ الله بذنب المترفين من دونهم، وعاقب الجمهور لما أغضوا عن المنكر عيونهم، وساءت بالغفلة عن الله عقبى الجميع، مابين العاصي والمداهن المطيع، أفيزلكم الشيطان وكتاب الله بأيديكم ؟ أم كيف يضلكم وسنة نبيكم تناديكم ؟ فتوبوا إلى رب الأرباب، و"أنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن ياتيكم العذاب" (16). ومن أراد منكم التقرب بصدقة أو وفق لمعروف إطعام أو نفقة، فعلى من ذكر الله في كتابه، ووعد فيهم بجزيل ثوابه، كذوي الضرورة الغير الخفية، والمرضى لستم أولى منهم بالعافية، ففي مثل هذا تسد الذرائع، وفيه تمثل أوامر الشرائع "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم"(17).ولا يتقرب إلى ملك النواصي، بالبدع والمعاصي، بل بما يتقرب به الأولياء والصالحون، والأتقياء المفلحون، أكل الحلال، وقيام الليالي، ومجاهدة النفس في حفظ الأحوال، بالأقوال والأفعال ؛ البطن وماحوى، والرأس وماوعى، وآيات تتلى، وسلوك الطريقة المثلى، وحج وجهاد، ورعاية السنة في المواسم والأعياد، ونصيحة تهدي، وأمانة تؤدى، وخلق على خلق القرآن يحدى، وصلاة وصيام، واجتناب مواقع الآثام، وبيع النفس والمال عن الله "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه

(16) - سورة الزمر/54.

(17) - سورة التوبة /60.

حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم"[18]، «ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين وأتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وفي الرقاب وأقام الصلاة وأتى الزكاة" [19]، "وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون" [20]، الصراط المستقيم : كتاب الله وسنة رسوله، وليس الصراط كثرة الرايات، والاجتماع للبيات، وحضور النساء والأحداث وتغيير الأحكام الشرعية بالبدع والأحداث، والتصفيق والرقص، وغير ذلك من أوصاف الرذائل والنقص "أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء"[21].

عن المقدام بن معد يكرب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يجاء بالرجل يوم القيامة وبيده راية يحملها وأناس يتبعونه فيسأل عنهم ويسألون عنه"، " إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب"[22].

يجادل الخطيب في هذا الجزء من الخطبة أصحاب المواسم بالموعظة الحسنة، وبالحلم المعهود فيه، داعيا إياهم إلى أن يتوبوا إلى الله توبة نصوحا، ويأخذوا العبرة من الأقوام الذين عاقبهم لزلاتهم واقترافهم للفحشاء والمنكر، وأن يكثروا من فعل الخير، والإحسان إلى الناس، ويتمسكوا بمبادئ الحنيفية السمحاء، المقربة إلى مالك الملك سبحانه، المبعدة عن كل أنواع البدع والمعاصي، مدعما ذلك بالكتاب والسنة.

---

(18) - سورة : التوبة /11.
(19) - سورة : البقرة/177.
(20) - سورة : الأنعام /153.
(21) - سورة : فاطر /8.
(22) - سورة : البقرة /166.

ويستعين بالجمل الإنشائية الطلبية على أداء معاني الوعظ والإرشاد، مزاوجا بين أسلوبي الاستفهام والأمر، مثل : "أأمنا من مكر الله ... أم غرورا بمن الرجوع بعد إليه، فتوبوا واعتبروا، وغيروا المناكر واستغفروا"، و"أفيزلكم الشيطان ... أم كيف يضلكم ... فتوبوا إلى رب الأرباب، وأنيبوا إلى ربكم".

ويحسن توظيف الجمل الخبرية التي تفيد هي الأخرى غرض الوعظ والإرشاد، مكثرا من الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة، ومتأنقا بديعيا.

ويردف هذه المواعظ بقوله : "فيجب على من ولاه الله أمر المسلمين شيئا من السلطان والخلائف، أن يمنعوا هؤلاء الطوائف، من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يعينهم على باطلهم.

فإياكم ثم إياكم والبدع، فإنها تترك مراسم الدين خاوية، والسكوت عن المناكر يحيل رياض الشرائع ذابلة ذاوية، فمن المنقول عن الملل، والمشهور في الأواخر والأوائل، أن البدع والمناكر إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم، وأظلم مابينهم ومبين ربهم، وانقطعت عنهم الرحمات، ووقعت فيهم المثلات، وشحت السماء، وسحت النقماء، وغيض الماء، واستولت الأعداء، وانتشر الداء، وجفت الضروع، وانقطعت بركة الزروع، لأن سوء الأدب مع الله يفتح أبواب الشدائد، ويسد طريق الفوائد.

والأدب مع الله ثلاثة : حفظ الحرمة بالاستسلام والاتباع، ورعاية السنة من غير إخلال ولا ابتداع، ومراعاتهم في الضيق والاتساع، لا مايفعله اليوم هؤلاء الفقراء، فكل ذلك كذب على الله وافتراء، "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم" [23].

---

(23) - سورة آل عمران : 31.

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقام إليه رجل فقال : يارسول الله كأنها موعظة مودع فما تعهد إلينا أو قال : أوصنا، قال : "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة لمن وليكم وإن كان عبدا حبشيا فإنه من يعش بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجد، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة".

يحض الخطيب في هذا الجزء، أولى الأمر والمسؤولين عن شؤون المسلمين على منع هذه الطوائف من الاحتفال بهذه المواسم وتحريم حضورها على المسلمين أو المشاركة فيها.

ويحذرهم من البدع ومايترتب عليها من سخط الله وغضبه، حيث تنزل بأصحابها الويلات والمصائب، وتحل بهم الشدائد، وتتحول نعمهم إلى نقم، ويخسرون دنياهم وأخراهم، لأنهم يسيئون بأعمالهم المنكرة الأدب مع الله سبحانه.

ويعني بجانب الصياغة، مستعملا الأساليب البيانية، والمحسنات البديعية وبالأخص السجع الذي راعى في معظمه التوازن : "خاوية، ذاوية" و"الضروع، الزروع"، و"الاتباع، الاتساع، والتزم في بعضه ما لايلزم : "الخلائف، الطوائف"، و"السماء، النقماء"، و"الفقراء، افتراء". ويطابق في بعض الأحيان، مثل : "الأواخر والأوائل"، و"يفتح، يسد"، و"الضيق والاتساع"، ويجانس بين "شحت وسحت"، وبين بعض الأسجاع المذكورة.

ويختم السلطان مولاي سليمان خطبته بهذا التذكير : "وهانحن عباد الله أرشدناكم، وحذرناكم وأنذرناكم، فمن ذهب بعد لهذه المواسم، أو أحدث بدعة في شريعة نبيه أبي القاسم، فقد سعى في هلاك نفسه، وجر الوبال عليه وعلى أبناء جنسه، وتله الشيطان للجبين، وخسر الدنيا والآخرة وذلك

هو الخسران المبين "فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم" [24].

يذكرهم في هذه الخاتمة بما وجهه إليهم في الخطبة من وعظ وإرشاد، وتحذير وإنذار، صادعا بالوعيد، والعقاب الشديد لكل من خلاف الأمر وتحدى النهي، وحضر هذه المواسم المتعدية لحدود الشريعة الإسلامية.

وقد أتت الخاتمة موجزة ومركزة، واضحة الدلالة، ذات تأثير على العقل والوجدان، مستندة إلى كتاب الله وسنة رسوله، وملتزمة بأسلوب السجع.

وبالنظر إلى معطيات الخطبة الفكرية نجدها ترتكز على فكرة عامة وأساسية، هي محاربة مواسم الطوائف الضالة التي كانت تفضي إلى انتشار المفاسد والمنكرات في المجتمع.

فقد ثارت ثائرة السلطان المولى سليمان - طيب الله ثراه - لهذه المواسم التي كان يطغى عليها طابع الشعوذة، وتستبد بها الخزعبلات والترهات؛ فنبه أصحابها على المضار التي تنجم عنها، وتنعكس على المجتمع بالسلب، ثم حذرهم من مغبة الاحتفال بها، وأخيرا أنذرهم بأشد العقاب إذا ماأحدثوا بدعة في دين الله القيم.

والخطبة في معظمها وعظ وإرشاد، تجمع بين الوعد والوعيد، احتذى فيها الخطيب سنة رسول العالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان يدعو إلى سبيل ربه بالموعظة الحسنة، ويجادل بالتي هي أحسن.

وتمثل في جوهرها الاتجاه الإصلاحي الذي تميز به هذا العاهل العظيم؛ فهو يدعو - وبكل جرأة وصراحة - إلى إصلاح المجتمع من المفاسد التي تمس روح الإسلام دين الله القويم، وقيمه الرفيعة.

---

(24) - سورة النور : 63.

وتعد هذه الدعوة امتدادا لدعوة والده السلطان الصالح المصلح سيدي محمد بن عبد الله، فكلاهما تجند لتصحيح أوضاع الدولة المختلة، وكرس الجهود الجهيدة لإصلاح مافسد من أحوال الاجتماع، اعتمادا على الشريعة الإسلامية السمحة من الكتاب والسنة النبوية الشريفة، وحرصا على نشر مكارم الأخلاق، وبث فضائل ديننا الحنيف.

وتعكس الخطبة ملامح شخصية صاحبها ؛ فهو خطيب مصقع، متمكن من ناصية هذا الفن، له دراية بأصوله، ومعرفة بعناصره الفنية.

وق شهد العالم المؤرخ أبو القاسم الزياني للسلطان المولى سليمان بالإبداع في هذه الخطبة العصماء بقوله [25] : "لم يسمع مثلها فيما مضى من العصور، ولا ذكرها ملك ولا عالم مشهور، فهي سادسة خطب الخلفاء الأربع اللواتي انتفع الناس بها أجمع، مع خطبة الإبريز، التي أملاها عمر بن عبد العزيز، فمن سمع هذه الخطبة وتأملها علم علم يقين، وتحقق أنها برزت من قلب خالص عارف بما أعد الله في الآخرة للمتقين، وأن ذلك من المواهب الربانية، وفوق المواهب اللدنية".

وتتبدى من خلال الخطبة معالم شخصية منشئها العلمية ؛ الملمة بعلوم اللسان العربي، وخصوصا علوم البلاغة الثلاثة : البيان والمعاني والبديع، بجانب إحاطته بعلوم الدين التي كان يحسن توظيفها في مثل هذه المناسبات ؛ فكثيرة هي الآيات القرآنية التي استشهد بها، والأحاديث النبوية الشريفة التي استدل بها.

وتظل الخطبة بمعطياتها الفكرية الثرة، ومقوماتها الفنية نموذجا رفيعا للأدب الإصلاحي، ويظل منشئها السلطان الهمام المولى سليمان رائدا للحركة الإصلاحية السلفية في هذا العهد الزاهر من تاريخ الدولة العلوية الشريفة.

---

(25) - الترجمانة/471.

العلوم الشرعية
في عهد السلطان مولاي سليمان

امحرزي علوي أحمد
كلية الآداب/مراكش

قبل الحديث عن العلوم الشرعية في عهد المولى سليمان لابد من الإشارة إلى أمور هامة.

1 - لقد عاكس المولى سليمان سلفه سيدي محمد بن عبد الله الذي تبنى العقيدة الحنبلية وأعلن ذلك صراحة عندما كتب بأنه : "مالكي المذهب حنبلي الاعتقادات [1] وقد علل بعض المؤرخين بأن ذلك راجع بالأساس إلى بساطتها وتلافيها للتأويل والخوض في علم الكلام الذي لم يكن معروفا لدى السلف الصالح "فطريق الحنابلة في الاعتقاد يقول - سيدي محمد - سهلة المرام منزهة عن التخيلات والأوهام موافقة لاعتقاد الأئمة كما سبق مع السلف الصالح من الأنام".

وفي اعتقادي أن نظرة الإمام مالك إلى أمور العقيدة كانت أبسط من نظرة الحنابلة ولا أدل على ذلك من قول الإمام مالك في الاستواء : "الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنده بدعة ووقوفه في كثير من آيات الصفات وغيرها عند حدود النص وعدم تجاوزه. ثم ان الدعوة للحفاظ على السنة وعدم الخوض في الرأي كانت أشد بروزا في مذهب مالك من

(1) - وليس وهابي الاعتقاد كما ذكر بعض المؤرخين. انظر الفكر السابق 294/2.

غيره ولا أدل على ذلك من اعتزال مالك لحلقة ربيعة بن أبي عبد الرحمن لاغراقه في الرأي" ولما كان الأمر شبه متشابه بين المذاهب كان نظر المولى سليمان سديدا في الرجوع إلى عقيدة مالك، ثم إن الميولات الحنبلية لسيدي محمد بن عبد الله بقيت غريبة في محيط طغت عليه تعاليم المذهب المالكي وعقيدة الإمام الأشعري التي امتزجت واتحدت بالفقه المالكي.

2 - عمل المولى سليمان على إعادة تدريس مختصر الشيخ خليل بعد أن أمر سلفه سيدي محمد بن عبد الله بترك تدريس هذا المختصر، والزم الناس بالرسالة وأمثالها من كتب المتقدمين السهلة من أمهات الشريعة وعمل المولى سليمان هذا ينظر إليه من ناحيتين :

الأولى، أن المولى سليمان عمل على تهدئة رفض الفقهاء في زمن سيدي محمد لعدم تدريس المختصر إذ قالوا، نحن خليليون إن ضل ضللنا وإن اهتدى اهتدينا، فكان نظر المولى سليمان ابقاء العلماء على ماهم عليه من تدريس المختصر والعمل بمقتضاه وفي نظري أن الفقهاء عملوا ذلك لعدم معرفتهم بمذاهب غيرهم، فقد نقل الثعالبي [1] أن مسانيد الأئمة الثلاثة - الشافعي وأحمد وأبو حنيفة - لم تكن معروفة قبله في المغرب وأنه هو أول من أدخلها، فكان الأولى عندهم الاقتصار على مافي المذهب المالكي عن طريق المختصر، وهو رأي سديد إذا كان المقصود منه مراعاة أحوال الناس والنظر إلى الواقع العام آنذاك الذي كما قال الثعالبي كاد الدين فيه أن يذهب من أهله باستيلاء الجهل على بطونه وقبائله "فكان من الصعب إقتداء الناس بغير مذهب مالك أو حملهم على غيره، من هنا كان نظر المولى سليمان سديدا في إعادة تدريس المختصر. ولم يكن الأمر كما قال الثعالبي "هذا نظير ماعملت الدولة المرينية في ترك الاجتهاد والزام الناس بمذهب مالك" [2] بل فيه مراعاة لمقاصد المكلفين واخذ بسد الذرائع الذي هو أصل

(1) - الفكر السامي 293/2.

(2) - 403/2.

من أصول الفقه حتى لاتضطرب عقول الناس وأحوالهم بإفتائهم بغير المذهب" وليس ذلك غلقا لباب الاجتهاد، بل فيه حل للعلماء تدرجا على مؤلفات غيرهم في أنواع العلوم الشرعية وهو ماحدث فعلا حين دافع على مذهب الوهابيين وعقيدتهم ونزعتهم الإصلاحية، إضافة إلى ماانتشر من كتب فقه غير مالك في زمانه.

3 - عند الحديث عن العلوم الشرعية في عهد المولى سليمان ينبغي استحضار الحركة الوهابية التي ظهرت في المشرق وماكان لها من دور خصوصا في هذه الفترة إذ لم تكن قبل عام 1803 م. قد عرفت في المغرب، هذه الحركة التي ايقظت ذاكرة العلماء المغاربة للنظر في كثير من القضايا التي تمس العقيدة وغيرها مما جعل المغاربة للنظر في كثير من القضايا التي تمس العقيدة وغيرها مما جعل المغاربة يقفون منها موقفا معاديا لما أشيع عنها من استباحة الحرمين ومنع زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبور الأولياء ومنع التوسل بهم والنهي عن قراءة دلائل الخيرات ولما اتهم به الوهابي من ادعاء النبوة وأنه من الخوارج لميله إلى تكفير مرتكب الكبيرة وانه على مذهب ابن حزم الظاهري لاخذه بالظاهر وتجنب التأويل، وبالجملة كانوا يرون في المذهب الوهابي دعوة لديانة جديدة. وكان هذا طبيعيا لأن ماوصل عن الحركة الوهابية لم يكن صادقا، ولأنه صادف كما سبق رغبة المغاربة في الحفاظ على مذهبهم واعتقادهم، وردهم لكل ماهو دخيل، أو لكل مامن شأنه أن يغير ما حفظوه وتلقوه، ولكن ماهو لافت للنظر وماذكرت من قبل من رغبة المولى سليمان في توسيع مدارك العلماء وحملهم بالتدرج على ماعند غيرهم، هو إشادته بدعوة الوهابين ويظهر ذلك في الرسالة التي وجهها المولى سليمان إلى سعود بن عبد العزيز إشادة بالحركة قائلا : لقد سرنا مابلغنا عنكم من سيرتكم وشيمكم وأحوالكم في الزهد في الدنيا وإحياء رسوم الدين والحض على طريق السلف الصالح وسن المهتدين

والحمل على إخلاص التوحيد لرب العالمين وقطع البدع والضلالات التي هي منشأ زيغ العقائد وكثرة الجهالات ومابرحنا نسمع عنكم ماقد أصبتم فيه كل الإصابة ووافقتم فيه كتب العلماء ومذاهب السلف والصحابة".

غير أن استعمال المولى سليمان لمقاصد الشريعة الإسلامية في نطاقها الواسع وتطبيقه لقاعدة سد الذرائع بشكل أوسع والعمل بالعرف جعله يقف من بعض القضايا موقفا مخالفا لماهم عليه ومن الأمثلة لذلك :

أ - مسألة التكفير : خالف المولى سليمان الوهابية في تكفيرهم كل من توجه بالدعاء إلى نبي أو ولي أو غيره واعتبار ذلك عندهم شركا بالله يبيح دم صاحبه، لكن رأي المولى سليمان أن نطقهم بالشهادة وعملهم بأركان الإسلام لايوجب تكفيرهم لأنهم من أهل القبلة، ولأن التكفير أمر عظيم وهو الحكم على الشخص بأنه مخلد في النار غير مغفور له وهذا لايحكم به إلا على كافر لاشبهة فيه" وعملا بالمقاصد كما ذكرت دعا المولى سليمان سعود بن عبد العزيز إلى عدم تكفير العوام والاكتفاء منهم بالشهادة لأن الغلط بترك ألف كافر أهون من الغلط بسفك محجة دم امرئ مسلم، وهو أمر وجيه لاشك فيه وهو ما كان عليه سلف هذه الأمة فقد جاء عن أبي الحسن الأشعري أنه قبيل وفاته لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد وإنما هذا اختلاف العبادات. وقال ابن حجر : وهذا هو المذهب العدل وإليه ذهب عامة أهل الحديث وهو قول الشافعي أيضا.

وعلى هذا الأساس كان المولى سليمان يرى أن سلوك طريق التسامح وقبول اختلاف الآراء وتقدير العلماء في اجتهادهم ومحاولة اقناع الخصم بالحجة والبرهان أولى من تكفيره وهدم إسلامه بالمرة، وهو ماكان عليه سلف هذه الأمة، فقد جاء عن ابن القيم رحمه الله أنه قال : وقد تقرر أن من قواعد الشرع وحكمة الإسلام أن من عظمت حسناته، وكثرت فضائله وخيراته، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر فإنه يحتمل منه مالا يحتمل من

غيره ويعفى له مالا يعفي لغيره فإن المعصية خبث والماء إذا بلغ قلتي لم يحمل الخبث.

ب - خالف المولى سليمان الوهابية في نقطة جوهرية في علم الأصول وهي هل النهي في القرآن والسنة يحمل على التحريم أو الكراهة، فعلى الأول حمله الوهابيون فخربوا البناء على القبور وزيارتها والدعاء عندها لأن ذلك في نظرهم يفضي إلى عبادة غير الله، وعلى الثاني حمله المولى سليمان واعتبر أن ذلك من المسائل المكروهة التي لا تفقد صاحبها الاتصاف بالإسلام أو وجوب عقوبة في حقه.

ومع هذا فقد كان المولى سليمان حريصا على العمل بسنة النبي صلى الله عليه وسلم ونبذ مايتنافى مع الإسلامي عقيدة وسلوكا ففي مجال العقيدة شدد النهي عن زيارة القبور والدعاء عندها إلى درجة تقترب من التحريم، وكان يفضل أن تمنع العامة من الإقدام على أمر مكروه مخافة الوقوع في الحرام معتمدا في ذلك كما سلف علي قاعدة "سد الذرائع" في وجه ضعاف العقول فقال في رسالته إلى سعود بن عبد العزيز: ان زيارة العوام لقبور الصالحين لايخلو من سوء مقالات وظهور جهالات فمنعهم حتى يعلموا مايقولون سدادة وافتى بتحريم الذبح على أضرحة الأولياء لأن ذلك غالبا مايودي إلى اعتقاد التأثير من الولي فقال في خطبة له : "ان من خالط العامة وعرف أحوالهم وأقوالهم لايشك في تحريم النذر عليهم لأنه يؤديهم إلى اعتقاد التأثير وهو كفر".

وفي مجال السلوك عمل المولى سليمان على منع العوائد الشعبية المنافية للسنة ففي سنة 1804 م منع القبائل المجاورة للرباط من إقامة موسم بضريح سيدي يحيى بن منصور وفي السنة التالية أمر بهدم القبة التي بنيت على ضريح والده وفي سنة 1806 أصدر رسالة هامة في تحريم السماع هاجم فيها بعض الطرق الصوفية وماتلجأ إليه من إستعمال الطرب والرقص

لأغراض العبادة وأخيرا قدم في سنة 1809 على إزاحة النقير الذي كان موجودا على قبر والده مؤكدا أن ذلك ليس بسنة وإنما هو بدعة (*).

كل هذا جعل المولى سليمان رحمة الله عليه في مصاف العلماء حتى قال فيه الحجوي الثعاليبي وهو يترجم لعلماء المالكية قال : الأمير مولانا سليمان بن محمد بن عبد الله العلوي يتيمة عقد الدولة علما وديانة وورعا موصوف بذلك لدى المؤرخين وتدل لذلك اثاره العلمية فله حاشية على الخرشي وعندي تأليف له في التجمير بعود الطيب في رمضان، ومن خطبه خطبة في ردع رعيته من بدع المواسم التي تجعل للصالحين (مكانة) وكان شديد الإنكار لمثل هذه البدع واقفا مع السنة شديد التحري [1].

ومن أبرز علماء هذه الفترة :

1 - ابن كيران محمد الطيب بن عبد المجيد بن عبد السلام الفاسي[2]، وكان يمثل السلطة العلمية بلا منازع منذ وفاة التاودي بن سودة في سنة 1795 وحتى تاريخ وفاته هو سنة 1812 م وكان يحظى باحترام لدى السلطان مولاي سليمان ويستشيره في القضايا الدينية و له من المؤلفات : "تقييد على آية ولكن ليطمئن قلبي" وله تقييد على آية : وإني فضلتكم على العالمين" وألف بأمر السلطان رسالة في مسألة حذف لفظ قال من السند" وله "شرح اثني عشر حديثا من الأربعين النووية" وشرح ألفية السيرة للعراقي، "الدرر السنية في نظم السيرة النبوية".

2 - حمدون بن عبد الرحمن السلمي أبو الفيض بن الحاج (1232 هـ - 1816م) [3]، وكان محدثا حافظا يستحضر حديث الصحيحين لايعزب عنه

(*) - يراجع الضعيف 441 - 454.

(1) - الفكر السامي 298/2.

(2) - انظر الأعلام للزركلي47/6 شجرة النور 376 - سلوة الأنفاس 2/2.

(3) - سلوة الأنفاس 4/3 الأعلام للمراكشي10/7- الدرر البهية 227/2.

من صحيح البخاري لاحرف ولا كلمة ولا مايتعلق به من اللغة وتعليقه للبخاري ضمنه ذكر كل ماااتفق معه في إخراج حديثه ومناسبة كل ترجمة لما قبلها ومابعدها ومصداق كل حديث من كتاب الله وكان في تفسيره مجتهدا لا يتقيد بمذهب ولا تفسير.

وله من الكتب، رسالة في مسألة حذف لفظ قال من السند ألفها هو أيضا بأمر من السلطان المولى سليمان وله، نفحة المسك الداري لقارئ صحيح البخاري نظم فيه مقدمة ابن حجر وشرحها. وله (حاشية على تفسير أبي السعود - والبيضاوي) لم يتقيد فيها بأي مذهب، وله (عقود الفاتحة) شرحه في خمسة أسفار غير أنه لم يكمله وأكمله ولده محمد أبو عبد الله.

وله (أسرار القرب والاختصاص في كشف استار مخدرات الاخلاص) وله تقييد على آية (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون).

3 - ابن عجيبة أحمد بن محمد بن المهدي التطواني : توفي بالطاعون عام 1224 هـ 1809 م [1] ومن مؤلفاته (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد) وهو بعيد عن التعقيد مع بعض عبارات أهل التصوف على طريق الإشارة يقع في أربعة مجلدات توجد نسخة منه بالخزانة العامة 1967 د. وله (الدرر المتناثرة في توجيه القراءات المتواترة. وله تأليف في قوله تعالى : الله نور السموات والأرض) يوجد بالخزانة العامة تحت رقم 1736 د. وله (شرح الفاتحة وبعض فضائلها) يوجد بالخزانة العامة 1071 د.

وله (حاشية على الجامع الصغير للسيوطي) توجد بالخزانة العامة رقم 1831 د.

4 - محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي (ت 1239 - 1823 م)[2] له (الدرر النفيس في تفسير القرآن بالتنكيس) يوجد بالخزانة العامة رقم

(1) - فهرس الفهارس 228/2 شجرة النور 400.

(2) - فهرس الفهارس 219/2 - الإعلام للمراكشي189/5.

2210 د. وفي هوامشه طرر لحمدون بن الحاج يخالفه. وله رسالة في (ترك الظلم) وسمي بخاتمة حفاظ المغرب.

5 - ادريس بن عبد الله الودغيري البدراوي (ت 1257 هـ - 1814 م)[1]
له كتاب : "التوضيح والبيان في مقر أنافع المدني ابن عبد الرحمن وذكرى الشيوخ الماهرين في القرآن "الفه باسم السلطان مولاي سليمان، وقد شرحه العلامة محمد بن عبد المجيد أقصبي في تحفة المنان مع التوضيح والبيان). وله (أزهار الحدائق في علم مخارج الحروف والصفات والحقائق)، وله (درر المنافع في اسم القراء الستة السماذع غير نافع) يوجد بالخزانة العامة رقم 1148 د. وله : (تقييد في رحم الغنة) وله شرح عليها. وله (عمدة البيان في علوم القرآن).

6 - محمد بن عبد السلام بن محمد الفاسي [2]

له كتاب (إتحاف الأخ الأود المتداني بمحاذي حرز الأماني ووجه التهاني).

وله تأليف (تسهيل المعارج إلى تحقيق المخارج) يوجد بالخزانة العامة رقم 938 د.

وله (أجوبة في علم القراءات والرسم) وهو أجمع كتاب ألف في هذا الفن.

وله كتاب في (تراجم القراء) وله (سؤال في أسماء السور وهل هي توقيفية) يوجد بالخزانة العامة 2438 د.

7 - ابن سودة أبو حامد العربي بن أحمد بن الشيخ التاودي. (ت 1229 هـ - 1813) [2] له شرح على الموطأ لم يكمله.

---

(1) - شجرة النور الزكية 397 سلوة الأنفاس143/2.

(2) - الإعلام للزركلي 77/7- سلوة الأنفاس 318/2

8 - ابن قدور المغربي محمد فتحا بن محمد المراكشي [1] توفي قبل 1270 هـ) له : (رسالة في مناسبة ابتداء البخاري بقوله : كيف كان بدء الوحي) وله تأليف في مصطلح الحديث سماه (القول المستصلح في علم المصطلح).

9 - صالح بن محمد العمري. دخل مراكش وتوفي عام 1218 هـ بالمدينة المنورة قرأ الموطأ برواية يحيى بن الليثي قراءة بحث وتدقيق مع استحضار الاستذكار والمنتقى والقبس والزرقاني. وله إلمام كامل بعلم المغاربة في الحديث كحاشية ابن غازي على البخاري ورزق على البخاري والمشارق لقاضي عياض وإكمال المعلم له أيضا والعارضة لابن العربي وغيرها.

10 - هاشم بن محمد بن عبد الله بن طاهر المدغري، كان يقرأ تفسير ابن عطية يحضر عليه علماء سجلماسة (ت 1265 هـ).

11 - أحمد الزعري خطيب القرويين كان له في القرويين حلقة في التفسير ت 1222 هـ).

12 - ابن حماد محمد بن التهامي بن عبد الواحد الحمادي قاضي مراكش كان شيخ مجلس قراءة الصحيح بين يدي السلطان (ت 1249 هـ).

13 - المعطي الزداغي كان يحضر قراءة صحيح البخاري مع مولاي سليمان عام 1232 هـ.

14 - محمد بن أبي القاسم الزيزي كان يسكن بأبي الجعد فأمره السلطان بسكن رباط الفتح بقصد قراءة البخاري به وتدريس العلوم إلى أن أذن له بالعودة إلى أبي الجعد (ت 1214 هـ - 1799 م).

(1) - سلوة الأنفاس 123/1 شجرة النور 377. الإعلام للمراكشي294/5.

معالم الصورة الفنية في الشعر المغربي خلال عهد المولى سليمان

محمد القدوسي ×

شرعية الاختيار

في سياق رد الدعوى التي ظل العديد من الدارسين والمعرجين على الابداع الشعري الذي خلفه المنتسبون إلى هذه الرقعة الغربية من العالم العربي، بشأن النهج "الاتباعي" الذي ظل يسلكه هذا الانتاج، وخلوه - حسب دعواهم - من معالم الأصالة، وصدق التعبير عن الخوالج الشاعرة لدى قائليه، يليق بالمرء أن يعرج على هذا الإنتاج يستقرئه ويقلبه بين يدي مرآة التقويم الهادف إلى استجلاء الخصائص المميزة،والخلفيات الفاعلة فيه.

وتلك شرعة كفيلة بدحض تلك الدعوى، ونسبة مايساير هذا الانتاج من الاحكام إليه عبر عصوره عامة، وخلال المدة التي هي مقصد هذه المقارنة بصفة خاصة:

ذلك أن المتتبع لشعر هذه المدة تتكاثر بين يديه النماذج الإبداعية لعديد من الشعراء انطلقوا فيها من ذواتهم، وتبدت من ثناياها ينابيع طبعهم المتدفق، وأطلت من خلال أبياتها دلائل الإشراق في الرؤية الشعرية.

كما يبدو ميسورا بين يدي المتلقي لأشعار تلك الحقبة أن يلامس حرارة العاطفة، وصدق التعبير عنها.

(*) مندوب وزارة الشؤون الثقافية بالرشيدية.

ويحيا لحظات الارتقاء بذائقته الفنية إلى المستوى الذي يتبوأه الشعراء ساعة التصوير الفني، والتسامي عن مستوى التقدير والمباشرة إلى حيث مواصفات التلميح والرمز والاستعارة والتعبير المجازي مع ما يتصل به من قدرة فائقة على التشخيص والأنسنة، وملامسة المعاني في عالمها الماورائي، واجتلابها في أزياء فنية شاعرية إلى حيث ترتقي بحس المتلقي وتحيله إلى عالمها.

وتلك مقومات العديد من الصور الشعرية المتناثرة عبر أعطاف القصائد المبدعة من قبل الشعراء المغاربة خلال هذه الحقبة.

فحقيقة الأشعار المقولة في هذه الحقبة تنبني على العديد من المقومات الفنية، ومعالم الارتقاء بالعبارة الشعرية عن طريق كثير من الوسائل الجمالية التي - وإن كان من تقدم من شعراء العربية في الشرق كما في الغرب، قد أتوا عليها ولامسوها وتحلت بها أشعارهم - لا يعسر على المرء تقصي خلفياتها، وبواعثها وعوامل بلورتها لدى الشعراء المغاربة، خصوصا لدي من تميز منهم في الساحة وبرز كالوزير ابن ادريس العمراوي، وعبد القادر ابن شقرون، وأبي العباس أحمد بن عثمان المكناسي، ومحمد بن الشيخ سيدي الشنقيطي، ومحمد الحراق وحمدون بن الحاج ... ممن آثروا - إبان صياغة أحاسيسهم وأفكارهم أن يركبوا متن المجاز والكناية، والرمز والإشارة، والتصوير بدل التقرير، والمباشرة وشحن الكلمات بشحنات تبث في كيانها الروح والحياة، وتفسح المجال بين يدي المتلقي كي يعاني من تصفح قول الشاعر واستكناهه والغوص في مدلولاته.

تأتى ذلك للعديد من الشعراء المغاربة حين كشفوا عباراتهم وركزوا القول فيها. وحين ركنوا - لدى عملية التصوير التي استعذبوها - إلى وسائل لتحسيس المعنوي ولتجسيده، وأنسنة الجماد وتشخيصه، وأشركوا الطبيعة بكل مايكونها وبميزها في وجداناتهم ومشاعرهم عبر عمليات

الاسقاط والتحلية. حصل لهم ذلك ساعة التملي بالطبيعة كما في المدح والرثاء، ووقت التأمل في أحداث الحياة. كما في وقت المعاناة من هجر الحبيب وبث الشكوى وإبان اعتزاز الشاعر بذاته وأمجاده ومفاخر قومه.

1 - تبدو "البشائر" وقد قدمت من عالمها اللامرئي إلى حيث الحركة وملامسة الفعل الإنساني من قول وتعبير. عبر صورة (للإقبال) فيها منبر، (والسعد) من مستقبلي الأمير ومؤيديه. ذلك إذ يقول الشاعر عبد القادر بن شقرون من قصيدة توجه بها إلى المولى سليمان، لدى أوبة هذا الأخير إلى مكناس الزيتون قادما من جهة آنفا (الدار البيضاء) اثر قضائه على ثورة ابن عمه، وصهره المولى عبد الملك بن ادريس بتلك الجهة :

هذي البشائر وافت وهي قائلة

أعوذ بالله من شر الذي حسدك

فاصعد على منبر الإقبال معتليا

فالسعد أنجز ما كان به وعدك

وانهض إلى غاية الآمال تدركها

فالآن قد قالت لك العلياء : هات يدك

2 - وهذا أبو اسحاق ابراهيم بن عبد القادر الرياحي يتكيء على ماحفلت به رؤيته صوب المولى سليمان من إعجاب برمزية هذا السلطان وإشعاعه فيقول :

هذا سليمان الرضى بن محمد   من أشرقت لجبينه الأنوار
هذا الذي رد الخلافة غضة   وسما به للمسلمين منار
أعز دين الله فهو بشكره   في أيكها تترنم الأطيار

3 - وهذا الشاعر نفسه هوالقائل عن آل البيت :

من قوموا أود المكارم بعدما	شادوا الهدى بمعارف ونصال
لولاهم كان الورى في ظلمة	مدت غياهبها بكل ضلال

وهي صورة ركز الشاعر فيها القول واكتفى فيها بالقليل من اللفظ لصياغة سيل من المعاني، ناحيا منحى التشخيص :

وأمكنه أن يجسد العراك بين هذه الظلمة الكونية المتوهمة في هولها واستفحالها وبين النور النبوي الزاحف المسكوت عنه لفظا، والمعبر عنه ضمنا واعتبارا.

هذا العلامة الطيب بن صالح الغماري الرزيني يكشف العبارة ويركز القول، ويخلي السبيل في تصوره للعديد من المزايا والشمائل التي كان عليها السلطان مولاي سليمان لتنضاف إلى بعضها لتلتحم كليا وتتجه صوب لوحة التشكيل التي ارتضاها الشاعر لممدوحه، لوحة تكثر فيها حركة مولاي سليمان وتشع منها أنواره، وتستأثر بالاهتمام منها هيئته وتفرده وبإزائه ملوك الأرض من جهة، ورعيته من جهة ثانية وهي تحتمي بحماه، وتجد في أكنافه الدفء وما تتوق إليه النفوس من أمن واستقرار. ذلك إذ يقول : عن السلطان المولى سليمان :

هو في ملوك الأرض غير مدافع	فيهم بمنزل مقلة من محجر
علما وحلما في مقام تحكم	وشمائل تزكو بطيب العنصر
ما إن يرى إلا بصهوة سابح	يمشي العرضنة أو بصهوة منبر
لم يخل من ضرب الجيوش ببعضها	إلا لدفة مصحف أو دفتر
وإذا استراح الناس في دعة لهم	لم يخل منهم في الجهاد الأكبر
وتراه يستقصي وكان وظيف من	ندريه بين مقصر أو مقصر
مازال يعتد العتاد مشمرا	من حزمه للحادث المتنمر

تلقـــاء يوم الروع فـــوق مطهم يـخـــتــــال بين أسنة وسنـور

متقلدا سيف الحماسة سافرا لكنه من بأســه في مـــغـــفـــر

والخط قد طافت به خرصانها من كل أســمــر ذابل مــتــأطر

والخـيل تمرح في الأعنة شـزبا يعـثـرن في قـصـد القنا المتكسر

حتى إذا اعتجز العوالي والظبى والشـمس جللها دخان العـثـير

وأسنة المران في أرجـــائه كـالشـهب تلمع في خـلال كنهـور

وبدا أمـــيـــر المومنين بمقنب زجل كليث في الهـيـاج غـضنفـر

عــاذت رعــيــتــه به وتأنقت من عــدله في ظل عـيش أخـضـر

ماكـاد سرحان الفلا من عدله يعــدو بظبي بالصـريمة أعــفــر

ألقوا بأقليد الأمور وأصبحوا يردون مـــاء الأمن غـيــر مكدر

يهدون من نشر الثناء له شذى وكـأنما فــتــقــوا لطائم عنبـر

أن الهيئة التي أبدى بها الشاعر السلطان المولى سليمان توحي بعميق ارتباطه به، عربون ذلك، التحقيق في جزئيات الصورة. خصوصا مايتصل بالحركة الجهادية والتحريرية التي ظل يقودها السلطان والمستغرقة منه أطول وقت، حتى يقول الشاعر:

ما إن يرى إلا بصهوة سابح

لم يخل من ضرب الجيوش ببعضها

كما توحي بذلك جزئية الصورة حيث صور الشاعر حالة الأمن والرفاه التي كانت عليها الرعية ساعة السلم والتي كان الممدوح محورها، والمعول عليه فيها وقد تصيد الشاعر لإبراز هذه الحقيقة الموضوعية مايكشف عنها، فاختار لذلك صورة الذئب وهو يخشى الإقتراب من الظبي الوديع أو إذايته، وأوغل في الصورة حتى جعلهما - على ماهو معهود عنهما من تنافر - يردان المورد ذاته.

... تهوى المشارق أن تكون مغاربا لتنال من جدواه كل منال
... أوليس في كل البقاع ثناؤه ورد البكور وسبحة الآصال
أولم يشد للدين والعلماء والأشـ ـراف والصلحاء أي جلال

أولم يعم بجوده أقطارها لا فرق بين جنوبها وشمال
أولم يسر ركبانها بمحاسن ضاءت لها سرج بجنح ليال
أوليس أحيا سنة العمرين في زمن إلى بدع الهوى ميال
شيم يهز الراسيات سماها ويهجن في أنف الزمان غوال

جملة من المميزات لشمائل المولى سليمان، وما اختص به عهده في الميدانين الداخلي والخارجي أتى على ذكرها هذا الشاعر التونسي وكان من أهم ما استأثر بتسجيله منها ماحمله العهد السليماني من الوقوف في وجه البدع وأهلها والالتفات إلى السلفية الصافية كما كانت زمان الخلفاء الراشدين والتابعين. ذلك معنى ردده الشاعر عبر أكثر من موطن، معنى كانت نفوس الأهالي، ورجال العلم والدين متلهفين عليه في أتون المد الاستعماري في الأطراف - وذلك مازاد في ترسيخه في النفوس، فانبرى حملة الأقلام للتركيز عليه وربط الصلات مع كل من يبدي - من القادة - نية في مقاومة الغزو الصليبي، وكان المولى سليمان يعيش على هذا الهاجس ويحمل في كيانه هذه الروح، فلا غرو إذن أن نرى الشعراء الذين مجدوا فعله، وصوروا مآثره يعرجون على هذا المعنى بالذات ويخصونه بقسط غير يسير من تصويرهم.

وتلك خلفية اشارة الرياحي إلي الأثر العالمي الذي كان لفعله إزاء الدين والأهالي عبر صورة شعرية تتداخل فيها خيوط المجازي مع الحقيقي ذلك إذ يقول :

شيم يهز الراسيات سماعها ويهجن في أنف الزمان غوال

* هذه نبذة من قصيد طويل بعث به جماعة من المدرسين وطلبة العلم بفاس - مضافا إلى رسم يحمل توقيعاتهم - يشتكون من جور وجهل قاضيهم الفقيه أبي الفضل عباس بن أحمد التاوري وقد عملوا على شرح حال هذا القاضي للسلطان وتحريضه على عزله، وضمن الشاهد التالي صورة السلطان في إقامته صرح الدين، وإحياء سنة السلف الصالح. وإحاطة حمى المقدسات العقيدية بسياج من الحرص واليقظة وشتى وسائل الحفاظ والرعاية وصورة القاضي السادر في أنانيته، وإهماله لحقوق المتقاضين والمتظلمين.

ياأيها الملك الذي عدالته	أحيت مآثرها الصديق أو عمرا
ياأيها الملك الذي مناقبه	في غرة الدهر قد لاحت لنا قمرا
أنت الذي وضع الأشياء موضعها	وفي العلوم الذي أحيا الذي اندثرا
أنت الذي صير الدين القويم كما	أوصى به من سما الأملاك والبشرا
ولم يزل بك في عز وفي حرم	يجني ذووا العلم من رياضه ثمرا
... ومن يرم هدمه تأخذه صاعقة	من راحتيك فلا تبقي له أثرا
وقد شكى الدين من هضم ومن كمد	أصابه فهو يبكي الدمع منهمرا
سطت عليه يد القاضي الذي غمرت	أقضية الجور منه البدو والحضرا
أعفى مراسمه جورا وأبدله	جهلا بما يذهب الألباب والفكرا
جاء الولاية وهو من شبيبته	يرى القضا حرفة يجني بها وطرا
فلم يكن همه فيه سوى قنص	أو نخوة تترك الضعيف منكسرا
أما حقوق الورى فإنها عدم	مجهولة جعلت منبوذة بعرا

فانطلاقا من العديد من القصائد التي قيلت في المولى سليمان يمكن استخلاص جملة من خصائص العهد ومميزاته رسخت في تصورات ورؤى الشعراء لذلك العهد، وظلوا يمتحون منها ساعة الإبداع الشعري، وتمدهم بسيل من الصور المعبرة التي تلتقي في التمحور حول المعاني ذاتها.

ذلك أننا نلقى في النص المشار إليه آنفا مايعيدنا إلى قصيدة الرياحي السالفة. وقصيدة الطيب بن صالح الغماري بشأن إحياء السلطان لمعالم الدين، ونشر ألوية العدالة والأمن على الرعية.

يشير النص إلى ذلك في مخاطبة السلطان :

أنت الذي صير الدين القويم كما أوصى به من سما الأملاك والبشرا
ولم يزل بك في عز وفي حرم يجني ذووا العلم من رياضه ثمرا

وحيث تمت الإشارة إلى تشدد السلطان إزاء من لايغارون على هذا الدين أو يتصرفون فيه حسب هواهم :

ومن يرم هدمه تاخذه صاعقة من راحتيك فلا تبقي له أثرا

كما أسهب النص في تبسيط لوحة القاضي اللامبالي بحقوق المتقاضين، المستأثر بمصلحته الذاتية عبر صور بيانية متماسكة تشي بمدى ماكان يحمله أصحاب الشكوى إزاءه من ضغينة وعداء حدا بهم إلى فضحه بين يدي السطان.

من صور الرثاء

صور الشاعر ابن ادريس العمراوي مبلغ أساه ومدى لوعته لفقد السلطان المولى سليمان، ضمن صورة أوغلت جزئياتها في دروب التهويل، وبدت الفجيعة - من ثم - في أعلى مستويات سورتها وهيجانها : فقال :

نبأ عرا أو هى عرى الإيمان وأبان حسن الصبر عن إمكان
شقت لموقعه القلوب وزلزلت أرض النفوس ورج كل مكان
فقد الإمام أبي الربيع المرتضى جزعت لعظم مصابه الثقلان
وبكت عيون الدين ماء جفونها وجدا عليه وكل ذي إيمان
لما نعى الناعون خير خليفة وعرا الفؤاد طوارق الأحزان
مزقت ثوب تجلدي من فقده ونثرت در الدمع من أجفاني

كما صور جرأة الموت وفعله الباعث على العجب إزاء ماكان للفقيد من خصائص المكانة والرفعة. والفتك والسطوة ومنعة الجانب.

عجبا لموت غاله إذ لم يخف — فتك الملوك وسطوة السلطان
وسما لمنصبه المنيف ولم يهب — غضب الجنود وغيرة الأعوان
لو كان ينفع خاض فرسان الوغى — حرصا عليه مواقد النيران
وحموه بالنفس النفيسة إنما — يحمون روح العدل والإحسان
لكن قضاء الله عم فلا يرى — للمرء في دفع القضاء يدان
والموت مورد كل حين كأسه — وسوى المهيمن في الحقيقة فان

ولئن بداجليا تأسي الشاعر بالنهج الذي دأب الشراء العرب على سلكه فيما يتصل بالمضامين وأغراض القصيدة الرثائية، تمشيا مع مبادئ النقد الكلاسية في هذا الباب، فإن للشاعر المغربي - في هذا المجال - مايميزه ويبقي على الخصوصية الذاتية لإبداعه.

من صور الفخر والاعتزاز

هذا محمد بن الشيخ سيدي الشنقيطي - في سياق اعتزازه بمجده وأمجاد قومه على الشاكلة التي أثرت عن العرب الأولين - يصور مقاصده عبر لوحة تطبعها الحركة والتماوج، واستحالة الأحوال. ملتقطا لذلك من المشاهد الجزئية ماله صلة بالحياة والنخوة العربيتين ذلك إذ يقول :

إنا إذا بلد نبا يوما بنا — حملت لآخر نجبنا أثقالنا
ديداننا أن لا ننيط حبالنا — إلا بأحبل من يحب وصالنا

نطوي على الشعث المواصل ماطوى صدرا على أن لايشد حبالنا
سترا عليه وفي هواه ووصله — نعصي ولو آباءنا عذا لنا
وإذا رماه الدهر كنا دونه — ترسا ونمنح من رماه نصالنا
... وإذا دعا كن الجواب وإن سعى — كنا حواليه وكان خلا لنا

في سياق هذا الإعتزاز ورسم معالم الذات وهي ترفل في حلل المجد والفخار، يبقى الشاعر الشنقيطي متصلا بواقعه المعيش، ناهلا من مورد حياته اليومية، مرتدا باستمرار إلى معينها الذي لاينضب، وعالمها الذي يحيا في كيانه ويحظى ببليغ اهتمامه. فاتكأت - من ثم - صورته على حياة تتميز بالحركة الدائبة والترحل من موطن إلى موطن حيث تجدد النفس استقرارها، غير مقيدة في تلك الحركة بقيود مكانية ترتهنها وتتميز بهذه الأنفة، والحمية التي ظلت تلازم الإنسان العربي عموما منذ ماقبل العهد الإسلامي.

الغزل :

هذا الأديب أبو العباس أحمد بن الرضي بن عثمان المكناسي يوغل في تشكيل اللوحة التي ارتضاها لإجلاء هواه والكشف عن حقيقة معاناته إزاء من يهوى. لوحة يسمها بما يبديها متفردة في خصائصها.

لبست الحب فوق العظم جلدا ... وقيس حازه ثوبا معارا
فإن تعجب ففي أمري عجيب ... يرى أهل الهوى فيه اعتبارا
أليس الدمع يبردهم غليلا ... فما للدمع لي يزيد نارا
ولو كالشمس أو كالبدر أضحى ... محيا من هويت لقلت زارا
ولكن فيه عين الشمس غابت ... وأما البدر أبصره فحارا

فيسترسل في الكشف عن محاسن ومفاتن من يهوى مبرزا جزئيات الصورة وهي تتماسك لتصب جميعها في (التشكيل = الهدف) :

تعالى الله كم أهدى بسهم ... من الأهداب للكبد انفطارا
ولج العاذلون فاوسعوني ... غداة رأوا لو احظه اعتذارا
... أفكر في مباسمه التي من ... يضل يقول جهلا واغترارا

ثغـــورا أم لآ لي الدر تندى أجاد النسق ناظمـهـا جـوارا
جرت أنهـار كـوثرها رضـابا ولو حققت قلت جرت عـقـارا
أغـصنا مـال بالألبـاب منا فنرجـوا الوصـل يطلعـه ثمـارا
متى أشمم عذارا في أصيل فـأفـضـح رند نجـد والعـرارا
فـتـحظى بالمنى منا نفـوس ترى إذلالهـا فـيك افـتـخـارا

وعلى درب استعذاب اللوعة، والإيغال في الكشف عن معاناة الذات المكتوية بلهيب الهجر والصدود ، والمكابدة لحرق الآمال والأماني في الوصل، يعزف على أوتار كل من أبى خفاجة وابن زمرك ومن لف لفهما بالأندلس، ومهيار الديلمي والشريف الرضي وعبد المحسن الصوري وأضرابهم من شعراء المشرق القدامى.

والنهج ذاته يسلكه شاعر آخر هو محمد بن الشيخ سيدي وذلك إذ يقول :

ماللمحبين من أسر الهوى فاد ولا مـقـيم لقـتـلاهم ولا واد
ولا حميم ولا مولى يرقى لهم بل هم بواد وكل الناس في واد
يارحمتي لهم ماكان أصبرهم على المعـاناة جمع بين أضـداد

كما أسهب في تبسيط مايلقاه المحبوب من قبل الآخرين :

والناس ألب عليـهم واحـد فلذا ما إن ترى من يواسيهم باسعاد
إمـا عـذول وامـا ذو مـراقـبـة أو زاعم النصح أو ساع بإفساد
إن أظهروا مابهم ليموا وإن كتموا لاقوا بما كابدوا تصديع أكباد
وهين كل مـــايلقـــوه عندهم لو أن أحـبـابهم ليـسـوا بصـداد

أما هو - الشاعر - فموقفه من هؤلاء تبديه الصورة التالية :

اعـــــاذلين أقلوا اللـوم ويحكم إني لمن رام قـودي غـيـر منقـاد
ولا يلين قناتي غـمـز غـامـزها ولا يقـيـم ثقـاف العـذل منئـادي
... يزداد باللوم حب الصادقين هوى واهـا لحب بطول اللوم مـــزداد

الإشارة والرمز

أما محمد الحراق، فإنه - على درب تبسيط معاناته الصوفية، ووجده ساعة تتصل ذاته بالملأ الأعلى فتتضاءل حتى لا يكاد يحس بها حيث هو - يلتقط من المعالم والخصائص مايعرف فيه بحقيقة هيامه وطبيعة وجده، عبر أشكال لفظية بسيطة في مبناها لكن مشحونة بشتى الرموز يشع منها لألاء متميز، وتنبعث من بين ثناياها حرارة صدق العاطفة وتوقد الإحساس ذلك إذ يقول :

أتت في الدجى لا يراها رقيبها ... ويخلص من شر الوشاة حبيبها
فنم بها إشراق نور جمالها ... وأخبر عنها إذ تضوع طيبها
فوالله لا يخلو بها غير عاشق ... رقيق المعاني في الأمور لبيبها
غنى فبدت في موضع الوصل وحدها ... ولما يكن شيء هناك يريبها

مقطع يرشح بألوان الإشارة والإيحاء والرمز لكنها إشارة لايفقهها إلا من كان متصلا بحقيقة حياة الشاعر، وعلى علم بمقاصده، ومحمولات ألفاظه ومؤداها.

ومما يتصل بما سلف قوله الآتي حيث يلزم رد "ليلاه" تمت إلى مرجعها، ودلالتها، ذلك حيث يكني عنها بمثل قوله :

أماطت عن محاسنها الخمارا ... فغادرت العقول بها حيارى
وبثت في صميم القلب شوقا ... توقد منه كل الجسم نارا
... يغالط في هواها الناس طرا ... ويلقي في عيونهم الغبارا
ويسأل عن معارفها التذاذا ... فيحسبه الورى أن قد تمارى
ولو فهموا دقائق حب ليلى ... كفاهم في صبابته اختبارا
إذ يبدو امرؤ من حي ليلى ... يذل له وينكسر انكسارا
ولولاها لما أضحى ذليلا ... يقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وماحب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

إن اعتماد الشاعر على الصورة المتميزة الحافلة بجزئيات متفردة، تهدف، زمان اتصالها وحين تكتمل، إلى مقاصد بيانية بعينها. وتنطلق من خلفيات مرجعية ساعة تشكيلها ،فهي عملية ذات أهمية بالغة في وعي الشاعر وتصوره، عملية يبدو فيها الشاعر على علم بما يأتي ومايذر، على علم بالمدى الذي يقصد إليه من وراء اختياراته، وبمدى التأثير الذي تخلقه هذه الصورة لدى المتلقي سواء أدى هذا التأثر إلى الارتياح أو الانزعاج، وكثيرا ماانطلق الشعراء من هذا التصور، فأبرزوا المهمة المنوطة بالقصيدة الشعرية الحافلة بالصور البيانية، ومستويات التعبير الفني الغني برموزه وإشاراته فصورة الشعر في نظر ابن ادريس العمراوي هي بمثابة سلاح فتاك له أكثر من حد يفعل فعله إن تحرك بإشعاعه، وآثاره، ومايحدثه لدى من يقصدون به أو يعنيهم أو يتوجه إليهم :

سل الرواة عن نفثات شعري   فكم أبرأن من قلب سقيم
وكم أظهرن جودا من بخيل   وكم أولدن من فكر عقيم
فإن الشعر في التحقيق سحر   كما قد جاء في الأثر الكريم
ولي في نظمه القدح المعلى   وأسرار تغيب عن العليم
فأنظم حين أنظم رائعات   تفوق الدر في العقد النظيم
وأرفع بالمديح مقام قوم   وإن كانوا ذوي أصل لئيم
وأخمد بالهجاء منار قوم   وإن كانوا ذوي قدر عظيم
ولي قلم له بأس شديد   يثلم حده حد الصريم.
ويترك ضربه الأقران صرعى   لدى الميدان بالضرب القويم

خزف تافيلالت خلال نهاية القرن 18 وبداية القرن 19

لحسن تاوشيخت ×

التصميم

I- الأبحاث المنجزة حول الموضوع.

II- تموضع المعامل ومقالع الربد.

III- الوظيفة اليومية للخزف المكتشف.

IV- الأشكال الهندسية والتحقيب الزمني.

خاتمة.

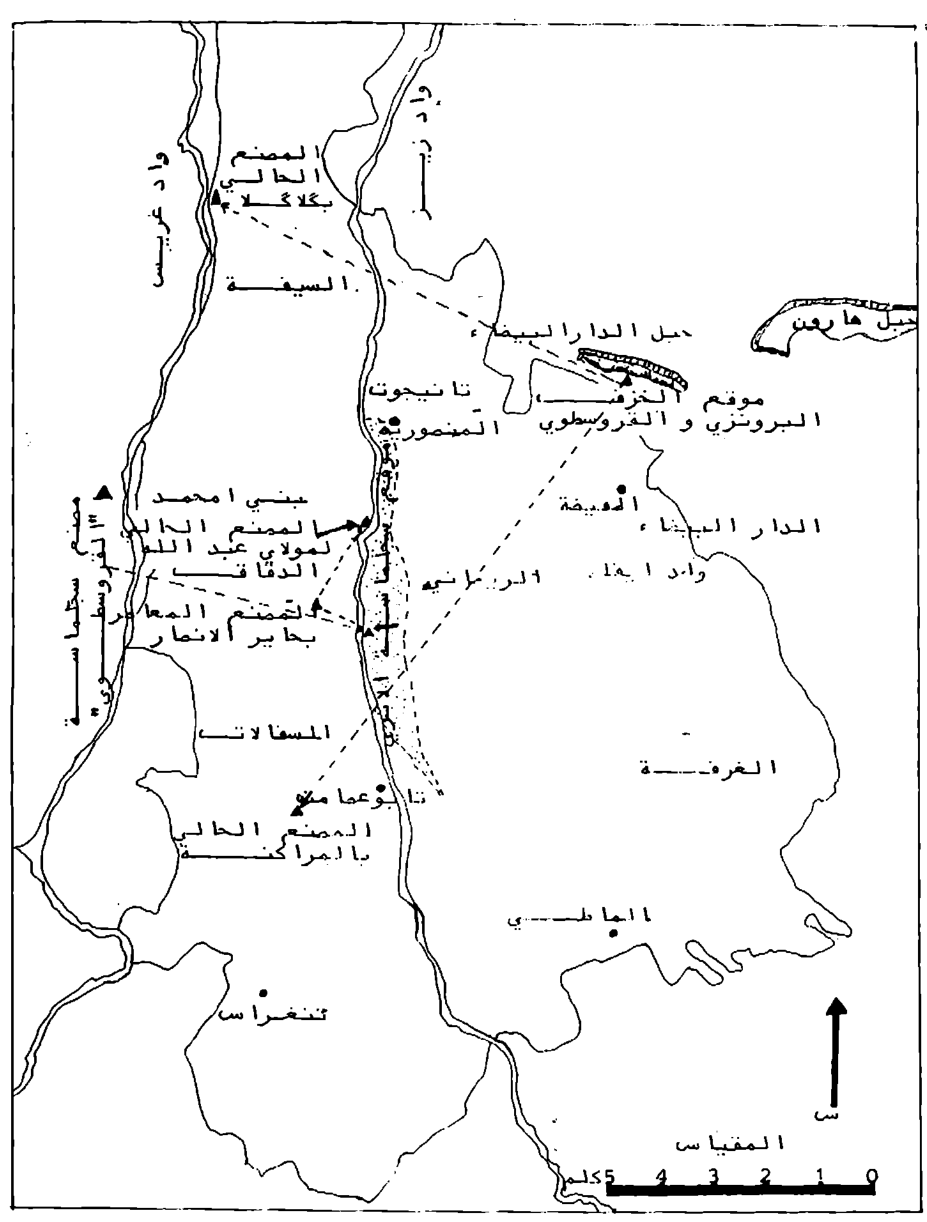
تعتبر صناعة الخزف أو الفخار من أقدم الصناعات التي عرفتها تافيلالت، ذلك أننا عثرنا على مواقع خزفية ترجع إلى عهد البرونز أو مايصطلح على تسميته بالفترة الممهدة للتاريخ La Protohistoire وقد عرفت هذه الصناعة ازدهارا كبيرا في عهد سجلماسة حيث وجدت عدة مصانع فخارية في ضواحي المدينة وكانت تنتج أنواعا راقية من الخزف لم يقتصر استعمالها محليا بل عرفت رواجا كبيرا، فقد عثر عليه في العديد من المدن المغربية كمراكش وفاس وسبتة والمغاربية كتلمسان وحنين، سودانية - جنوب - صحراوية - كأودغشت وكاو، ولازالت الأبحاث الأثرية تكشف

× - مدير مركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني .

يوما بعد يوم عن هذا الصنف السجلماسي. وقد ارتبطت هذه الحرفة خاصة بتجارة القوافل تزدهر وتتدهور بازدهارها مع أزماتها إلى أن فقدت معظم سماتها المميزة مع اندثار سجلماسة اثر تراجع تجارة الذهب والعبيد خلال نهاية القرن 14 م. بعد هذه الفترة وإلى غاية تجديد بناء "العاصمة الفيلالية" من طرف السلطان المولى اسماعيل في آواخر القرن 17 م، شهدت صناعة الخزف المحلية مرحلة انتقالية تميزت بانتاج أواني فخارية شبه عادية وذات توجه محلي يرمي إلى سد حاجيات السكان من الآنية المنزلية، وقد استغل الخزفيون اندثار مدينة سجلماسة وانعدام الأمن وقلة الطلب

لكي ينقلوا مصانعهم إلى وسط أطلال المدينة المندثرة حيث تم العثور على عدة بقايا في هذه المعامل في المكان الموجود بين خزان الماء وواد زيز، وقد استمرت هذه الصناعة في انتاجها بعين المكان لمدة تقرب من ثلاثة قرون أي إلى حين بناء القصبة السجلماسية من طرف المولى اسماعيل حيث نجد الفخارة ينتقلون من جديد نحو موقع آخر وهو قصر بحاير الأنصار الذي يبعد عن موقع سجلماسة بحوالي 800 م نحو الغرب. في هذا المكان استقر الخزفيون لفترة تزيد عن قرن ونصف أي إلى غاية منتصف القرن 19 حيث انتقلوا من جديد نحو قصر مولاي عبد الله الدقاق الحالي الذي يبعد عن القصر الأول بحوالي 1 كيلو متر ونصف نحو الشمال الشرقي والذي لازال ينتج نفس الآنية إلى اليوم (انظر الخريطة). من خلال هذا الجرد التاريخي لتنقل صناعة الخزف يتبين أن هذه الصناعة قد تكيفت مع الظروف المحلية واستطاعت أن تحافظ على استمراريتها وبالتالي التأكيد على أن الانسان الفيلالي بالرغم من الظروف الطبيعية القاسية، يحدوه دائما أمل الاستمرار وإقامة توازن إيجابي مع مجاله الحيوي وذلك باستعمال كل الوسائل الممكنة والمتوفرة.

فمن خلال دراسة فترة معينة من الحقب التاريخية التي مرت منها



سجلماسة او تافيلالت بالمعنى الضيق

خريطة مواقع صناعة الخزف الفيلالي منذ الاصول الى اليوم.

◄--- تنقل صناعة الخزف عبر العصور.

صناعة الخزف الفيلالي، وهي فترة أواخر القرن 18 وبداية القرن 19، يتضح جليا التقدم التقني لهذه الصناعة وبالتالي يمكننا أن نستشف من ذلك الازدهار الاقتصادي الذي شهدته تافيلالت خلال هذه الفترة.

I- الأبحاث المنجزة حول الموضوع :

1 - **الحفريات** : وقد همت موقع سجلماسة الأثري عامة وموقع القصبة السجلماسية خاصة، وقد بدأت هذه الأبحاث منذ 1971 ولازالت مستمرة إلى اليوم، ويمكن إيجازها فيما يلي :

أ - الحفريات الإيطالية : وقد قامت بها مؤسسة لودويك كيمير دوبازيليا، برئاسة الأمير بوريس دورا شويلتز وقد أنجزت هذه الحفريات في إطار بعثتين : الأولى مابين 29 ماي و3 يوليوز 1971 والثانية مابين 28 مارس و7 ماي 1972. تضمنت هذه الحفريات عدة أسبار تجريبية ومسح جيوفيزيائي خاصة بالجهة الشمالية للموقع.

ب - الحفريات المغربية (يوليوز - غشت 1974) تحت إشراف المهندس محمد بن شمسي، وقد كشفت عن عدة بنايات (منازل) بوسط القصبة السجلماسية.

ج - الحفريات الأمريكية : تحت إشراف الأستاذ رونالد ميسيي من جامعة ميدل تينيسي بالولايا المتحدة الأمريكية، وقد شملت لحد الآن موسمين، الأول مابين 18 يونيو و25 يوليوز 1988 وعرف حفر خمسة أسبار فضلا عن الدراسة الهيدروغرافية والخريطة الطبوغرافية للموقع. الموسم الثاني انجز مابين 30 ماي و16 يوليوز 1992 وتم خلاله حفر أربعة عشر سبرا تجريبيا إضافة إلى وضع خريطة طبوغرافية ودراسات جغرافية وخزفية واثنوغرافية.

ح - الحفريات الشخصية : واهتمت خصوصا بالكشف عن بقايا

السور السجلماسي القديم، حيث تم إبراز مسار هذا السور لمسافة تزيد عن 3 كيلومترات كما تم حفر أحد الأبراج بهذا السور لعمق يصل إلى 5 أمتار على مستوى واد زيز، ذلك أن هذا السور يمر بمحاذاة الضفة الشرقية للوادي. وقد انجزت هذه الحفريات في فترتين : الأولى مابين 20 - 31 دجنبر 1991 والثانية مابين 15 و25 يناير 1992.

صفوة القول، كل هذه الحفريات كشفت عن كون الطبقات الأثرية العليا ابتداء من عمق 2 أمتار، تنتمي إلى عهد القصبة السجلماسية وبالتالي فإن الخزف المكتشف بها في غالبيته من صنف قصر بحاير الأنصار المؤرخ بالقرن 18 والنصف الأول من القرن 19.

2 - المسح الأثري : LA PROSPECTION DE SURFACE

وهو عملية جمع واستقراء المخلفات المادية الموجودة فوق موقع أثري بواسطة تقنيات متعددة قصد الحصول على معطيات تقريبية عن محتويات الطبقات الأثرية الدفينة. وتطبق هذه العملية سواء بالمواقع الغير معروفة بدقة كموقع سجلماسة أو في حالة تعذر القيام بحفريات دقيقة، وعلى أي فإنها العملية الأولى التي يجب على الباحث القيام بها في تحرياته الأثرية، وبالفعل فقد طبقنا هذه التجربة على مساحة كبيرة من واحة تافيلالت وأعطت أكلها حيث استطعنا أن نكتشف عدة مواقع لصناعة الخزف الفيلالية : موقع صناعة الخزف البرونزية، موقع صناعة الخزف القروسطوي والسجلماسي، موقع صناعة الخزف لما بعد تخريب سجلماسة وموقع صناعة الخزف الحديث بقصر بحاير الأنصار، ففيما يخص هذا الأخير الذي يهمنا في هذا الموضوع فقد أجرينا فيه مسحا أثريا اعتمادا على تقنية التقسيم إلى مربعات من فئة 25 م^2، وهمت هذه العملية داخل السور المحيط بالموقع وأيضا الأفران الخارجية (انظر الخرائط المرفقة)، وقد حصلنا بواسطة هذه العملية على مجموع 115293 قطعة خزفية منها 46167 عادية و691123 مطلية اخترنا من بينها 1841 شكلا متنوعا كما سنرى من خلال دراسة الوظيفة اليومية لهذا الخزف.

بطاقة المسح الاثري بقصر بحاير الأنصار

الموقع	قصر بحاير الأنصار : 2 كلم غرب مدينة الريصاني اقليم الرشيدية
المساحة	7700 م²
المربعات	من 1 A - إلى 1R - 16 إضافة إلى الفرنين الخارجيين.
التاريخ	من 2/12 إلى 1988/4/5.
شكل السطح	منخفض مكون من الرواسب النهرية ذات اللون البني (صلصال ورمل وحصى) مختلطة بقطع خزفية متنوعة.
الطبوغرافية	أرضية مسطحة في الغالب مع وجود ركامات من الاتربة وبقايا الأسوار والأفرنة وهي أرضية عارية تتعرض لعوامل التعرية.
نوعية المسح الأثري	الجمع المنظم بواسطة مربعات من 25 م².
عدد الأشخاص	2
عدد القطع المجمعة	.115293
التصنيف	الخزف العادي :46167 // الخزف ذي الطلاء 69126.
عدد الأشكال المصنفة	1841
عدد النقود	.62
أشياء أخرى	الآجر، الفواصل، الزليج والقطع الضائعة.
التحليل	بعد تقسيم المجال إلى مثلثات من 3 و4 و5 م، تم تغطية المكان إلى مربعات من صنف 25 م² اعتمادا على مسامير وخيط مقوى. بعدها تم جمع كل القطع الخزفية مربعا بعد مربع، هذه القطع يتم احصاؤها وتصنيفها وجمع تلك التي تقدم لنا شكلا معينا.
الملاحظات	- التوزيع الشامل والمكثف للقطع الخزفية داخل المجال المدروس ماعدا في بعض الأماكن التي تعرضت لتدخل الإنسان (ممرات، أخذ التربة ...). - كثافة القطع الخزفية كانت أكبر فوق ركامات الأتربة وخاصة فوق بقايا الأفرنة. - اكتشاف عدد مهم من النقود. - القطع الخزفية المكتشفة في هذا المكان تشبه تماما تلك التي عثرنا عليها في موقع سجلماسة الأثري.

- تموضع المعامل ومقالع الريد :

1 - الموقع : يوجد معمل خزف تافيلالت الحديث بقصر بحاير الأنصار والذي يقع على بعد 800 م غرب موقع سجلماسة أو واد زيز الحالي، وفي مفترق الطريق المؤدية إلى مشيخه السفالات، وهو عبارة عن قصر بمعنى الكلمة حيث يحيط به سور ضخم وعال من التابوت تتخلله تسعة أبراج مربعة، المدخل يوجد بالجهة الجنوبية الغربية وهو عبارة عن قوس منكسر مشيد بالحجارة والآجر. إن طبيعة هذا القصر تدل على حقيقتين : إما أن هذا القصر كان موجودا قبل هذا التاريخ وتعرض للتخريب والإفراغ من سكانه مما جعل الخزفيين يستغلونه لبناء معملهم فيما بعد ؛ أما الرأي الآخر والذي يبدو صائبا إلى حد ما فإن خزفيي هذا القصر كانوا فيما قبل أي مابين القرنين 15 و17 يستقرون بأطلال سجلماسة ولما شيد المولى اسماعيل القصبة السجلماسية بنى لهم أيضا هذا القصر لكي ينتقلوا إليه ويتمكنوا من الاستقرار وبالتالي الاستمرار في إنتاجهم. مهما يكن من أمر فإن هذا القصر احتضن منذ ذلك التاريخ أي نهاية القرن 17 صناعة الخزف الفيلالي واستطاع أن يغزو الأسواق الجهوية بمنتوجاته من الفخار الأخضر اللامع إلى حين تخريبه من طرف ابراهيم يسومر اليزدكي في منتصف القرن 19 حيث اضطر الخزفيون إلى مغادرة معملهم والانتقال إلى معمل جديد وسط القصر الحالي المعروف بمولاي عبد الله الدقاق. ويتكون معمل بحاير الأنصار من ثلاثة أفران أحدهما يوجد بالداخل والآخران بالخارج بمحاذاة المدخل في الجهة الجنوبية. كما توجد أفران أخرى مبعثرة في الغرب والشمال الغربي للقصر قرب القبة المشهورة بمولاي عبد القادر الجيلالي.

2 - بجوار القبة السالفة الذكر كانت توجد مقالع الريد وهي نفس المقالع المستغلة إلى حد الآن، وتتوفر على تربة صلصالية جيدة ذات اللون الأحمر أو الأصفر، هذه التربة يتم جلبها بواسطة حفر آبار ارتوازية

على شكل خطارات. أما التكوين الفيزيولوجي للتربة فهي طين صلصالية متماسكة العناصر ومختلطة في الغالب بشوائب من الكوارتز الأبيض. سمكها ضئيل ويتراوح مابين 7 و20 ملم ويميل لونها إلى الأحمر أو الأصفر أو البني حسب درجات الحرارة داخل الفرن وكمية الملح في الماء وسمك الطين وغالبا مايكون الخزف المستخرج من هذه التربة مغلفا بطلاء وحيد اللون : أخضر أو أصفر أو بني إما على جهة واحدة (الخارجية) بالنسبة لأواني الخزف أو على الجهتين بالنسبة للأواني المفتوحة وخاصة أواني المائدة.

- الوظيفة اليومية لخزف تافيلالت الحديث :

من خلال الأشكال الخزفية المنتمية لمعمل بحاير الأنصار سواء المكتشفة بموقع سجلماسة الأثري أو بالخصوص التي تم جمعها بموقع المعمل يتضح جليا سيطرة أواني المائدة وخاصة الأطباق مما يدل على كون العلاقات العائلية والأسروية كان يسودها نوع من التعاون والحياة الجماعية، من جهة أخرى نجد أن أواني الخزف احتفظت باستقرار نموها منذ فترة سجلماسة، بينما نلاحظ قلة أواني الطبخ والسبب في ذلك ناتج عن التركيب الصلصالي للتربة والذي لايسمح باستعماله فوق النار لمدة طويلة ولعل قلة هذه الآنية في صناعة الفخار الحالية تعود لنفس السبب. أما آنية الإنارة أو القناديل فقد احتفظت بنفس الخصائص التقنية والإنتاجية عن الفترات السابقة.

1 - أواني المائدة : وتكون أكثر من نصف مجموع الأشكال المجمعة حوالي 1004 قطعة أي بنسبة 54،53 %، ويتركز هذا الصنف في كل الأماكن ويتكون من ثلاثة أنواع :

أ - الأقداح والأوعية : وهي ذات استعمال فردي يومي، ورغم تنوع أحجامها فإن شكلها يبقى موحدا وتتكون من قاعدة مستديرة مسطحة أو مفرغة من الوسط وجانب دائري شبه مفتوح، الطين ذات سمك رقيق وغالبا

ماتكون مغلفة بطلاء وحيد اللون على الواجهتين (الأخضر، الأصفر، أو البني). في بعض الأحيان تكون هذه الأشكال غير مكتملة الصنع فتظهر عليها آثار اللولب أو الحريق. كما أن هذه الأشكال تتميز بانعدام الزخرفة مما يعطيها طابعا مبسطا. المقاييس المتوسطة هي: العلو : 6 سم، المسك : مابين 5 – 16 ملم، قطر القاعدة : 5،6 سم، قطر الجانب : 12 سم.

ب – ***الأطباق*** : وتستعمل في الوجبات الجماعية اليومية، وهي نوعان: أطباق كبيرة الحجم أو مايسمى "بالكسعة" وهي ذات قاعدة مسطحة وجانب مفتوح، أما النوع الثاني فهي أطباق متوسطة الحجم (قصريات) وتتميز عن الأولى بقاعدتها المستديرة والمفرغة من الداخل وبجانب مفتوح ودائري. الطين تبقى رقيقة السمك في غالب الأحيان وتكون مغلفة بطلاء لامع وحيد اللون سواء على الواجهتين أو على الداخل فقط (الأخضر، الأصفر أو البني)، وهذه الأطباق تكون مزينة في بعض الأحيان ببعض الأشكال الزخرفية المحززة كالتعرجات والأفاريز.

المقاييس المتوسطة : العلو : 8,6 سم، السمك : مابين 8 -26 ملم قطر القاعدة :8 سم، قطر الجانب : 14،8 سم.

ج – **الفناجين** : (م. فنجان) وتتميز بحجمها الصغير وبشكلها الموحد المتكون من قاعدة صغيرة، مستديرة ومجوفة أو مسطحة، وبجانب دائري شبه مغلق وأيضا بيد صغيرة دائرية، الطين رقيقة جدا وغالبا ماتكون مغلفة بطلاء لامع وحيد اللون على الواجهتين. المقاييس المتوسطة : العلو : 7,4 سم السمك : مابين 5 و12 ملم، قطر القاعدة : 5 سم. قطر الجانب 6,2 سم.

2 – ***آنية الحفظ والخزن*** : وتشتمل على حوالي 468 نوعا أي مايمثل حوالي 58، 25 ٪ من مجموع الأشكال المجمعة، وقد عثر على هذه الآنية في كل الأماكن مما يدل على أهميتها الوظيفية في الحياة اليومية لسكان

تافيلالت خلال هذه الفترة. وتنقسم هذه الأشكال إلى نوعين : الأول يمثل آنية حفظ الماء وتبريده والثانية أواني خزن المواد الغذائية السائلة أو الصلبة.

أ - آنية حفظ الماء وتبريده : وتمثل 10،21 % من مجموع الأشكال المكتشفة، العدد يقدر بحوالي 185 شكلا، يمكن تقسيمها إلى الأنواع الثلاثة التالية :

* القارورات : وهي ذات حجم متوسط أو صغير وذات شكل موحد يتكون من قاعدة مستديرة ومسطحة، من جانب دائري عمودي مغلق، من عنق طويل ضيق ومن يد أو يدين دائريتين. الطين ذات سمك رقيق وخالية من كل طلاء، المقاييس المتوسطة : العلو : 7 سم، السمك : مابين 4 - 15 ملم، قطر القاعدة : 6 سم قطر العنق 5 سم.

* الجرات الصغيرة : وهي ذات أحجام مختلفة ولكن مع شكل موحد يتكون من قاعدة مستديرة مجوفة، من جانب دائري شبه عمودي ومغلق، من عنق واسع متوسط الطول ومن يد أو يدين دائريتين، وفي بعض الأحيان يكون العنق مصحوبا بمصفاة (مثل ب. أ : 2 F/88) أما السمك فهو رقيق وخال من أي طلاء. المقاييس المتوسطة : العلو : 10 سم، السمك مابين 7 - 15 ملم قطر القاعدة : 8 سم، قطر العنق 6 سم.

* القلل أو الجرات الكبيرة : هي ثلاجة المنطقة بامتياز، ذلك أنها إضافة إلى كونها تستعمل في نقل الماء وحفظه فهي كذلك تقوم بتبريده بصفة طبيعية، والقلة تتميز بشكلها شبه الكروي العمودي المتكون من قاعدة نصف دائرية، من جانب دائري عمودي، من عنق طويل متوسط الاتساع ومن يد أو يدين عموديتين تلتصقان بالعنق وبالجزء العلوي من الجانب. الطين متوسطة السمك وخالية من أي طلاء. بعض القلل تكون مزينة بأشكال زخرفية محززة على العنق، المقاييس المتوسطة : العلو : 14 سم، السمك : مابين 7 و30 ملم، قطر العنق :12 سم.

ب - أواني حفظ المواد الغذائية السائلة أو الصلبة : وتمثل 15,37٪ من مجموع الأشكال المجمعة أي بمجموع 283 نوعا يمكن تصنيفها إلى أربعة :

* القارورات : وتستعمل خاصة في حفظ الزيت وكل المواد الدهنية السائلة، حجمها وشكلها لايختلفات كثيرا عن قارورات الماء، الطين رقيقة السمك (من 14 إلى 15 ملم) وغالبا مغلفة بطلاء وحيد اللون على الواجهتين أو على الداخل فقط. الألوان المستعملة هي : الأخضر بنوعيه المغلق والمفتوح، الأصفر، والبني. المقاييس المتوسطة، العلو : 7,4 سم، قطر القاعدة : 6 سم قطر العنق 4,2 سم.

* الجرات الصغيرة : وتتميز بكثرتها وباستعمالها المكثف في خزن المواد الدهنية. حجمها وشكلها متشابهان مع مثيلاتها الخاصة بحفظ الماء، الطين رقيقة السمك (مابين 6 و16 ملم) وهي غالبا ماتكون مصحوبة بطلاء لامع إما على الواجهة الداخلية أو الخارجية ودائما باستعمال نفس الألوان الأخضر أو الأصفر أو البني. المقاييس المتوسطة : العلو : 11,2 سم، قطر القاعدة : 8,4 سم، قطر العنق : 5,6 سم.

* القلل : وهي قليلة جدا ولا تختلف كثيرا عن القلل المائية. الطين رقيقة السمك وتكون مصحوبة إما بغلاف طيني أو بطلاء دهني أخضر لامع، على الواجهتين (ب. أ 12 B/88). المقاييس المتوسطة : العلو : 13 سم السمك : مابين 5 و28 ملم. قطر العنق : 12,5 سم.

* الصواع : وهي قليلة أيضا وتستعمل خاصة في خزن المواد الصلبة (القطنيات)، حجمها متوسط وشكلها شبه كروي يتكون من قاعدة نصف دائرية أو مسطحة، من جانب مستدير، من عنق واسع قليل الطول ومن يدين صغيرتين دائريتين. الطين رقيقة السمك في العموم وتكون مغلفة أما بغلاف

الداخل فقط. المقاييس المتوسطة هي : العلو : 10 سم، السمك : مابين 7 و25 ملم، قطر العنق : 16 سم.

3 - **أواني الطبخ** : تشتمل على 34 نوعا أي مايعادل 1,80٪ من مجموع القطع المجمعة. توزيع هذه الآنية جد محدود وغير منتظم، وتضم شكلين أساسين :

أ - القدور : وتستعمل في طهي الوجبات الغذائية المختلفة، أحجامها متنوعة ولكن شكلها يبقى موحدا ويتكون من قاعدة نصف كروية من جانب دائري، من عنق قصير وواسع ومن يدين صغيرتين دائريتين تشدان بالجانب. الطين رقيقة السمك ومغلفة بطلاء طيني أحمر أو أبيض على الواجهتين : المقاييس المتوسطة : العلو :7 سم، السمك : مابين 5 - 14 ملم، قطر العنق: 12 سم.

ب - الكساكس (م، كسكس) : وهي من الأشكال الخزفية الجديدة التي ظهرت خلال هاته الفترة بينما لم نعثر على أي شكل منها خلال عهد سجلماسة، مما يدل على بداية استعمال هذه الآنية في طهي الطعام المسمى بالكسكس. وتتميز هذه الآنية بحجمها المتوسط وشكلها الموحد والمتكون من قاعدة مسطحة ذات ثقوب صغيرة يتراوح عددها مابين 6 و9، الجانب دائري وعمودي تلتصف به يدان صغيرتان. الطين رقيقة السمك (مابين 4 و15 ملم) وغالبا ماتكون مغلفة بطلاء طيني أبيض من الخارج وبطلاء دهني لامع أخضر أو أصفر من الداخل كما أن بعض الكساكس تكون مزينة بحزوز أفقية أو منعرجة (ب. أ 3 Q/88) المقاييس المتوسطة: العلو :10 سم، قطر القاعدة : 9 سم، قطر الجانب : 20 سم، قطر الثقوب : 1,5سم.

4 - **القناديل الزيتية** : وهي آنية الإنارة بامتياز، وتتميز بكثرتها وتنوع أشكالها وأحجامها، إلا أنها في العموم تنقسم إلى ثلاثة أصناف :

أ - <u>الصنف الأول</u> : يتكون من قاعدة صغيرة ومسطحة، من خزان دائري، من عنق قصير جدا وضيق، من بلبل طويل ومن يد صغيرة دائرية وعمودية، الطين رقيقة جدا ومغطاة بطلاء دهني لامع أخضر على الواجهتين. المقاييس المتوسطة : العلو 5 سم، السمك مابين 6 و8 ملم، قطر القاعدة : 4,8 سم، قطر العنق :2,6 سم.

ب - <u>الصنف الثاني</u> : ويشبه إلى حد بعيد الصنف الأول مع اختلاف في الخزان الذي يتخد شكلا محززا وأيضا في العنق الواسع (القطر المتوسط 4 سم).

ج - <u>الصنف الأخير</u> يتكون من القناديل ذات الخزان المحزز أو الدائري وذات رجل طويلة تنتهي بقاعدة مستديرة ومنبسطة وأيضا بيد طويلة تربط بين القاعدة والخزان. (ب. أ 15 G/88) الطين رقيقة السمك ومغلفة بطلاد دهني أخضر لامع على الواجهتين : المقاييس المتوسطة : العلو : 12,5 سم، السمك مابين 5 و13 ملم، قطر الخزان 7,4 سم، قطر العنق : 2,4 سم، قطر القاعدة :13سم.

5 - **أشكال أخرى متنوعة** : وتمثل فضلا عن القناديل حوالي 7,55٪ من مجموع القطع المكتشفة أي حوالي 140 نوعا، ويمكن حصرها في خمسة أصناف:

أ - المبخرة : وقد تم العثور على شكلين منها (ب. أ 7L/88و2F) ، الشكل الأول شبه كامل يتكون من قاعدة مستديرة ومجوفة، من جانب دائري شبه عمودي ومن عنق قصير مستديرة. قصد إخراج البخار، تم تشكيل أربع فتحات صغيرة أفقية في بداية العنق وخمس أخرى طويلة فضلا عن مدخل صغير مربع الشكل على مدار الجانب، الطين رقيقة جدا ومغطاة بطلاء أخضر على الواجهة الخارجية. المقاييس : العلو : 13 سم السمك : مابين 11,6 ملم، قطر القاعدة 6,5، قطر العنق :4 سم.

أما الشكل الثاني فيمثله قطعة عنق وهو لا يختلف عن السابق إلا بلون الطلاء حيث نجده هنا من النوع الأصفر المقاييس : العلو : 3,5 سم، السمك : مابين 6 - 7 ملم، قطر العنق : 4,2 سم.

ب - الأغطية : وهي كثيرة إلى حد ما ويمكن تصنيفها إلى نوعين :

* أغطية الأوعية والطاجين : وهي ذات شكل محدب نصف كروي يتوسطه إلى الأعلى شداد دائري، الطين رقيقة السمك، وغالبا ماتكون مغطاة بغلاف صلصالي بالداخل وبغطاء دهني لامع أخضر أو أصفر على الواجهة الخارجية. المقاييس المتوسطة : العلو : 4,8 سم، السمك : مابين 4 و20 ملم، قطر الجانب 12 سم، قطر الشداد : 2,6 سم.

* أغطية القلل والجرات : وهي ذات شكل مقعر يتوفر على جانب نصف كروي وعلى قاعدة مستديرة ومنبسطة يتوسطها في الأسفل شداد دائري، سمك الطين يبقى رقيقا، هذه الأغطية تكتفي فقط بطلاء طيني على الواجهتين. المقاييس المتوسطة : العلو : 4 سم، السمك مابين 6 و16 ملم، قطر القاعدة : 6 سم، قطر الجانب : 14 سم.

ج - محبرة : قد تم اكتشاف نوع واحد (ب. أ 2Q/88) مما يدل على قلتها وبالتالي صنعها تحت الطلب، وتتميز هذه المحبرة بحجمها الصغير جدا وشكلها المغلق المستدير المتكون من قاعدة مجوفة ومن جانب كروي، الطين رقيقة جدا، يبلغ سمكها مابين 6 و10 ملم، وقد زينت هذه المحبرة بعدة حزوز هندسية مغطاة بطلاء دهني بني المقاييس : العلو : 5,1 سم. قطر القاعدة 3,7 سم (العنق مكسر).

د - الحلاب : وهو إناء مخصص للحليب أو الماء وقد تم العثور على أنواع منه ذات أحجام مختلفة ولكن ذات شكل موحد يتكون من قاعدة مستديرة منبسطة ومن جانب دائري شبه عمودي، الطين ذات سمك رقيق

جدا ولا تتوفر على أي طلاء خارجي. المقاييس المتوسطة : العلو : 7,6 سم، السمك مابين 6 و12 ملم، قطر القاعدة : 7 سم، قطر الجانب : 13 سم.

هـ - الغليون : (ج غلايين) : وهي مثل الكسكس لم تظهر إلا في هذه الفترة مما يدل على تأثر سكان المنطقة بالأجانب وبالتالي تعاطيهم للتدخين، وتتميز هذه الأشكال بكثرتها النسبية وأحجامها المتنوعة وتتكون من قاعدة مسطحة ومن جانب دائري يتوفر على فتحتين ومصفاة. الطين ذات سمك جد رقيق وهي إما مغطاة بغلاف طيني رقيق مثل رقم ب. أ. M1/88 أو بطلاء دهني أخضر أو بني. المقاييس المتوسطة : العلو : 3 سم، السمك : من 4 إلى 10 ملم. الطول : 4 سم قطر الفتحتين : 1 سم.

إلى جانب هذه الأشكال يمكن إضافة أنواع أخرى تدخل مباشرة في العمليات الصناعية الخزفية وتسمى بالتالي من ثوابت هذه الصناعة ونذكر من بينها : الفواصل (PERNETTES) الأواني الضائعة (REBUTS)، دعامات (SUPPORTS) فضلا عن الأشكال المستعملة في البناء والهندسة مثل الزليج المحلي المسمى گجمات والأجرBRIQUES CUTTES وتمثل كل هذه الأشكال 97 قطعة أي بنسبة 5,25 ٪ من مجموع الأشكال.

IV - الأشكال الزخرفية :

لاشك أن الخزف الفيلالي المعاصر يستمد أصوله من الخزف السجلماسي، ذكل أن الخصائص التقنية والأشكال تتشابه إلى حد بعيد بالرغم من التدهور النسبي الذي يمكن ملاحظته على النوع الأول. ذلك أن خزفيي بحاير الأنصار نتيجة الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي عرفتها المنطقة في بعض الأوقات وكذلك نتيجة ضيق أفق التسويق فضلا عن منافسة صناعات خزفية أخرى أكثر تقدما، مثل صناعة الخزف الفاسي، فإن هؤلاء الخزفيين لم يستطيعوا أن يواكبوا الركب التقني أو بالأحرى أن

Tableau [illegible]: La typochronologie de la poterie bhayerienne
(fin XVIIème - milieu du XIXème siècle).

SERVICES	TYPES DIVERS
de table (54,53%)	
de conservation (25,58%)	
culinaire (1,80%)	0 5cm
couvercles (4,50%)	
autres (11,05%)	

Comparaison typochronologique entre la poterie sijilmassienne (XI-XVII°S. ?) et bhayerienne (fin XVII° - milieu XIX°S).

Origines / Services	production sijilmasssienne médiévale ou moderne	production bhayerienne
de table		
de conservation		
culinaire		
d'éclairage		
autres		

يحافظوا على السمات التقنية للخزف السجلماسي، وهكذا نلاحظ تراجع محدودية الأشكال الزخرفية التي لم تتعدى بعض الخطوط البسيطة التي غالبا ماترسم محززة بواسطة قطعة من القصب أو بواسطة مشط. هذه الأشكال تتوزع مابين الأفاريز الصغيرة MOULURES المنعرجات MEAN-DRES خطوط مستقيمة وحزوز متقطعة INCISIONS وهذه الزخارف تتخذ إما شكلا عموديا أو أفقيا، طابعا مستقلا أو متوازيا. القطع التي شملتها تقنية التزيين هي خاصة الأطباق على الواجهة الداخلية ثم الواجهة الخارجية لكل من القارورات والجرات الصغيرة والقلل والكسكس والمحبرة. موازاة مع هذه الأشكال نجد أن الفخار المستورد وخاصة من مدينة فاس يتميز بغنى زخرفته المزينة سواء بعناصر نباتية من زهريات، نخيلات أو أغصان أو بعناصر هندسية من الدوائر والنجوم والمربعات والمنعرجات ... الخ. وقد رسمت هذه الأشكال بأصباغ متنوعة، خضراء، زرقاء وصفراء فوق أرضية بيضاء وتحت دهان شفاف غير ملون. كما يمكن إضافة بعض الأشكال التي كانت تصنع في فاس خصيصا لمنطقة تافيلالت وتسمى بالبطات والصنونات وهي على شكل جرات صغيرة مخصصة لحفظ مواد سائلة وهذه الأصناف تتميز باحتفاظها بلون المنطقة المميز وهو اللون الأخضر اللامع على الواجهتين بينما تزين من الخارج بعدة زخاريف هندسية من خطوط ومنعرجات ومربعات ونتوء متوازية أفقية أو عمودية.

V- التحقيب :

تدخل في عملية تأريخ الخزف الفيلالي المعاصر ثلاثة معطيات أساسية يمكن إيجازها فيما يلي:

1 - ***النقود*** : من خلال المسح الأثري المنظم الذي قمنا به في قصر بحاير الأنصار، عثرنا على أكثر من 60 عملة نقدية استطعنا أن نقرأ ثمانية منها والتي تعطينا تحقيبا زمنيا يتراوح مابين 1736، 1842. هذه

PLAN du KSAR BHAYER AL-ANSAR

16 15 14 13 12 11 10 9 8 7 6 5 4 3 2 1

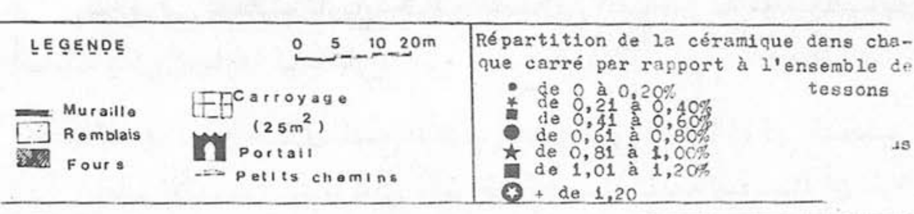
A B C D E F G H I J K L M N O P Q R

N

Four intérieur

Four extérieur I
(6,07%)

Four extérieur II
(6,93%)



PLAN du KSAR BHAYER AL-ANSAR

16 15 14 13 12 11 10 9 8 7 6 5 4 3 2 1

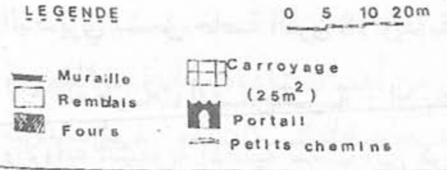
A B C D E F G H I J K L M N O P Q R

N

Four intérieur

Four extérieur I

Four extérieur II



النقود يمكن تصنيفها إلى نوعين : الأول يهم النقود التي ضربت بمدينة فاس (ب. أ P1, H16,H4,F15/88) والمؤرخة بنفس السنة أي1081 هـ/ الموافق لـ 1736 م. الصنف الثاني يتعلق بالنقود التي سكت بتافيلالت أو بتعبير أصح بحصون سجلماسة والتي يقصد منها ربما إما قصر تابوعصامت أو القصبة السجلماسية وهي مؤرخة مابين1081 هـ /1736م و1260 هـ/1842 م، وهذه النقود تحمل الأرقام التالية : ب.أ.I8,I2.J7.D13/88) كل هاته النقود مضروبة من النحاس وهي إما أصلية وتنتمي فعلا إلى عهد قصر بحاير الأنصار وإما أنها حديثة وقد وجدت بهذا المكان بطريقة أو بأخرى، وهذه الأخيرة كلها تحمل على إحدى واجهاتها النجمة السداسية وعلى الواجهة الأخرى التاريخ فقط.

2 - **التحريات الأثرية** : من خلال المكتشفات الأثرية بموقع سجلماسة ابتداء من سنة 1974 وإلى غاية الحفريات الأخيرة (صيف 1992)، يتضح أن الخزف الفيلالي المعاصر يتواجد في كل الطبقات المنتمية للقصبة السجلماسية، هذه الطبقات التي لايتجاوز عمقها مترين والتي يمكن تأريخها مابين نهاية القرن 17 (تاريخ تأسيس القصبة) وبداية القرن 19 (1818 تاريخ الهدم والاندثار). ولعل تشابه القطع الخزفية المكتشفة بهذه الطبقات بمثيلاتها الموجودة بقصر بحاير الأنصار فضلا عن النقود التي اكتشفت بهذه الطبقات والمشابهة للنقود المؤرخة بسنة 1081 هـ وأيضا المخلفات المادية الأخرى من بنايات بالخصوص والمنتمية كلها للقصبة السجلماسية، كلها دلائل من شأنها أن تقدم لنا تحقيبا زمنيا للخزف البحايري يشمل خاصة القرن 18 وبداية القرن 19.

3 - ***المعطيات التاريخية*** : إن بعض المصادر التاريخية المكتوبة والرواية الشفوية المحلية تذهب إلى كون قصر بحاير الأنصار - معمل الخزف الفيلالي الحديث - قد تعرض مع منتصف القرن 19 إلى عملية الهدم من

طرف ابراهيم يسومر اليزدگي الذي كان قائدا للمنطقة على عهد السلطان المولى عبد الرحمان قبل أن يتمرد ويحاول الاستقلال بالمنطقة مما جعله يقوم بعملية تقليص عدد القصور ومحاربة الرافضين له وتجميعهم عنوة داخل بعض القصور، مما جعل هذه الأخيرة تفرغ من سكانها وتتعرض بالتالي للإندثار. وهذا ماعرفه قصر بحاير الأنصار - بدون شك - حيث أن سكانه - الخزفيين - أرغموا على إفراغه والانتقال إلى قصر مولاي عبد الله الدقاق الحالي الذي لازالت عدة أسر منه تحمل اسم "بحاري" وتشتغل بصناعة الخزف إلى اليوم.

مجمل القول أن صناعة الخزف المعاصر بتافيلالت أو الخزف البحايري، يمكن تأريخها مابين نهاية القرن 17 وخاصة القرن 18 م والنصف الأول من القرن 19م، وهذه الصناعة التي ورثت الخصائص التقنية عن الخزف السجلماسي بالخصوص، حاولت ما أمكن أن تحافظ على استمراريتها بالرغم من الظروف العصيبة التي مرت منها وبالرغم من المنافسة الخارجية وبالرغم من التراجع المتواصل لوسائلها وأشكالها التقنية. فقد عرف هذا الخزف انتشارا واسعا في معظم المناطق المجاورة حيث تم العثور على أشكال منه في عدة أماكن معاصرة وبعيدة مثل قصر تازوگارت، المعاركة، الگارة، وغيرها ... ومما يدل على رواج هذا الخزف وكثرته وبالتالي ازدهاره، وجود قطع منه في جميع أنحاء واحات تافيلالت وخاصة بموقع سجلماسة الأثري سواء على السطح أو في جميع الطبقات الأثرية التي لايتعدى عمقها مترين.

خلاصات عامة :

تعتبر صناعة الخزف البحايري من أهم الصناعات الخزفية المغربية المعاصرة حيث أنها لم تكتف فقط بسد حاجيات السكان المحلية بل صدرت فائضها نحو مناطق مجاورة وبعيدة، هذه الصناعة فيما يبدو، كانت وليدة

تأثيرين فنيين : أولهما محلي ويهم الأشكال والطلاء الأخضر ويستنبط أصوله من الخزف السجلماسي الذائع الصيت، والثاني خارجي يتعلق ببعض الأشكال الجديدة التي لم تكن موجودة في عهد سجلماسة كالكسكس والمبخرة والغليون ويمكن إرجاع مواطنها إلى منطقة جنوب وهران (بشار، القنادسة) أو توات التي كانت على اتصال متين مع منطقة تافيلالت خلال هذه الفترة.

* لقد استقرت هذه الصناعة في مكان يعتبر صلة وصل بين مختلف مشيخات تافيلالت الست و في حدود ما بين مشيخات السفالالت جنوبا ،بني امحمد شمالا و وادي ايفلي شرقا وهذا مامكنها من التقرب من الأسواق المحلية كسوق مولاي الرشيد أو سوق ابوعام، سوق تابوعصامت وسوق السيفة كما أن هذا التمركز يتميز بعدة إيجابيات من بينها قرب مقالع الريد (مابين 1 - 5 كيلومتر) وكذا ينابيع المياه (واد زيز وروافده، ثم واد غريس وروافده).

* هذه الصناعة استعملت تربة صلصالية من نوع "زيز" نسة إلى واد زيز، وهي تربة متماسكة وموحدة العناصر ومختلطة غالبا بشوائب الكوارتز الرملي الأبيض كما أنها كانت تغربل وتعجن بكيفية متقنة وباستعمال الماء المالح الذي يعطيها لونا أبيض أو أصفر إذا كانت درجات حرارة الفرن تتجاوز 1000 درجة حرارية.

ان خزف تافيلالت المعاصر هو خزف مخرط أي يستعمل الدوار أو المخرطة "LE TOUR" حيث تظهر مخلفات هذا الدوار على واجهتي الآنية وخاصة بداخل القارورات والجرات الصغيرة، كما يتميز هذا الخزف بأشكاله المتنوعة والأنيقة والرقيقة السمك مما يؤكد مهارة يد الصانع المحلي من جهة ومحاولة مسايرة أو منافسة الصناعات الخزفية المعاصرة من جهة ثانية.

* هذا الخزف من خصائصه كذلك بساطة زخرفته الهندسية مقارنة مع الخزف السجلماسي القديم أو الخزف الفاسي المعاصر. فالصانع الفيلالي لم يحاول المحافظة على الأشكال الهندسية الموروثة عن العصور السابقة أو على الاقل تقليد الأشكال المعاصرة، بل انغلق على نفسه مرتبطا بالذوق الفني المحلي والذي يستجيب ومستوى الحياة العامة التي غلب عليها الطابع الصوفي باعتبار كثرة الزوايا، وقد يعتقد الصانع أن هذه الزخرفة هي بمثابة عنصر ثانوي في الصناعة الخزفية، ولا يساعد بالتالي على ضمان بيع أكثر وبأثمان مرتفعة بل العكس يساهم في بذل جهود أكثر. ويمكن تفسير هذه الظاهرة من جوانب أخرى سوسيو اقتصادية :

- ذلك أن الخزف الفيلالي كان مطلوبا بكثرة مما جعل الخزفيين يعتمدون على إنتاج كمي دون الاهتمام بالجانب الكيفي وخاصة الفني.

- إن هذا الخزف كان محصورا في انتشاره على منطقة تافيلالت وحدها مما جعل الصناع يقتنعون بذلك ولا يحاولون غزو الأسواق الأخرى البعيدة وبالتالي إيجاد أشكال خزفية في مستوى المدن الكبرى كفاس ومكناس ومراكش.

- إن أثمان الخزف الفيلالي كانت جد منخفضة مقارنة مع الخزف المستورد وهذا ماقد يؤثر سلبا على الخزفي فيشعر بنوع من الإحباط والإنهزامية ولا يحاول بالتالي البحث عن تقنيات جديدة أو بالأحرى تطوير تقنياته الموروثة. فجهله بما جد في الزخرفة الخزفية جعله يتخلى عن المنافسة الجادة وأصبح سبيله الوحيد هو رسم بعض الحزوز الخطية البسيطة.

نفس الشيء يقال بالنسبة للطلاء الدهني (GLACURE) والذي يغلب عليه اللون الأحادي وخاصة الأخضر المستخلص من خليط أوكسيد النحاس والرصاص والرمل الأبيض. إن اختصاص الخزف الفيلالي باللون الأخضر منذ

عهد سجلماسة وإلى اليوم يطرح عدة تساؤلات عن جذوره العميقة، هل هي وفرة المواد الأولية من نحاس ورصاص ورمل أم هناك عوامل أخرى غير مادية، يمكن تفسيرها اعتمادا على علم النفس الاجتماعي ذلك أن سكان تافيلالت ومن بينهم خاصة الخزفيين يرومون وراء تلك الصناعة التعبير عن مشاعرهم الدفينة الراغبة في الحفاظ على واحتهم دائمة الخضرة والازدهار أو بالعكس حاجتهم المستمرة إلى المناظر الخلابة.

* إن عملية الطبخ تتم عبر أفران لازالت آثار ثلاثة منها ظاهرة للعيان، والفرن البحايري يتكون من طابقين : الأول باطني وتوقد فيه النار والثاني سطحي وتوضع فيه القطع الخزفية، الفرن في مجمله مشيد بالتابية (Briques crues) وربما كانت تغطيه قبة فيها فتحات جانبية وأفقية مثلما هو الحال بالأفران الحالية بقصر مولاي عبد الله الدقاق. الأشكال الخزفية كانت تنظم داخل الفرن حسب أنواعها وأحجامها ويتم التفريق فيما بينها بواسطة الفواصل، عملية الطبخ هذه ربما كانت تتم عبر مرحلتين : الأولى مايسمى بالنار الكبرى التي يراد منها كي الطين وإعطاؤه الشكل اللائق به. المرحلة الثانية أوالنار الصغرى الغرض منها إعطاء الطلاء الدهني اللمعان والبريق الكافيين. مدة الطبخ من دون شك ستكون طويلة وشاقة كما أن دراجة الحرارة داخل الفرن غالبا ماتتجاوز 900 درجة بالنظر إلى لون طين وطلاء الأشكال المصنعة، كما أن تبريد الفرن وإفراغه كانا ربما يتمان بشكل منظم تفاديا للضياع.

* إن الخزف الفيلالي المعاصر كان - بدون شك - مطلوبا بكثرة عند سكان الواحة وعند سكان المناطق المجاورة وربما البعيدة منها باعتبار جمالية بعض الأشكال المصنوعة وربما انخفاض ثمنها مقارنة مع الفخار المستورد من فاس مثلا، إلا أننا نجهل بالمرة كيف كانت تتم تجارة هذا الخزف من حيث النقل (نوعية الدواب، والتنظيم والطرق)، من حيث أشكال البيع هل

بالمقايضة أم بالنقود ؟ ماهي الأثمان الحقيقية للبيع ؟ هل كان الخزفيون يبيعون بضاعتهم بالتقسيط في الأسواق أم يبيعونها بالجملة في المصنع ؟ ماهي المشاكل : قلة الطلب، المنافسة، قلة المنافذ التجارية، ضعف الأثمان... إلى غير ذلك.

* من الملاحظ من الناحية الاجتماعية أن الخزف الفيلالي المعاصر قد كشف عن عدة معطيات جديدة من بينها بالخصوص كثافة أواني المائدة وخاصة الأطباق مما يشير إلى بروز نوع جديد من الحياة المعيشية لدى السكان تعتمد أساسا على أواصر القرابة والدم وعلى التعاون الجماعي ضمن إطار الجماعة والمشيخة عامة وتحت لواء أب الأسرة بشكل خاص.

ويمكن الإشارة كذلك إلى ظهور أشكال جديدة من الخزف تحت تأثير الانفتاح الحضاري والثقافي على الشعوب الأخرى وخاصة المغرب الأوسط ومن ذلك ظهور الكسكس والغليون أو تحت تأثيرا ظاهرة التصوف والانغلاق كما هو الشأن بالنسبة للمبخرة.

مراجع بيبليوغرافيا

* الناصري أحمد بن خالد السلاوي : كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى. الدار البيضاء 1956 الاجزاء 7-8 و9.

BRETHES (J.D) : Contribution à l'histoire du Maroc par les recherche numismatiques : monnaies inédites ou très rares de notre collection. Casablanca, imp, Annales Marocaines, 1939 275p. XL /// pl ds. T.

BRISSAUD (Philippe) : Les ateliers de potiers de la région de Lougsor le Caire, Institut Français d'Archéologie Orientale, 1982, 236 p. 17 pl. ds. T.

BRUNOT (Jean-Louis) : "Noms de récipients à Rabat", in Hesperis 1921 T I. I et 2 trim. pp III - 140. 3 pl. h. T.

COMBES (Jean-Louis) : et Louis (André) : Les potiers de Djerba Tunis. publ. du Centre des Arts et Traditions Populaires, 1967, 310 p. fig 17pl. DS. T

GALLOTTI (Jean) : "Les industries d'art indigène en 1913", in France - Maroc 1923 - 24, T : VII. pp : 165 - 68 (3 illust), pp 185 - 87 (6 illust), pp : 205 - 09 (5 illust). T VIII, pp 23 - 25 (2 illust).

MICHON (J. L) : "Poteries rurales et poteries Citadines du Maroc", in L'Oeil Paris, 1980. T 294 - 95. pp 30 - 37. illust. ds . T.

TAOUCHIKHT (Lahcen) : Etude ethno-archéologique de la céramique du Tafilalet (Sijilmassa) : Etat des questions. Aix-en Provence, Université Aix - Marseille I, Thèse de doctorat en Archéologie, 1989. (Dacty).2volume Texte 459 p./ Vol. pl. illust.

VOSSEN (Rudiger) et EBERT (Wilhelm) : Marokkanische tôpferei. la poterie marocaine. Bonn, édit, Dr Rudolf HABELL, G.M.B. H 1986, 549p, illust, cartes ds, T.

تم طبع هذا الكتاب
بمطبعة الأمنية - الرباط

رقم الايداع القانوني : 1084/94
ردمك 3-07-832-9981
لأعمال الدورة الرابعة لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية

إعداد : مركز الإصدارات الوطنية